رواية

الجليل والصعلوك

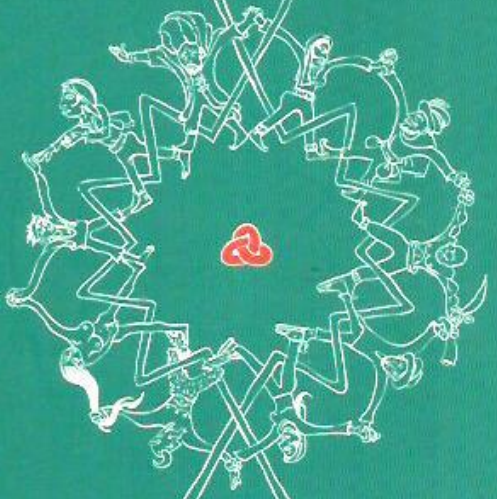

محمد سالم

محمد سالم

الجليل والصعلوك

الكتاب: الجليل والصعلوك
المؤلف: محمد سالم

عدد الصفحات: 240 صفحة

رقم الإيداع: 9987/ 2013
الترقيم الدولي: 978-9953-582-90-0

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر ©.

لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+
مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 27738931(2)20+ - 7332225(100)20+ فاكس. 27738932(2)20+
تونس: 24 نهج سعيد أبو بكر (ط 3) هاتف/ فاكس: 216333714+
البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

بالاشتراك مع دار محمّد علي للنّشر ©

نهج محمّد الشّعبوني – عمارة زرقاء اليمامة – 3027 صفاقس، تونس.
الهاتف: 00216/74407440 الفاكس: 00216/74407441
البريد الألكترونيّ: edition.medali@tunet.tn
رقم النّاشر: 13/484-16

محمد سالم

الجليل والصعلوك

رواية

السرمد
دار محمد عماد الخاني

إهداء

إلى

الوطن الذي آلمني بقدر ما أحببته!

كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يستعيذ في كل صباح ومساء قائلاً: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر.. ومن العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

صدق الذي لا ينطق عن الهوى

كُنتُ حَيًّا بَينهم..
لَكِنَّهم لَن يَروا مني سوى حِكاياتي لِسيرتهِم

مازال الخريف ينازع لحظاته الأخيرة.. تنطلق ريحه الجافة في تهور وغضب علّها تنحت أثرًا لها قبل الرحيل.. الخريف شاب أهوج لا نفع منه ولا علامة تميزه.. حائط زمني مجرد من الأحاسيس يفصل بخجل بين أوار القيظ، وصنابر الأريز.. لكنه عفيٌّ، موجود.. وله حضور خاص في قريتنا..

الريح رجل مكلوم.. تشعرك في هيجانها كأنها تبغي الانتقام.. لكن من من؟!.. أهالي قريتنا ضعاف مساكين لا يرجون غير الستر.. يتطلعون في هلع ناحية الغرب.. حيث أشجار الزيتون تواجه ضربات عدوها بجلد وصبر.. أشجار الزيتون تشبه عجوزًا هرمًا يمتلك الحكمة والقوة.. معطاءة، فمن جودها يقتات الجميع.. وإذا منعت، هلك النسل، وحل الخراب.. سترك يارب..

يعلو الصفير الهادر منذرًا.. يخالطه صوت اصطفاق الأبواب المفاجئ والمتوازي بين أزقة القرية.. كأنهم يتبادلون أنخاب الرعب.. الكل يعود هرعًا إلى بيته.. فها قد ارتفع الغبار عن الأرض معلنًا سخطه لإيقاظه من سباته.. فيصبغ السماء بصفرة كئيبة خادشًا أيادي الشمس الممتدة إلينا.. تغوص بيوتنا الطينية القصيرة المربعة داخل

ذاك الاصفرار وتتوحد معه حتى يخيل للناظر من الأعلى بأن قريتنا أرض سواء لا حياة فيها!

أشجار الزيتون راح خضارها الزاهي يخبو شيئًا فشيئًا.. وحدها تكابد بصلابة عناء المواجهة.. سقط من صفوفها جنديان طارا إلى الأفق في لحظة، وغفلة.. يصحبهما مئات التضرعات والابتهالات بأن يحفظ الله الحرث من غضبة خريف يائس..

بلغ بأس الريح ذروته عند طرف القرية الشرقي القابع في خشوع على شكل هلال منبطح خال من طموح الحياة عند سفح جبل «الغريب».. وراحت تموج في قلب قريتنا كفارس يطارد فلول أعدائه المهزومين.. حتى وصلت إلى السور الحجري الجنوبي القصير.. متخطية نباح الكلاب المرتابة في القبضة القوية الخفية الراغبة في اقتلاع خيام أصحابهم البدو الذين راحوا يتدافعون كالمجانين ليغلقوا أبـواب حظائرهم غير المسقوفة، والمسورة بخشب الخيزران البالي.. على أغنامهم، خرافهم، أبقارهم وجمالهم..

سرعان ما اجتازت تلك العصفة الباغية كل البيوت واعتلت الأسطح حتى اصطدمت بالجدار الصخري العالي في أقصى الشمال الواقف خلفه أشجار النخيل السامقة المكللة جذوعها بالسعف العميم.. فإذا بعراجينها المثقلة بالثمار تتراقص يمنة ويسرى كأنها تطرب من دغدغة الريح لها.. تبعها كل من شجر الأثل والسدر والخمط الملتفين حول نافورة صغيرة مرمرية مؤطرة بتماثيل ضئيلة لأسماك ونجوم، ذات مجارٍ ضيقة تنتهي عند حمام القصر، يتناثر

رذاذها بشكل عشوائي متسارع.. بينما ثبت شجر الصبار بارزًا أشواكه في محله أمام بستان الباحة الخلفية للقصر الكبير كحارس لا يغفو، ولا يتعب، مرتفعًا بقامته السميكة فوق العشب الكثيف المنتشر، وبركة الماء الساجي الضحل، المعكر صفوها هذا الصباح، كاشفة عما بقاعها من حصى ملونة صغيرة..

راحت الريح تتسلق العمدان الرخامية المرفوع بها قوائم القصر المنيف ذي الواجهة العريضة والنقوشات المذهلة.. وتلقي بغبارها فوق بروز الخط الأندلسي المخصر لوسط القصر من كل الأجناب بآيات قرآنية.. فتحيله إلى اللون البني الباهت بدلًا من الأبيض البراق..

انطلق الخدم يذرعون القصر في كل الاتجاهات ليغلقوا النوافذ الزجاجية المغبشة.. ويسدلون الستائر المخملية ذوات البطانة الداكنة.. ويغطون الطنافس الموشاة بخطوط مذهبة بالملاءات الطويلة والملقاة دون عناية على الأرائك الخشبية المتناثرة في فناء القصر المقابل لبابه العملاق ذي الضلفتين والحلق النحاسي الكبير.. كان السلم الرخامي الحلزوني العريض ذو اللمعة الأخاذة زحف التراب عليه بغزارة في أسفله وخف شيئًا فشيئًا صعودًا إلى الأعلى عند السياج الفضي المستقيم بطول الرواق الواصل بين الغرف الخمس، المنتهي بشرفة بعرض ثلثي واجهة القصر مسورة بحديد مقوس مضفور لا يرتفع عن قاعدة الشرفة بقدر ذراعين.. قام الخدم بسرعة فائقة بسحب كل الحصر والبسط المفترشة لأرضيات الغرف والفناء، ولفوها لفات متتالية حتى أضحت في سمك وشكل الأعمدة الرخامية الحاملة لأركان القصر وألقوها في غرفة مجاورة للباب

الخلفي للفناء.. وأحكموا غلق المطبخ ودواليبه المتعددة لحفظ الطعام والقدور والقوارير من تسرب الغبار إليهم.. ثم انطلق معظمهم إلى الباحة الشرقية حيث مسكنهم، منتظرين مرور أنفاس الخريف الأخيرة الثقيلة.. المهلكة..

- 1 -

الجليل

لم تستغرق تلك الجلبة سوى بضع دقائق حتى سيطر السكون على كل الأحياء تاركة الحلبة لصفير الريح ونباح الكلاب وصهيل الخيول في الإسطبل من الجهة الغربية للقصر.. في أثناء ذلك كان مولانا يمشي في تؤدة مرتديًا عباءته الحريرية وثوبه الصوفي الفخيم الأخضر الموشى في أطراف أكمامه ونهاية الساقين بخطوط متشابكة مذهبة، تعلو رأسه عمامته العريضة التي ينتصفها حجر كهرمان أحمر.. مضى يشق خطاه بين الخدم بأناة راميًا عينيه السوداوين ذات الحاجبين الكثيفين تجاه الشرفة الكبيرة.. لا أعرف لمَ يبدو أكبر من سنه؟! فهو مازال في نهاية عقده الثاني إلا أن وجهه النحيف ذا اللحية المدببة، وأنفه البارزة، وفمه الدقيق، وتهدل جفونه يشون بكدر، وكبر.. وتكبر!

وقف قبالة الشرفة كعمود رخامي مرتكزًا على صلفه المتأصل وغروره المتغلغل.. لا ينحني للسعات الشمس، ووخز الريح المغبرة.. لا ينصت إلا لنفسه فهو يؤمن بأن ما دونها هراء لا يعنيه.. يطيل النظر في الأنحاء كصقر يرقب فريسته.. يحيط بها دونما يتحرك سواد عينيه في بياضهما لأنه يحفظها، أو يدرك عدم تغير شيء إلا بإذنه لذا لا ينشغل بما يراه.. فالكل همس مادام لا يرغب بسماعه.. همس لا يعدو خشخشة أوراق

شجر جاف تحت أقدام خنفساء.. أدار النظر إلى أصابعه مع ثبات جزئي في جيده المتصلب.. ورفع كفه اليمنى ليتأملها ثم ركز بصره على إبهامه، وخاطبه بفخر قائلًا:

ـ بإذنك تمحق الحيوات، وترتجف الأوصال، وتنتحب الثكالى.. بإذنك ترزق الأفواه، وتشد أوتارها للضحك والهذر، ويأمن من رقد في مضجعه، أو سار في دربه.. بإذنك تُسير قريتي لما أرغب.. فأنا مليكها الأوحد المتفرد المتصرف..

تنتابه دقيقة صمت، ثم يحدث نفسه بلامبالاة سادرًا:

ـ كيف انتهى بي الحال إلى هنا؟!.. وهل ابتدأ بي في مكان آخر غيره حتى أتذمر بانتهائه إلى هنا؟!

أطال النظر في القرية وراح يردد داخله هازئًا أسماء سكانها وأسماء آبائهم وأمهاتهم وفي أي بيت يقطنون دون أن يحيد ببصره.. فهذا بيت الشيخ سعدان ابن الشيخ حسين ابن القابلة زبيدة.. فقيه قريتنا (قالها بسخرية) وإمام مسجدها الأوحد وقاضيها أيضًا.. بيته أزهى بيت في القرية بسقفه المرفوع ومساحته المترامية.. يجاوره بيت صفوان بن يزيد حارسي الشرس، ويدي الباطشة، منزله ـ يشبهه ـ ضخم وقبيح.. أما البيت الصغير المقابل في الناحية الشرقية فهو بيت زهير الحداد بن رجب الأشعث.. حماي الصانع الكادح.. في الطرف البعيد بالقرب من سفح الجبل يقبع في مهانة بيت فرح بنت زبير مع ابنها مجهول النسب والاسم.. أما خيام أولئك البدو الجربين المصنوعة من وبر الماعز والخراف فأنا لا أحب النظر إليها أو المرور من جانبها، فهم خبثاء جشعون مثل كلابهم، بليت بهم كقدري الأسود ـ لا يجرءون على مجاهرتي العداء إلا أنهم أكثر الناس بغضًا لي كما تفضحهم نظراتهم الجامدة وصمتهم المريب.. في خط التماس الأول للقرية مع أشجار الزيتون يقع بيت رجب السمّار ووراءه بخمسين ذراعًا بيت أنس الحلاق وحمامه الكبير الذي يحمم فيه

ذكور القرية، وينظفهم من الدرن بينما تختص زوجته كريمة بالإناث في مكان مخصص لهن داخل الحمام.. وهذا بيت سهيل الـ..

كتم حديثه مع نفسه فجأة، متغاضيًا عن تتبع باقي بيوت القرية وراح يملِّي عينيه بشجر الزيتون الكثيف الذي اقترب قطافه ممنيًا نفسه بحصاد وفير يؤول مردوده لخزائنه المكدسة، ثم دهمه هاجس ما فأدار ظهره للشرفة، ومضى باكتئاب وبطء مبتعدًا عنها تجاه غرفة الجلوس حيث كُتب أجداده الأندلسيين الناجية من محارق القشتاليين، متراصة في أرفف متعددة لم يصلها بعد معول الزمان، وأريكته العريضة ذات الوسادات القطنية المريحة، والخوان النحاسي متوسط الحجم عليه زهرية زجاجية شفافة..

خلع عباءته وعمامته عنه، وأرخى جسده على الأريكة ثم سلط عينيه على الجدار المقابل له حيث السجادة الكبيرة المعلقة، المغزول عليها صورة جده الأول جعفر بن عبد الله بن سفيان ممتطيًا فرسه المسماة أصيل يطعن أحد القشتاليين بسيفه البتار الذي تروى أساطير عديدة عنه..

أطلق زفرة حانقة وخاطب الصورة قائلًا:

ـ لم حكمت علينا جميعًا بالسجن الأبدي؟!.. خمسة قرون ونحن معزولون عن العالم لا تدركنا الأبصار، ولا يسمع عنا أهالي الأمصار.. اللعنة عليك وعلى الأندلس والمماليك والقشتاليين وإرثك الأحمق الذي لا أقوى على التحلل منه..

ألقى بالزهرية على السجادة فلما ارتطمت لم تنكسر حتى هوت على الأرض قطعًا متناثرة.. ثم أخذته نوبة بكاء غاضبة راح يتلوى معها كالممسوس!

* * *

مولانا هو الجليل صفي الدين بن عمير بن سعيد بن مالك بن خالد

بن علي بن جعفر بن عبد الله بن سفيان.. الجليل هو لقب ولي أمر قريتنا الموكل له حكمنا، وتصريف شؤوننا.. لقب يطلق على أسلافه الذين حكمونا منذ قرون.. أما حكايته هي كل حكاياتنا.. فهو مصيرنا وماضينا مذ حكم علينا القدر بالتيه والعذاب!

يقولون في أطراف المسافات تكمن خبايا الحكايات.. تمور في خفاء، وينضح مكنونها على استحياء.. تحمل ما لا تحمله الأخبار المتواترة عن الأمم، فهي السر المقبور الذي أهال على نفسه غبار النسيان لا تدركه العيون ولا القلم!

يعود أصلنا إلى مكان لم ينبت في قريتنا مثل أجسادنا وشجر الزيتون والأثل والخمط والصبار.. بل إلى طرف بعيد لم تره أعيننا من قبل، أو تستنشق أنوفنا هواءه، أو تلهو كعوبنا في رمال شطآنه، أو يدمغ جلدنا نور شمسه، أو تشبع بطوننا من طعامه، أو نتشاطر أسمار ليله.. إنها مالقة.. أغنيتنا الحزينة، وماضينا الشجي..

* * *

اليوم يكون قد مر زهاء الخمسة قرون عن جمادي الآخرة عام 892هـ.. حيث لحظتنا الفارقة التي حاكت فيها يد الإله كل ما آل إليه قدرنا.. إنها الساعة التي قرر فيها المقبور فرناندو ملك نصارى القشتاليين ـ لا رحمه الله ـ ولا تمهل عن عذابه ضرب حصاره القاسي على مالقة أمنع ثغور الأندلس؛ ليقطع صلة الأخيرة عن أية إمدادات قادمة من إفريقية بالأخص بعد سقوط جبل طارق في يده، فلم يتبق له سوى مدينتنا ذات الربط بعدوة المغرب، وهو الغرض الذي جعله يصر على سقوط مالقة كاملة في يده بالرغم من استيلائه على بعض قواعدها بدءًا من قاعدة بلِّش حصن مالقة في الشرق وحصن قمارش وحصن مونتميور حتى استطاع أن يشرف بحشوده على مالقة من كل صوب.. فطوقها من البر والبحر بأعداد لا تحصيها الأعين، مجهزة بعتاد لا ينضب..

حوصر مسلمو مالقة حصارًا مريرًا.. حتى كادوا يقتاتون الطين اللازب بعدما أجبروا على أكل أوراق الشجر والجلود.. استأسد عليهم وحش الجوع والمرض، وفتك من كل بيت نفسًا أو نفسين.. وبخسة مُنع عنهم المدد سلاحًا كان أو غذاء.. أو حتى مجاهدين.. تحالف على جند غمارة وزعيمهم حامد الثغري وغيرهم من البواسل المدافعين عن الثغر كل الظروف السيئة التي قد تفرض على جيش ما..

لاح لهم بعض الأمل في سويعات قليلة إذ استطاعوا بضع مرات فك الحصار المضروب عليهم والفتك بجنود النصارى.. لكن ما تكون بضع سويعات في حصار امتد لثلاثة أشهر لم يذوقوا فيها غير الوبال وشحيح الأقوات، أو تسمع آذانهم سوى النحيب وصرخات الآلام وابتهالات الاستغاثة، أو ترى أعينهم سوى الدم يسوقه الموت الغاشم.. حتى سقطت مالقة في أواخر شعبان عام 892هـ.. استسلم أصحابها بعد ما أُمنوا على أموالهم وأنفسهم.. لكن فرناندو الخبيث لم يفِ بوعده وأصدر أمرًا باعتبار أهلها رقيقًا وجب عليهم افتداء أنفسهم مهما كان سنهم أو ظروفهم، أحرارًا كانوا أم عبيدًا بفدية للنفس والمتاع قدرها ثلاثون دوبلًا من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطًا أو ما يوازي ذلك من الفضة واللآلئ والحلي والحرير وأنه لن يسمح لمسلمي مالقة ممن أدوا الفدية بالإقامة في مملكة غرناطة ولا في أي ناحية من نواحي قشتالة والحرية والأمان لمن رغب العبور إلى المغرب.. ويستثنى من تلك المنح بنو الثغري وأولادهم وزوجاتهم جراء ما كبدوا القشتاليين من خسائر في دفاعهم المجيد عن مالقة..

كان جدنا جعفر بن عبد الله الفارس الشجاع شاهدًا على تلك الأحداث المريرة ومسهمًا فيها كأحد المدافعين عن ثغر مالقة.. أسعفه الحظ بعدم انتمائه لبني الثغري وإلا وقع عليه ما جار عليهم جزاء بسالته وقوته وفتكه بجيش القشتاليين الذي طوح سيفه من رقابهم قرب الخمسين نفسًا..

آثر جعفر الخروج من مالقة والعبور إلى المغرب لاعنًا الأسهم التي اجتازته والأنفاط التي لم تهوِ على رأسه، والسيوف التي لم تقسمه إلى نصفين، وغير ذلك ممن منعوه عن اللحاق بأقرانه الذين سبقوه إلى الشهادة بدلًا من تلك الذلة والمهانة التي تحوطه وتلغ في نفسه..

هاجر إلى فاس، وأقام بها كبائع للغلال والبذور عازلًا نفسه عن الدنيا والناس، زاهدًا في الزواج والرفقة، منطويًا على ذكريات مالقة التي يرمي روحه فيها كل ليلة حينما يختلي بنفسه ويدع عينيه تتوحدان مع نور القمر الباهت، متذكرًا كيف هوى وطنه تحت عتمة الطمع والشقاق بين الابن وأبيه وعمه حتى ذرته ريح العدوان، وأصول تلك العداوات والفتن في التاريخ الذي لن ينسى جرائم من حكموا، كيف ماتت أمُّه من الجوع، ووالده من المرض في أيام الحصار، واستشهاد أخيه في القتال.. طفولته التي قضى معظمها بالقرب من شاطئ مالقة الماسي ذي الزبد الكثيف والماء الصاخب.. عمه خالد القائد العسكري النجيب الذي علمه الفروسية، وركوب الخيل، والقتال والجلد في أرض المعركة، ولقنه تاريخ الأندلس، وحفظه أسماء الخونة ممن سعوا بصراعاتهم الدنيوية على السلطة إلى هدم الوطن.. طاف بذاكرته حتى توقف عند حبيبته سارة ابنة خالته التي رأى نار الأنفاط تصهر جسدها الغض بينما كانت تداوي الجرحى بهمة ونشاط.. وكيف اتقدت جذوة الانتقام داخله ليلة استشهادها فقتل وحده قرابة العشرين قشتاليًا ولولا ما هده من تعب، ورفاقه الذين لحقوا به ليعيدوه إلى الحصن، لاستمر في قتالهم حتى هلك دون الثأر أو ذهب عقله.. وحين يهل الفجر بنسماته الرطيبة، تنتعش بواطن ذكرياته البهيجة فتثب بصور عديدة للمروج الخضراء الممتدة وركضه مع سارة تحت أوراق الدغل العريضة بحذاء الوادي الرابض في طرف مالقة الغربي وكيف كان يتمتع بمشاهدة قدميها البيضاوين وهما تبرقان تحت سطح ماء الجدول حتى تنتبه هي لاستغراقه المفرط في المشاهدة فتلكزه ليقع في الماء وتُلحق ذلك بضحكة ساخرة مدوية فيجري خلفها مطاردًا،

متصنعًا الغضب حتى يمسكها بقوة فتذوب بين أحضانه ويظل يلثمها للحظات يستعيرها من الزمن قبل فرارها من يديه مرة أخرى..

ترتسم على شفاهه بسمة تظل جامدة مادامت صورة سارة المازحة الجميلة في رأسه أو ملامح فردوس الأرض مالقة، حتى يصل إلى اللحظة الأخيرة التي يتذكر فيها كيف ماتت أو كيف غادر أرض الأجداد حاملًا وزر الهزيمة وعار التفريط على ظهر إحدى سفن القشتاليين..

عاش جدنا في فاس تصله أخبار النكبات الهابطة من الشمال لتملأ نفسه حسرة وكمدًا حتى علم بسقوط غرناطة وتسليم ملكها أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد ابن الأحمر قصر الحمراء لفرناندو ملك القشتاليين وزوجته إيزابيلا في المحرم عام 897هـ وذاك هو آخر ما كان للمسلمين من موضع مُلك في الأندلس.. فعصفت به أعاصير الجنون، وراح يزعق في الشوارع هاتفًا بالسباب واللعنات على ذاك الخائن القذر الذي لولا ما فعله بأبيه وعمه ومهادنته السابقة لفرناندو ما هوت الأندلس في أيدي النصارى أبد الآبدين.. ثم تلا ذلك علمه بتنصر حامد الثغري فارس الفرسان، وتسمية نفسه جونزاليز فرناندیز زغري!!، فتحطمت نفسه، وهاله حجم المصاب، وكره الحياة..

في أواخر عام 898هـ، وصل إلى فاس حاملًا عاره الأثيم وذله المستديم أبو عبد الله ملك غرناطة المنكود المغلوب بعدما ألمح له ملك القشتاليين بضرورة خروجه من أرضهم وعدم رغبته في بقائه على ترابها.. وهنا حاول جدنا اغتياله بسهم لكنه فشل وقتل بدلًا عنه أحد حراسه المعينين من مضيفه أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس.. فآثر جدنا الهروب من المغرب راحلًا إلى إفريقية لئلا يقبض عليه.. لكنه لم يمكث هناك سوى عامين حتى قرر الهجرة إلى مصر..

وصل جدنا إلى مصر، وهاله قدر الفساد بين المماليك وانغماسهم في الملذات وتسلطهم على رقاب العباد، ومؤامراتهم الدنيئة على الأشرف

قايتباي سلطان مصر لتولية ابنه محمد دون علمه استغلالًا لمرض الرجل وهرمه وعدم قدرته على الوقوف ضدهم.. حتى توفاه الله عام 901 هـ.. وولي ابن محظية قايتباي «أصل باي» الغلام الفاجر المتوحش السادي مُلك مصر.. فتمثل لجدنا حقيقة واحدة أمامه أن كل ملوك الدنيا بحاشياتهم ما هم إلا صورة مقززة بعضهم من بعض وأن شهوة المُلك ما هي إلا ثعبان خبيث يدس سمه في عروق الدانين منه فيفرق ويفتت، يهدم ويبعثر.. أحرق الله مرمس قاصديه وطلابه..

أثارت صراعات مصر داخله حكايات عمه عن تآمرات عبد الله وأخيه سليمان بن عبد الرحمن الداخل على ابن أخيهما الحكم، جعفر الصحفي على الأمير المغيرة بن عبد الرحمن الذي قتله محمد بن أبي عامر حليف جعفر وعندما تمكن من الملك سجن الصحفي وسلب ماله ثم قتله.. خيانات سليمان الكلبي والي برشلونة والحسين الأنصاري والي سرقسطة كلبيا شارلمان، المستعين ملك طليطلة والمظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ذي القول النجس: (لو نازعني أبو بكر وعمر على هذا الملك لقرعتهما بالسيف) يتجرأ على صحابة رسول الله ويدفع الجزية صاغرًا لملك النصارى!، ناهيك عن التافه المعتمد بن عباد، تمرد عمر بن حفصون لأربعين عامًا ثم تنصره مع بعض أبنائه.. تحالف محمد المهدي مع النصارى ضد البربر المسلمين انتقامًا من العامريين.. خلافات أبي الحجاج يوسف الثاني مع بني سراج ووقوع الزهراء جار غرناطة في أيدي القشتاليين بسبب عداواتهم المستمرة.. وغيرها من الخيانات والتحالفات والمؤامرات والاغتيالات والدسائس من أجل الملك الزائل حتى صارت الأندلس ذكرى مبكية بعد ثمانية قرون أضاءت بنورها العالم عندما أطفأ آخر جذواتها إمبراطور الخونة أبو عبد الله..

سكن جدنا قرب ضريح الحسين سيد الشهداء ووجد في مقامه سلواه وعزاءه تارة ومثارًا للشجن وجلد الذات معظم الأحيان، واستكمالًا مريحًا لانغلاقه على ذاته، وكيف لا وقد قتل حبيب رسول الله وحفيده

من أجل الملك؟!.. اشتغل جدنا في تجارة الغلال والبذور كما كان في فاس.. استقر في خان الخليلي حيث أشهر أسواق الشرق والذي أنشأه الأمير جهاركس الخليلي كبير التجار في عصر السلطان برقوق، الخان مبنى مربع كبير يحيط بفناء ويشبه الوكالة، تشمل الطبقة السفلى منه الحوانيت، وتضم الطبقات العليا المخازن والمساكن، وبذلك كان جدنا يعمل ويسكن في نفس المكان، ألف المصريين، وأحب طرافتهم وسخط على الذل الذي يعتليهم وفقرهم المدقع وفجر حكامهم..

في أوائل أسابيعه في مصر لاحت له من خبايا الحظ وردة برية قرب بيته.. فتاة في السادسة عشرة من عمرها.. خبله جمالها أو لمحة الشبه بينها وبين حبيبته المتوفاة سارة.. تعلق بها وأهمل عمله.. داوم على مراقبتها وتتبع أهلها زمنًا فوجدهم خير الناس.. وكاد أن يفقد لبه حينما علم بأصولهم الأندلسية وبالتحديد مالقة التي هجرها والدهم المتوفى تلبية لرغبة زوجته المصرية.. فدفعه ذلك للإقدام على خطبتها.. وكان له ما أراح له قلبه..

تفتحت دروب الأيام الهانئة أخيرًا في وجه جعفر بعدما وصدت سنين طوال.. شغله حبها عن كل ما أصابه من كدر الزمان.. تزوجها، فكانت وجه السعد عليه إذ راجت تجارته واتسع رزقه في زمن قياسي.. وفي يوم ما خرج للتنزه مع زوجته قرب ضفاف النيل لعل رقة مائه، وبهاء لمعانه يذكرانه بشواطئ مالقة فيستخرج من دفائن نفسه أجمل ما ذاقته طوال حياته ليشاطره مع زينب زوجته الحبيبة.. يحدثها عن موطنها الأصلي الذي لم تره من قبل، عن الفردوس المسلوب.. الأندلس..

لم يعلم جعفر المسكين بأن نزهته تلك لن تجلب عليه وعلينا سوى التعاسة والخوف سنينًا طويلة متتالية.. ونكبات ما بعدها نكبات.. فبينما هو مستلقيًا على ظهره يُحدث زينب ويستمتع بمداعبة النهر الرمادي البراق لأطراف قدميه في لحظة الغروب الخلابة.. هبط عليهما رسول

الشؤم محمد بن الأشرف قايتباي سكرانًا مترنحًا مستغرقًا في طيشه كخفاش قبيح.. لم يميزه جعفر لكنه انتفض من استلقاءته تلك بعدما استرعى انتباهه نزق المتقدم نحو زوجته..

قال السلطان محمد بوجه صفيق خبيث ورائحة الخمر تفوح منه:

ـ أتبادل تلك المرأة الحلوة برضا مولاك السلطان؟

لم يدر جعفر ما حل عليه وقتها إذ هوى بقبضته الحديدية على وجه السلطان فأوقعه أرضًا ثم ركله بغضب هادر في بطنه ليصيح الأخير مستغيثًا مستنجدًا بحرسه ورفاقه.. سرعان ما قفز على جعفر أحد الحرس وأول سيلهم، فطوحه جدنا كاسرًا ساقه ثم هبط الآخر أمامه فطعنه في بطنه، ثم هرب مع زينب في سرعة خيالية بين الحواري الضيقة القريبة لضفة النهر في حي دير الطين وهدته قدماه للتواري في منطقة بساتين السلطان قرب المسجد الغربي الذي بناه الفاطميون كأول مسجد في تلك المنطقة حتى جن الليل وأسدل ستره المعتم، فغفلت الأعين وفلت بأعجوبة من حرس السلطان الذين انتشروا كالجراد في كل الأنحاء حيث اتخذ طريقه من حي الجمالية متجهًا إلى جنوبه حيث شارع الأزهر ثم بيته في خان الخليلي..

ظل جدنا حبيس منزله قرابة اليومين لا يدخل عليه سوى أخوي زوجته صلاح و حسن.. اللذان اجتثهما الرعب من هناء الأمان بسبب ما حدث ويقينهما الحاسم بأن يد الانتقام ستطالهم جميعًا بعنف دام، فالمماليك طغاة لا يعرفون الرحمة ولا يتركون ثأرهم.. فارتسم علىّ جبين جعفر عبوس لا يريم.. واهتصرت أمنيته بالهناء مرة أخرى وكأن الدنيا أبت ألا تذيقه سوى الشقاء.. فتلقف شبح الهروب مريده الذي يتجسد فيه كل صنوف البؤس وقذفه غارقًا في لعنته الظلامية السرمدية.. وكأن قدره أن يعيش مخفيًا كرسالة مطوية مجهولة، خصوصًا بعدما وصف الحارس وجه جعفر العربي القمحي للشرطة فتولت مهمة البحث المحمومة عنه للقبض عليه ومن ثم إرساله للسلطان محمد المتيم بتعذيب السجناء

وقتلهم بأشنع الطرق.. وتركز بحثهم في الأحياء المعدودة التي يتمركز فيها المهاجرون من الأندلس.. فاقترب الخطر..

* * *

اصطلى جعفر بنار القلق وتقرح جلده من اجتياحات الهلع التي قذفته في لجها المسموم مع نسيبيه بازدياد بحث الشرطة المفرط عن ذاك العربي الذي أهان السلطان وقتل حارسه.. كان بحثهم مضطربًا عصبيًا بعد صلب رئيسهم على يد السلطان إثر فشله في القبض على جعفر في ليلة الحادث.. وكأن قضية العربي أضحت الهم الأول للسلطان وتابعيه المخلصين.. عندئذ شعر جدنا بقبضة القدر تحكم الخناق على رقبته وحياته.. فاستدعى أخوي زوجته وأشار عليهما بالفرار من القاهرة إلى أي مدينة أخرى في مصر أو إلى الحجاز حيث مستقر جذورهم.. راقتهم الفكرة في أولها لكنه في عصف تفكيرهم المحتدم توصلوا إلى حقيقة جلية.. أن ارتحالهم إلى أي مدينة في مصر لن يصحبها سوى نفس الخطر الداهم وأن سلوكهم أي طريق غير مسالك المسافرين خارج مصر سيعرضهم للأسر ونسائهم للسبي على أيدي قطاع الطرق أو يُقبض عليهم من حرس السلطان.. هنا قفزت فكرة في عقل صلاح أخي زينب الأكبر بأن يغادر ثلاثتهم بنسائهم ومتاعهم وأموالهم إلى بطن صحراء متناهية البعد لم يقصد تجاهها أحد من قبل، فلا تطالهم أيدي المجرمين ويأمنوا فيها حتى حين.. تحمس حسن لمقترح أخيه وخضع جعفر لإرادة الهجران المتعسفة التي لم تفترِ على أحد في الدنيا بقدر افترائها عليه..

وحم الرحيل المكتوب في سجلات الإله على ثلاثتهم.. انطلقوا في أغباش الليل إلى مكان لا يقصدونه أو يقصدون غيره، إنما الهروب غايتهم والجزع دافعهم والأمن هو أقصى آمالهم.. خالطوا سواد الليل حتى اندمجوا فيه.. واهتدوا بنجمة الجنوب كدليلهم في رحلتهم المجهولة.. فإذا نبش أحد العسس المنتشرين في الطرق في سترهم أجابوه بأنهم تجار

يقصدون سوق الحي المجاور.. قد يثيرون الريبة في الشرطي بعض الشيء فيفتش أحمالهم فلا يجد فيها غير غلال وثياب، ماء وطعام وأعشاب، أطفال صغار نائمون وأربع نساء متبرقعات كان بينهم جعفر!

خرجوا من زخم المدينة في الغداة وراحوا يخترقون أغوار ما طوي من صحراء الأرض حتى إذا عزم أحدهم المكوث في بقعة ما اختلفوا فيما بينهم بحجة قرب المكان من البشر وما يعنيه ذلك من عدم الأمان أو بحجة طبيعة الأرض صخرية كانت أم رملية جرداء.. واستمروا في مسيرهم المضني الحائر تسعة أيام حتى خمدت إرادتهم عن الإكمال ووني ذووهم من الارتحال.. فَأتاهم الله فجأة بما خرجوا إليه حينما بان لهم في البعد جبل وحيد تستظل بفيئه أشجار ونخل وعشب قد تكاوست عند طرفه الشمالي.. وبقعة ماء تتلألأ بلمعان فضي بازغ في جواره ليست كالسراب.. عندئذ وئد خلافهم في مهده واستقروا جميعًا على المكوث هناك..

كانت قريتنا ساعتها فتية كعذراء لم يطئها إنسي قط، كل ملامحها بريئة طبيعية كما بدأ الله الخلق أول مرة.. جبلها الكامل الذي لم تنل من جسمه المعاول بعد، ماؤها الصافي الرقراق، نخيلها الذي يتساقط رطبه فلا يتناوله إلا جذورها الراسخة في باطن الصحراء.. سيل متدفق من الحياة ينبض في عروق الأرض الممتدة الخافية.. لاحت لجدنا كعروس متقنة الجمال ترقد فوق مضجعها المزدان فارجة عن فخذيها تنادي: «هيت لك»!

نصبوا خيامهم في وسط محايد بين الخضار والماء، وراحوا يفرغون أحمالهم، ويرتبون أمورهم تحت مراقبة ذئاب الجبل وجوارح السماء ذات الصبير الرائق.. ثم استسلموا لوهن الوسن، وغطوا في نوم عميق كادت تلتصق على أثره أجسادهم بالأرض من طول مدته حتى أيقظهم ريح حارة صاخبة، وعرق غزير، وظمأ جامح..

- 2 -

الصعلوك

جالس وحده في خفايا جبل الغريب.. الكون زائغ بصره عنه.. العدم هو مرضه الأزلي.. لم يكن سطرًا مضافًا للحياة بل عبئًا عليها.. الليل أنيسه وساتره من ذنب لا يد له فيه.. هناك فقط يتأمل، يجلد ذاته، تعود إليه الروح المهملة، يناجي من لا ينصت إليه.. وحدها الذئاب هي من رقت لحاله.. تمنى لو خلق ذئبًا ورافقهم.. ففي ليالي الشتاء، تجول الذئاب أركان المساحات.. عواؤها ترتيل لحكايات الأجداد.. تذكرنا بأجدادنا الأوائل.. وكيف احتضنتهم وأمنتهم على السكنى في رحابها.. الصحراء ملك الذئاب، والبرد هو موسمها لبسط سلطتها المطلقة.. تعلو بعوائها فوق صفير الرياح، وعزف الحكايات، وصمت السكون، وغيم السماء.. كم تمنى أن يخلق ذئبًا يؤويه قطيع ما.. ينطلق معهم مسابقًا أنفاسه ولهثه وركضهم الشرس.. ترتمي تحت أنيابه الضحايا مذعنين لقواه المرعبة.. فتتدفق دماؤهم الحارة لتدفئ سطوته، وتغذي كبريائه.. ثم يعود مع القطيع منطلقًا دون حساب لأقدامه المنفلتة حتى يعتلي أولهم قمة ما فيصيح بعوائه معلنًا سطوته السرمدية على كل ما يريد.. هناك فقط لذة المنتهى، ونشوة الوصول.. فيعوي معهم إلى ما شاء الله.. ثم ينزلق لمصير محتوم يكون فيه السيد وغيره يرجو رحمته التي لن ينالها أبدًا..

ـ أنا ذئب..

هكذا هتف بنشوة لاحقًا هتافه بعواء ساذج خرج من أعماقه الملتهبة بقروح الألم..

لهثه بدأ يخف، وعاد الدم يصل إلى عقله ليعيده إلى رشده.. أو حقيقته المنحطة.. نعم، فهو أحط من أن يحلم بتغير حاله.. فمثله لا يحق له الحلم بأن يصير ذبابة.. هو أحقر من كل شيء ودون خلق الله جميعًا، حتى إن الله يزدريه مذ كان رضيعًا ـ هكذا يظن.. اسمه الصعلوك إبن الزانية.. هكذا يناديه الآخرون متهكمين أو ساخطين.. أما زهير الحداد فهو الوحيد الذي كان يناديه باسم ثعلب بن فرح لكثرة عشقه للذئاب.. لم تختر له أمه اسمًا فقد كرهته منذ صار نطفة في رحمها ووجدت في وجوده عائقًا لا معينًا، تأبى إطعامه إلا إذا فاض منها طعام لا تجد شهية في إكماله.. لم تداجي فرح عداوتها لابنها بل تباهت بذلك لتبرز قسوة تجعل الآخرين يخشونها.. حتى إنها في بعض الأحيان لم تكن تقبض ثمن مضاجعتها من أحد زوارها ويدعى حزم بن عاص، وإنما تطلب منه إمتاعها بعلقة ساخنة لذاك الولد ابن الحرام لأنه تأخر عن تنظيف الدار أو مساعدتها في أمر ما.، وكان الأخير يؤدي ذلك في مهارة لجسمه العملاق ووحشيته البهيمية، فيضرب ولدها بغلظة وقوة حتى يكسر بعض ضلوعه أو يشج رأسه. فجسد الصعلوك هزيل ووجهه منحول وصحته رديئة يسهل على أي رجل التنكيل به..

صارت الطرق مأواه منذ نعومة أظفاره، والسحب الهواضب ستره، وعواء الذئاب أنيسه، أو إشفاق عابر من زهير الحداد خالٍ من دفء الأحاسيس الكافي لمسح القهر من نفسه.. كساه الوسخ حتى اختفى لون جلده؛ لكن ظل بريق عينيه يافعًا ساطعًا كالنجوم التي ظل يتأملها طيلة عمره باحثًا عن رحمة إله لم يشعر برحمته أو يسمع عنه سوى بضع مرات من خطب الشيخ سعدان لكنه موقن بوجوده وإهماله الفج لحاله.. لمَ

يكرهني الله وهو خالقي؟!.. ذاك هو سؤاله الذي يدور عقله في فلكه كل يوم.. لم يستطع كل ذاك الإجرام في حقه قتل الإنسان داخله بل غذا مشاعره الآدمية وذكا نشاط عقله الحائر وأدمى قلبه الآسف الساخط، الآمل اليائس، المحب الباغض..

في كل مرة يسمع فيها اسمه (الصعلوك ابن الزانية) تزلزله الأحزان وتعتصره الآلام، لم يفده تكرار الإهانات في جعله صنمًا لا يشعر.. يود لو يطوي الأرض في بضع خطوات لينأى بأذنيه عن سخرية الأوغاد، ولمز أهل القرية، ومشاغبة الأشرار وأذى الصبية.. الكل يحتقره ويستلذ أذاه.. يمد الخطى مطأطئ الرأس يود لو توارى عن أعين الناس لكنه لا يجد إلا أنفاسهم الكريهة باسطة يديها له وتندرهم يلفحه في كل خطوة فلا يأويه إلا الهواء ليلتحف به ويغوص فيه هاويًا هلعًا.. فأين الملاذ؟ والعراء يلفظه قبل المأهول والقلوب موصدة في وجهه قبل العقول.. ما ذنبه؟!.. إنه رجس من صنع زانية.. ذاك هو حجة المنكلين به.. لكنه لم يؤذِ أحدًا من قبل ومستعد لمسامحة كل من أذوه فقط لو كفوا أذاهم عنه.. لمَ يصب عليه الجميع الكراهية والسخط وهناك البدو المتمرغون في تراب الزنا لا يصيبهم السوء مثله وكذلك رجالات القرية الذين زار معظمهم فراش أمه إلا من رحم ربي أو ألف غيرها؟!.. اللعنة على ضمير مسخ، وعدالة منكسرة، وحياة لا حياء فيها..

كان تمسكه بالحياة حياديًا.. تمنى الموت لكنه لم يجرؤ على اقتحام عالمه وكره الحياة لكنه لم يقوَ على هجر أرضها.. آمن بأن الله حكم عليه بالموت قبل أن يحيا.. وأمر جسده بالحياة حتى يموت.. فأضحى الموت سرًا يعجز أمام برهان خبثه ومنالًا لا يأتيه.. كره الله، فهو سبب بلائه والوحيد القادر على مساعدته لكنه يأبى رحمته كأهل القرية.. في ليال كثيرة حينما يشتد عليه التنكيل يجأر مناديًا ربه بسخط:

ـ هل تلذذت بما أصابني الليلة أم أنه غير كاف لك؟!.. هل أعددت

شيئًا أكثر وحشية وقسوة لتسلي بها نفسك في ملكك الكئيب؟!.. أجسدي ضعيف كفاية ليصيبه هائل الألم أم أنه يحتاج ليضعف أكثر وأكثر؟!.. أجبني.. ها.. أم أنك تخلق ثم تنسى أو لتلهو بخلقك وعذاباتهم.. أكرهك وأتمنى الانتقام منك..

هنالك فقط تستبد به سطوة الغضب لمرحلة لم يصلها إنسي قط، ولو أن الله آتاه من القوة ما يوازي غضبته، لهلك الكون من بطشه..

كان يردد عقله دومًا مقولة واحدة:

ـ ما ألد عداوة القدر لبني الإنسان، يليه ضراوة هجمات الهوام والوحوش والأمـراض.. أما الشيطان فقد هوى منحطًا بين المس والوسواس.. وما كل أولئك إلا عصاة غليظة تضرب بها يد الإله كل البشر، وما أهونها من عصاة مقارنة بقوة حاملها، الذي إن شاء هلكنا.. لكنه خلقنا ليعذبنا.. ليجعل سواد البشر في نار لا يشفى استعارها، ذات بطن لا تكف عن هضم الحيوات..

نعم، هو يعلم أنه ليس الوحيد الذي يعذب.. فهناك عم زهير المنكوب في ابنته.. والجليل المفؤود في حبيبته وزوجته الخائفة على ملك قد يزول من يدها.. وامرأة الشيخ التي جنت انتظارًا لوليد لن يأتي.. وأمه المغدور بها.. والبدو المغضوب عليهم.. وباقي أهل القرية التعساء تحت بطش الجليل وقرصات الجوع وهلك البدن.. لكنه بلا شك أقساهم مشقة وأكثرهم عذابًا.. هو الله السبب لا محالة ـ ذاك عدوه الحقيقي الذي يذكر نفسه دومًا بآثامه!

لطالما راوده حلم هجر القرية لكنه مثل باقي أهلها خائف من المماليك وشرهم وقطاع الطرق وغدرهم، ولا يخشى مثلهم الهوام والوحوش.. هو لا يستطيع تحمل شر أقسى من شر أهل قريته لذا تهون عزيمته دومًا قبل اتخاذ القرار.. لكن غريزة المخاطرة الملتصقة بعشقه للذئاب ظلت تغذي داخله ذاك الحلم وتزينه له بالإضافة إلى أن حاله

لن يسوء أكثر من ذلك.. على الأقل المماليك لا يعرفون سيرة أمه.. وأي عذاب سيسقونه له سيكون أهون من التندر عليه وسلخه بألسنة حداد..

يعيقه الجسد الهزيل، وقلة الحيلة، وندرة الزاد.. هذا ما أدركه عن معوقات حلمه لذا بدأ يدخر الغذاء في كهوف جبل الغريب.. يأكل النصف ويخزن النصف.. حتى صار أكثر هزالًا.. لكنه حي وعازم على المغادرة.. كثيرًا ما أجل موعد رحيله لندرة رزقه أو لالتهام الذئاب طعامه المدخر في الكهوف.. لكنه لم يسخط عليهم فهم أخوته وسيكونون حراسه في رحلته الطويلة الخطرة..

هو الآن في التاسعة عشرة من عمره.. حيث يهزم الشباب المرض والخوف والجوع والألم.. لن يقف في طريقه أحد.. معه ما يسد جوعه وعطشه لأسبوع بأكمله.. وأسبوع كاف ليجوب الأرض كلها وليس تلك الصحراء ـ هكذا أيقن بعلمه المحدود.. سيقابل علامًا أو هند أو كليهما.. هما نبتا قريته الطيبان الوحيدان اللذان زرعا في أرض الأشرار هذه مع عم زهير.. بالتأكيد هما ينعمان بالحياة والحب في الطرف الآخر من الأرض حيث سيحتضنانه ويعتنيان به.. لن يقف في طريقه أحد.. فحراس القرية يعرفونه.. ويعرفون أنه لا قيمة له ولا فائدة ترجى منه أو خطر يأتي من إثره.. سيهاجر وحيدًا كما خلق وحيدًا يتلوه ظله المستكين وعواء الذئاب السابح بحرية في الأجواء والقمر الذابل كعادته ووداع جبل الغريب ولعنات إله لن تتركه!

- 3 -

الجليل

لن تسعفهم مؤونتهم فترة طويلة.. هذا ما أوقن به ثلاثتهم بعد مدة قصيرة، وتضطرب حوله أفئدتهم.. فهم لا يدرون بأي اتجاه ساروا ولا في أي بلد يقيمون ولا يملكون من مقومات الحياة سوى بئر ماء عضوض سبقهم لاكتشافه شخص ما وهو ما اتضح من الدلو المعلق في قطعة خشبية تتوسط فوهته.. فما السبيل يا الله؟!.. تلك كانت زفراتهم وأناتهم الخافتة.. هنا تطوع جدنا جعفر بالبحث عن بلد قريب وجلب ما يكفي الجميع حينًا من الزمان.. اعترض صلاح وحسن على الفكرة في بادئ الأمر فجعفر هو هدف السلطان والشرطة، وذهابه إلى أية ناحية سيعرضه للخطر وخصوصًا أنه لا يمكنه التنقل في زي امرأة كما جاء معهم.. لكنه أقواهم وأعلمهم بفن الصحراء وهو ما أفصح عنه ترحالهم معًا، كما أنهم يخشون مفارقة نسائهم وأطفالهم، أما جعفر فلا أطفال لديه وإن هلك فزينب أختهم ولن يهملوها.. لذا توافق الجميع على سفر جعفر، فاستعر وجدان زينب قلقًا وغمًا لكنه طمأنها بعودته السالمة الغانمة إذا ما استمرت في دعائها له..

انطلق جعفر متخطيًا عوائق الصحراء، متشبثًا بالأمل، مستعينًا بتتبع الشمس ومواضع القمر واتجاه الرياح بعدما أملاه صلاح وحسن كل

طلباتهما اللاتي ستكفي الجميع أمدًا بعيدًا سواء من الغذاء والكساء وأعشاب الدواء.. كان على ظهر فرسه أصيل التي لم تفارقه في أي معركة خاضها في حياته قبلًا.. وتلك هي أم المعارك.. معركة الحياة يقتحم معتركها من أجل زينب صاحبة فضل إعادته لمجرى الدنيا بعد انحرافه الموجع عنها.. معركة من أجل أندلسه الجديدة التي عوضه بها الله عن الوطن الفقيد..

* * *

ارتفع نهار اليوم العاشر على غياب جعفر.. غفق الهلع قلوب الجميع.. هد القنوط نفوسهم وتفصدت جباههم بعرق الرعب والحر.. زاد اختلاء زينب في خيمتها تعج إلى ربها بالدعاء المستغيث بأن يرد لها حبيبها الغائب.. القوت شحيح والحمى تصهر رأس سعاد زوجة حسن ولا مغيث إلا مسافر قد لا يعود.. ولسان الحال يقول:

ـ ما العمل يا رحيم؟!.. لقد ظلمنا وأجبرنا على بيع ما نملك وترك البلاد العامرة إلى ذاك الطرف الخفي بأطفالنا ونسائنا لئلا تطالنا يد ذاك المتجبر الفاجر.. ها قد أحاط بنا عصف الجوع وضربات المرض وأنياب الموت وليس لنا رب سواك.. الرحمة يارب فقط نسألك فلا تمنعها عنا.. احم جعفر ورده لنا سالمًا فبنجاته نجاتنا، وبهلاكه هلاكنا..

في عصر اليوم الثاني عشر لُفظ من كبد الصحراء جدنا بقامته الممشوقة العريضة محملًا بكل صنوف المعاش.. يقود بفرسه أربع جمال، وبقرتين وبضعة خراف وماعز، يجاور مسيرهم كلاب لا تكف عن النباح ومشاكسة بعضها بعضًا.. كاد قلب جدتنا ينخلع من فرط البهجة، وراح حسن وصلاح يرقصان كالسكارى من فرط الإعياء ويصفق أطفالهم في ثيابهم المتسخة.. وطافت ريح خفيفة بالأحياء كأنها تشاطرهم نشوة الفرحة.. فعودة جعفر هي عودة لأنشودة الحياة..

راح جدنا يحكي لهم أهوال ما جابه في رحلته والمخاطر التي اجتازها

بسيفه تارة وبحيله تارة أخرى وكيف كان الطريق من مكانهم هذا للعمار وعرًا خطرًا.. اطرد حديثه معهم حتى فجر اليوم التالي وهم يتحلقون حوله لا يفرق في شغفهم للاستماع بين كبير وصغير.. كان شغفهم نابعًا من رغبتهم في التحايل على وضعهم الذي أجبروا على القبول به إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، على الصمود أمام تلك الهجمة العاتية من سوء أيامهم.. فالدنيا سلم إذا صعدته فستنزله، وإذا نزلته، فانتظر رحمة الأقدار الآذنة بالصعود مرة أخرى!

* * *

بعد مرور يومين على عودته طلب جعفر من حسن وصلاح اللحاق به إلى الجانب الغربي للتشاور معهما في أمر مهم.. كانت نبرته جادة ووجهه ينذر بقلق يضطرم في صدره حينما بدأ حديثه معهما قائلًا:

ـ تعلمان بأن منزلتكما عندي هي منزلة الأخوة المتحابين المتصافين.. فقد اصطفاني الله بقربكما ونسبكما.. ولما حاق بنا المصاب وجدت فيكما خير العون والسند.. وفي تلك البقعة المجهولة من المعمورة نجاتي هي نجاتكما ونجاة أهلينا.. فلذا وجب عليَّ مصارحتكما بما يعتمل في نفسي منذ ما وطئت أقدامنا هذه الأرض..

صمت للحظة يرقب رد فعل كلامه على وجهيهما ثم استطرد سائلًا:

ـ هل فكرتما ماذا سنفعل حينما تنفد أموالنا؟

رد حسن بعفوية مستريبة قائلًا:

ـ ما بالك يا جعفر تسألنا ذاك السؤال؟!.. فنحن نعلم أن وضعنا هكذا هو مؤقت حتى يصرف الله ذاك الباغي وزبانيته عن حكم مصر ثم نعود إلى عهدنا السابق.. وما أكثر انقلابات المماليك بعضهم على بعض، ولا أعتقد أن حكم ذاك السلطان القذر سيستمر كثيرًا.. وحينها نعود ونبدأ بما تبقى من أموالنا تجارتنا التي ستزدهر بأمر الله لأنه سيعوضنا عما تعرضنا له من ظلم..

هتف صلاح مؤيدًا لأخيه قائلًا:

ـ نعم الكلام ما قلت يا حسن.. ماذا دهاك يا جعفر لتزيد مخاوفنا من المستقبل أكثر مما يفيض في قلوبنا؟!

رد جعفر بحسم وغضب عارم قائلًا:

ـ المماليك كلهم دنس.. فإذا ولى عهد أحدهم جاء من يخلفه بشر أعظم منه.. وأنتم أعلم مني بذلك.. أنا أريد الأمان الدائم والرخاء الذيَ لا ينضب..

ـ ماذا تقصد؟!

ـ أقصد أن نعمل عملًا هنا يدر علينا العائد الذي يمنعنا الفاقة.. وقد عوضنا الله بتلك الجنة.. أفلا ترون؟!

هنا أطلق حسن ضحكة مجلجلة وقال هازئًا:

ـ هل نفتح حانوتًا هنا نبيع فيه للأشباح والذئاب الغلال والأقمشة؟!

ابتسم جعفر مجاملة لفكاهة نسيبه التي انتزعته من حدته ورد قائلًا:

ـ ليست التجارة ما أقصد.. بل الزراعة..

ـ الزراعة؟!

ـ نعم الزراعة..

ـ لكننا أهل تجارة ولا نعرف شيئًا عن الزراعة.. ثم كيف نزرع في تلك الصحراء البور؟!.. أما تحتاج الزراعة تربة خصبة وماءً جاريًا لتنمو وتزدهر؟!

أجاب جعفر بثقة:

ـ سنزرع الزيتون.. الزيتون لا يحتاج الكثير لينهض من تربته.. هي زراعة تعلمت فنونها في الأندلس من والدي الذي كان يعمل في الفلاحة.. ثم إن الأرض هنا ليست بسيئة..

ـ وكأنك يا جعفر تبشرنا بالمكوث هنا إلى قيام الساعة.. ما هذا التشاؤم؟!

ـ حديثي لا علاقة له بالتشاؤم والتفاؤل بل بأموالنا التي قد تنفد بينما أهل الطغيان مازالوا يعيثون في الأرض فسادًا ويملكون نواصيها فتهلكنا متاريس الفقر والحاجة.. أما إذا اعتمدنا في معيشتنا على شيء آخر غير أموالنا فهنا قد نكون أمنا أنفسنا من عوادي الشقاء.. ها ما قولكما؟!

خيم السكون على رءوس الجميع.. يراجعون في تأنٍ ما ألقاه جعفر من كلام ويتدبرون جدواه ونفعه وإمكانية تنفيذه.. تردد داخلهم جميعًا نفس السؤال المخيف.. هل سنمضي هنا بقية أيامنا حقًا أم هي مجرد شهور وتنتهي مأساتنا؟.. وماذا لو كان بقاؤنا هنا هو قدرنا الأبدي؟ فالهلاك ورب الكعبة هو ما ينتظرنا إن لم يتغمدنا الله برحمته ونجد حلًا ما.. لذا انصاعوا لمشورة جعفر آملين الفلاح..

* * *

مر عام ونصف العام على وجودهم في الواحة التي ازدان محيطها بأشجار الزيتون المورقة المثمرة اللاتي جلب أشتالها جدنا من أرض البشر.. صلح حال الجميع، وطابت لهم الإقامة.. نادرًا ما راودهم حلم العودة إلى القاهرة اللهم إلا من باب الحنين لأنس البشر فقط لا غير.. أنجبت زينب مولودها الأول وكان ذكرًا أسمته مسعودًا.. وشرع الثلاثة يبنون قصرًا منيفًا بهيًا يؤويهم جميعًا بدلًا من الخيام التي لا تصمد تحت السيل الجارف ولا الريح العاتية، استهلك تشييد أساسه فقط من جهدهم عامًا بأكمله بسبب الأعمدة اللاتي كان يجلبها جعفر وحده على مرات متتالية وقلة العاملين في البناء.. كان عائد الزيتون سخيًا فاستعانوا به على تأسيس حياة كريمة لهم ولأبنائهم وزوجاتهم.. فصار كل شيء مبعثًا للسعادة والأمل حتى اطلع الشيطان على شأنهم!

لا يُعلم تحديدًا في أي نفس عبثت الوساوس أولًا هل في نفس

صلاح أم حسن.. لكن الأكيد أن أحدهما صارح الآخر بما يجيش في صدره من ظنون وسخط على جعفر وأيده الآخر دون نقاش.. فجدنا هو الوحيد الذي يعلم سر الطريق للأرض المأهولة، وهو الذي يبيع الزيتون ويشتري حاجات الجميع.. كما أن الشك قد غمرهما بأنه يختلس المال ليشتري به حليًا لزينب وهو شيء ليس من حقه بل وجب عليه أن يتذكر بامتنان أياديهما عليه وأنهما يبذلان جهدًا أقصى منه أثناء سفره سواء في الزرع أو الاهتمام بأمن الجميع بما فيهم زوجته وابنه فيقتسم معهما المال بالتساوي..

اجتمعا على جعفر وأفصحا بحنق عن مكنون صدورهما فما كان من الأخير إلا أن دافع عن نفسه ثائرًا، متهمًا إياهما بنكران الجميل بدلًا من شكره والثناء عليه لأنه يتولى كافة مسؤولياتهما دون أن يجشمهما بما لا يقدران عليه، وأنه لولاه، لهلكا.. فهما لا نفع منهما في نظره.. وهو الذي علمهما الزراعة والبناء، كما أنه يخاطر بحياته كل مرة لأنه أقواهم وأعلمهم بفك طلاسم الصحراء.. عندئذ احتد الخلاف بينهم، وتجاوزت الكراهية حائط القرابة، وحل الشقاق أو الفراق.. هنالك أمسك حسن العصاة من المنتصف مدعيًا الحكمة والإنصاف ودعا جعفر اصطحاب أحدهما معه وليكن صلاح في رحلته القادمة فوافق جدنا على ذاك الحل المهين المتمخض عن عقل نسيبه الذي آثر هو وأخوه البقاء في الواحة لما تغدقه عليهما أشجار الزيتون من خير على العودة إلى القاهرة يقاسون فيها ضرائب المماليك العالية وفصال الزبائن البغيض مع أصحاب المحال ومتطلبات المعيشة الكاسحة كحال أي مدينة في العالم..

خاصم جعفر كلًا من أخوي زوجته وحلف على زينب بالطلاق إذا تحدثت معهما.. ظلت تمور في نفسه المضطربة لأيام ذكريات سقوط الأندلس، وكيف استهلت سقوطها بتنازع الأخوة والأبناء على الملك والمال.. كيف تفتتت لطوائف يحكمها ملوكًا شتى وكيف تسبب ذلك بسقوطها يومًا وراء يوم حتى أفل نجمها بتنازع أبي عبد الله مع أبيه أبي

الحسن وعمه الزغل على ملك غرناطة حتى آلت لملك النصارى.. خالطت ذكرياته للأندلس لمحات مشوهة مثيلة لما يحدث في مصر بين المماليك..

ـ اللعنة على المال والجشع والطمع والملك.. أكلما نهضت أمة أتاها الشيطان هادمًا من زينتها: المال والبنين؟!.. ما الذي دفعهما ليظنا بي الظنون بعد ما عانيت من أجلهما وعانوا معي حتى اجتزنا تلك المحنة وأبدلنا الله بجنة تفيض بالخيرات وملكًا لنا ولأولادنا من بعدنا؟!

لن تسقط الأندلس مرة أخرى.. هذا ما تفوه به جعفر بحزم وحدة بعد أيام متواصلة من الصمت المطبق والفكر المضني!.. يقينه بأنهم لن يكفوا عن الحسد ولن تقنع قلوبهم أبدًا.. الجشع أول الهلاك، وهلاكه كالعاصفة يجتث كل ما حوله.. هكذا علمه التاريخ..

لم تستطع سعاد منع نفسها من تقريع زوجها، ولعن غبائه حينما أخبرها بما جرى.. كيف يسمح لأخيه بالذهاب مع جعفر دونه فيتحالفا عليه ويُتعسا حاله؟!.. وهل كانت المشكلة في جعفر فقط أم هي الرغبة في الاطمئنان لحصول زوجها على حصته العادلة من عائد الزرع دون أن يسرقه أحد.. وكيف يأمن أخيه على المال وهو متزوج من تلك الحرباء كوثر ابنة يونس السقا الذي لم يحلم طوال حياته بأن يناسب عائلة مرموقة كعائلة صلاح.. فهي بقبحها، وسلاطة لسانها لا تستحق إلا شحاذًا حقيرًا يذيقها صنوف العذاب.. وبالتأكيد ستحرض زوجها على نهب ما ليس بحقه.. فهي تأكل الحرام وتحمد الله بتبجح بعدما تهضمه!

* * *

انطلق ثلاثتهم يلازم بعضهم بعضًا بالأجساد وتفرقهم نوازع الغل والكراهية.. يمتطون صهوة البغض وتدق طبول الشياطين على رءوسهم.. لا يتفوه أحدهم ببنت شفة مع الآخر ويحتاط كل منهم لكيد أخ الأمس.. لكن كيف ينفع الاحتياط والحذر أمام قوة جعفر العاتية التي تفوقهما

عشرات المرات والذي انتظر إلى اليوم الثالث في ترحالهم حتى يقضي ما عزم عليه قبل الرحيل حينما انقض على حسن كالبرق ونحره بخنجره تاركًا صلاحًا جزعًا مذهولًا للحظات قبل أن يلحقه جدنا بطعنة بقر فيها بطنه فأطاحت به من فوق حصانه ليتقاطر فوق جسده اللين دمه السائل الساخن المنزلق على ظهر فرسه..

وهكذا نفذ جعفر ما ألزم به نفسه بألا تسقط الأندلس مرة أخرى.. قضى على شهوة المال بقتله لنسيبيه اللذيان أعماهما الطمع عن الاستمتاع بجنة منحها الله إياهم وانشغلا بالخراب والفرقة بدلًا من البناء والاتحاد.. مكث جدنا في عرض الصحراء أيامًا بعد دفنهما شاردًا يلهج لسانه بقول واحد لا غير: (لن تسقط الأندلس مرة أخرى) وكأنما قد جُن أو أصابه الخبل!

رجع جعفر إلى الواحة يترنح من فرط التعب.. متقيح الجراح في ساعديه المصقولتين، مشجوج الرأس، مهلهل ثوبه دون فرسه أصيل وأخوي زوجته.. فتحلق حوله النسوة والأطفال يسألونه في هلع عما جرى، وكيف أصابه ما أصابه؟ وأين هما صلاح وحسن؟.. أخبرهن بوهن وأسى كاذب بأن قطاع الطرق أغاروا عليهم وسرقوا مؤونتهم وجيادهم وأموالهم، وقتلوا حسنًا وصلاحًا وهما يدافعان معه عن القافلة، وأنه لم يستطع صد عدوانهم لكثرة عددهم، وشدة بأسهم.. فهرب للنجاة بحياته..

وهكذا علا النحيب، والعويل لأيام.. وانسكب من المقل الدمع الملتاع، وفاض على خدود النسوة والأطفال عدا جعفر الذي ظل جامدًا في غرفته بالقصر يردد داخله جملته التي أضحت تلازمه أكثر من شهيقه وزفيره (لن تسقط الأندلس مرة أخرى).. مر الوقت كئيبًا موجعًا على الجميع.. واستحال البكاء إلى سكوت خشن ألجم الكل انتظارًا لخروج جعفر من عزلته..

لا يُدرى تحديدًا متى خرج جدنا مما حبس نفسه فيه بارزًا كصنم لدن أو كنبي أوحى إليه بجلل.. كانت عيناه متحجرتين وملامحه محايدة تقف على خط رفيع بين الهم والفرح أو الجد والهزل حتى عذاب الضمير لم يبن أعراضه عليه بل كان مرتاحًا هادئًا وكأنما شنق أحاسيسه واحدًا تلو الآخر في خلوته، والحقيقة أن طائفًا من الجنون قد أصابه.. هلت أماراته حينما قتل أخوي زوجته لكنه تفشى، وتوغل في عقله بعد انقضاء عزلته.. وزع نظراته على الذين تحلقوا حوله.. على سعاد زوجة حسن وأطفالها الثلاثة نور وهاجر وقتيبة، على كوثر زوجة صلاح وأطفالها أمينة وأم كلثوم وعميرة ومحمود.. ثم أراح ناظريه على وجه زينب وهبط بعينيه على مهل حتى استقرت على بطنها التي تنمو فيها بذرته الثانية.. هنالك اختطف مسعود الذي كان يحبو بجوار أمه ورمقه باستغراب ينبت في حواشيه على خجل حشائش حب ذابل.. ثم أنزله برفق وتنهد بعمق قائلًا بصوت لا يجاوز الآذان المنصتة له:

ـ منذ اليوم ستعاونني جميعًا في الأرض.. ولكم عليّ مأكلكم ومشربكم وكسوتكم وبناء بيوت لكم ولأبنائكم حتى يقبض الله روحي من بين جنبيّ.. من لم يوافق على عرضي، فأرض الله واسعة ولا يبيتن في القصر منذ لحظتنا هذه.. وليتولاه الذي خلقه.. أما من بايعني على السمع والطاعة فله مني ما عهدت..

افترشت عباءة الذهول وجوه النسوة جميعًا يهمسن لأنفسهن ما بال هذا المخبول يحدثنا كأنه أمير أو ملك، كيف تجرأ على مخاطبتهن هكذا متناسيًا ما لهن من مكانة كأرملتين لنسيبيه؟!.. لكن سرعان ما هتف صوت العقل داخلهن ليكتشفن أنهن فعلًا بلا حول ولا قوة كإماء في حاضرة خليفة ما.. فإما أن تبتلعهن الضواري بعيالهن أو تقطعهن سيوف قطاع الطرق كما قُطّع صلاح وحسن أو يقضى نحبهن من الجوع والعطش إذا انزلقن لمجاهل الصحراء المتشعبة.. وإما يوافقنه بإيماءات خاضعة على ما قال وذاك ما حدث حينما اندفعت كوثر من بينهن لتهوي على

يده اليسرى بقبلة مستكينة ترجوه العطف وألا يقسو عليها أبدًا فيكفيها مقتل بعلها، ويُتم أطفالها، وذكرته بمآثر صلاح الرفيق المعين له في كل المحن التي تعرضا إليها حتى آخر أنفاسه ويشهد على ذلك دمه المختلط برمل الصحراء وأن ما يجري في دم أطفالها فيه ما يجري في دم مسعود.. وسرعان ما لحقتها سعاد بنفس القبلة والذلة والكلمات..

❋ ❋

سحقت تأملات جدنا عقله.. أضحى حجرًا مضافًا لأحجار الجبل من يبوسه، وتهدل عارضيه وتجعد جبينه.. ظل حبيس همه المعتلج في صدره، وفيض الخواطر المنساب على لبه.. الدم هو بذرة الجنون، ويداه قد ألفتا سفك الدماء حتى نمت البذرة في رأسه وصارت شجرة زقومنا.. نهشت في قلبه تساؤلات عدة على مدار سنوات سبع تلاصقت شفتاه خلالها من ندرة استعمالهما.. هل قتل نسيبيه حفاظًا على أندلسه الأخيرة حقًا أم طمعًا في ملك لمع بريقه؟ هل سينهار يومًا ذاك الجدار الأصم الذي أحاط به فردوسه وأفنى جهده، ليزداد صلادة أم سيتسع عمقه وتمتد جذوره الضاربة؟ وإذا كان قد قتل حقًا من أجل الحفاظ على وطن شقت عنه باطن الأرض فجأة، فما السبيل لذلك؟ هو ميت لا محالة مثل كل نفس خلقها الله فكيف سيتسنى له الوقوف كطود راسخ أمام أي طامع أحمق قد يأتي من بعده؟.. منتهيًا دومًا بالسؤال الذي يقهره: لم ترك الله الناس يمتلك بعضهم نواصي بعض فيشاع الهرج والمرج، وتسكب الدماء، وتفقد الأرواح هباء ويولى من لا يصلح، ويعاني العباد مشاق الدنيا أضعافًا مضاعفة؟!

لم تتداع تلك الأسئلة مترنحة أمام لا جواب.. بل صاغ خلالها جدنا شكل دولته المثلى التي لا تنكسر،ولا تنثني.. لم تذهب تأملاته هباء بل تمخضت عن حكم محكم رسم معالمه في أغوار نفسه.. لذا ذبح بدم بارد ولده الطيب الهزيل مسعودًا كما قتل من قبل أخواله مستعينًا بحيلة

غير سابقتها إذ ادعى أن الذئاب نهشت لحم ابنه في غفوته وليبرهن على صدقه عاد حاملًا قطعًا من لحم مسعود المضمخة بالدم القاني، متلافيًا الخطأ الساذج الذي وقع فيه أخوة نبي الله يوسف حينما عادوا لأبيهم بقميص أخيهم عليه بقع دماء غير ممزق!

دفع مسعود الطفل البريء ثمن المُلك المحكم الذي ابتغاه والده.. وذاك هو أول خيط الشرك الذي وقعنا فيه جميعًا لأمد ممتد.. رأى جعفر في مسعود الغباء لا الذكاء، الضعف لا القوة وهما الوتدان الرئيسان لأي ملك.. فبغض نواقصه، واعتبرها عللًا لا تبرأ.. وزلزالًا يقصم ظهر أي مملكة.. أما علي ـ أخاه الأصغر ـ فهو على العكس تمامًا ذكي، قوي، صبور، قليل اللعب كأي طفل في عمره، كثير التشبه بأبيه دون تعلق به.. لكن ذلك لم يكن سوى سبب واه أمام السبب الأقوى الذي حار جعفر فيه، وأعجزه لفترة طويلة، وهو أن المُلك لا يستقيم في وجود ندين وبالتالي لن يستقيم لأخوين، سيتصارعان عاجلًا أم آجلًا تحت وطأة إغراء الملك والمال.. فيقتتلان ويفتحان الثغور لأعداء الوطن ليبيدوهما ويُمحى الملك على إثرهما.. ألم يكن ذاك حال الخسيس أبي عبد الله مع أبيه أبي الحسن وعمه الزغل؟!.. لذا وجب عليه التضحية بالضعيف فيهما.. وجب عليه قتل فلذة كبده ليعيش حلمه.. وهكذا أورثه وفرة الدم المسفوك على يديه الخبل حتى لم يعد في عقله مثقال ذرة وعي تحول بينه وبين ولده!

تفرغ جدنا بجزل وحبور لتعليم علي حكمته الخاصة وكل مهاراته من أول غرس الزرع حتى القتال بالسيف.. تقفي الأثر والغوص في الصحراء.. بناء البيوت والقراءة.. كل ما نهله من الدنيا سقاه لولده الوحيد الذي أعده لخلافته.. لا، ليس خلافته.. بل لتحقيق نظريته في المُلك المحكم.. وصل به الحال لائتمان عليّ على كل أسراره، وأدق تفاصيل حياته، المخجل منها والمجيد، حتى قتله لأخواله أخبره عنه!!.. أما زوجته زينب فقد ضاع طيفها في أغوار الأحزان وأضحت ظلًا شاحبًا بعد موت فلذة كبدها مسعود أو إهمال زوجها لها إثر خروجه من عزلته

الأولى.. سعاد وكوثر ذابا كحبة ملح في كوب ماء لا يسمع لهما همسًا أو يصدر عنهما فعلًا.. قنعا بالعيش على ما يجود به جعفر وتربية أطفالهن في هدوء.. كفا عن مشاجرة بعضهما بعضًا بالأخص بعدما غارت قوة زينب حدهما الفاصل.. وراحا يلقنان عيالهن درسًا واحدًا أن ما افترس أباهما يحوم بشراسة حول تخوم واحتهم فلا يقربوها أبد الآبدين..

عند بلوغه السابعة عشرة ائتمن جعفر المسن ولده على سر البقاء، وصون الملك.. أطلعه على الطريق إلى أرض البشر المجاورة.. علمه كيف يبيع الزيتون ولا يغلبه تُجاره.. من أين يشتري حاجيات قريته بأرخص الأثمان وكيف يحسب مقدارها بدقة حتى لا تنفد قبل أوانها.. كيف يمشي في الأسواق دونما يلفت انتباه اللصوص.. كيف يدير المال ويتدبر أمره ويحتاط به من ضربات القدر بادخار جزء منه.. لم يكن ذاك سوى النزر الباقي مما في جعبة جعفر من علم يمرره لولده معززًا ذلك بإسدائه نصائحه الأخيرة أو دستوره الخاص الذي عكف عليه تأملًا سنينًا عديدة ولت:

ـ لا تُقاسم أحدًا غيرك معرفة طرق الصحراء فهي مفتاح ملكك إن سلمته لأي إنسان مهما علا قدره، وحظي على ثقتك، فإن ملكك سيزول لا محالة، فالبشر خائنون بغريزتهم.. وهو ليس بالمفتاح الهين الذي تفرط فيه.. إن له قوة وسحر خاصين، فبه تملك ولاء رعيتك، وخوفهم منك.. سيتسابقون برضا للحفاظ على حياتك وخدمتك، فقد ملكت أفواههم، ومن لا سلطة له على بطنه، نزعت منه جل إرادته.. أما المال فلا تريهم يا ولدي إياه ولا تفرقه عليهم.. المال لعنة إذا وقع في أيديهم ستصيبهم لوثة الجشع والطمع في الزيادة.. وزع عليهم حاجياتهم بما تراه مناسبًا لقدر عملهم في الزيتون أو في أي عمل آخر.. عودهم على الاستكفاء من عطاياك لئلا يطالبوك بالمدد.. إعزلهم عن العلم فكلما نضج عقل الإنسان ازداد شططًا وعصيانًا وغرورًا أما جهلهم فلا بأس به مادمت تدرك وحدك مصلحتهم، فالجهل مستودع راحة العقل من آلام المعرفة والتفكير، أما قراءة القرآن، فلا بأس بها ماداموا لا يبلغون معاني حروفه وكيف يبلغونها

إذ انقطع عنهم كتب المفسرين والمحدثين.. لا تخالط الناس بطبعك، فيفطنوا إلى مثالبك ويأتوك منها، إنما إنأ عنهم بالجمود والجد.. أخفهم دائمًا بالأخطار المحدقة والأعداء المتربصين وأشغلهم بالتضرع إلى الله كي ينجيهم منها متحدين خلفك وفي طاعتك كبنيان مرصوص لأنك ربان سفينتهم الذي يملك وحده خارطة الأمان.. لا تدنِ منك غير ولدك كما قربتك مني لكن ليس في أي مرحلة من عمره تدنيه إنما تمهل عليه كما تمهلت معك فلا تفرغ له ما في جوفك قبل الأوان.. لا تتوان لحظة عن قتل من تأكدت تمرده عليك فالمتمردون أخوة الشياطين والتمرد هو أول إثم دب بحوافره في الحياة على يد إبليس ـ لعنه الله ـ حينما عصى أمر مليكه بالسجود لآدم.. لا تنجب أكثر من ذكر واحد، فإن فعلت، فاذبح ولدك بيدك قبل أن يذبحك ويذبح إخوانه ويخرب قريتك بهوس الملك والمال، إعلم بني بأن ذاك الجزء هو أعظم ما أوصيتك به، فهلاك الأمم يبدأ من رحم واحد سكنه أخوان.. كن أكيدًا بأنه سيكون لقريتنا يومًا ما شأن عظيم بين الأمم إذا التزمت بما أمليته عليك وألزمت به ولدك من بعدك.. لقد وهبنا الله بذرة لننميها وننهض بها بازغة لا لنفنيها بصراعاتنا وحماقاتنا..

* * *

في خريف مجهول مات جدنا فجأة دون مقدمات، متوحدًا مع جموده وصلادته وعزلته، كأنما ناهض فكرة الركوع للمرض، ووهن الشيخوخة، وسأم الغربة اللائي لم يستطعن النيل منه في أواخر أيامه كحال كل هرم تغزوه الأوجاع.. سقط كورقة شجر اصفر خضارها بهدوء تاركًا إرثه الممتد المحكم كأغلال فولاذية تخنق رقابنا ليعيش فكره بيننا بشباب أبدي لا يفنى..

دفن خلف جبل «الغريب» هكذا أسماه حينما سكن قريتنا.. وطارت روحه إلى السماء العالية، المتعالية.. تركنا حبيسي اعتقاده المجنون، أسرى لنسله من بعده واحدًا تلو الآخر يسيرون على نهجه كما يسير صحابة نبي ما على هديه.. لا يشذ أحدهم، ولا يحيد مهما اختلفت الظروف،

وتعددت المغريات وكثر النسل.. أضحى تعداد قريتنا زهاء الألف نفس.. كان من المفترض أن يكونوا أكثر لولا القتل الظالم، وطعنات المرض.. ثم تفرق نسل قريتنا وتمايز.. فأولاد المصريات زوجا صلاح وحسن يشار لهم بالوضاعة أما أولاد زينب، فهم النسل النقي المعصوم على الرغم من أن كل نسلنا هو خليط بين الدم الأندلسي والمصري لا يزيد فيض أحدهما عن الآخر في وريد أحدنا.. لكنه كرور الزمن، والتزلف لجليل القرية هو ما جعل أهالي قريتنا يتفننون في احتقار أنفسهم وتصنيفها تبعًا لرضاء الجليل على أحدهم!

تنوعت حيل الاستبداد على قريتنا بتغير اسم الوريث وتوالي السنين، أما عصب المصاب وصايا جدنا فمازال عفيًا دون مساس يخوض في أمورنا كما لو كان جعفر حيًا.. حتى امتلك زمام أمرنا الجليل صفي الدين ابن أخس نسل لجدنا ـ المقبور عمير ـ الذي لقن ولده فنون القهر، وأحكام الطغيان.. أما زيتوننا فشاع وانتشر شجره ليسد الأفواه المفتوحة قدر استطاعته، ولولا القتل الباغي لهلك أهلونا من الجوع وجشع كل جليل!.. حتى الحق في اختيار نوع الميتة حُرمنا منه، فإما نهلك جوعًا أو تضرب أعناقنا إثر حكم جائر من الجليل أو فقيه القرية.. القتل يحفظ التوازن في قريتنا تلك هي الوصية الوحيدة المضافة لدستور الجد المخفي، كتبها عمير الدموي اللعين لتنامي طمعه في أقوات الناس من أجل الصرف على نزواته في مواخير أرض البشر.. وعلى كل، الموت حضن رحيم لكل أسير بائس، يخطفه من بطش جلاده إلى رحابة السماوات.. وما أشد حال أسرانا!

- 4 -

الصعلوك

هي لعنة الصحراء ولفظها المتجسد.. أفعى في مرونتها.. حرباء في تلونها.. مهرة في قوامها.. ساطعة في تزينها.. جرداء في قسوتها.. شاسعة في مطامعها.. هوجاء في غضبها.. غامضة في خبثها.. غزالة في خفتها.. شحيحة في عطائها.. عاصفة في أذاها.. حارة في شهوتها.. سراب في خيرها..

تلك فرح بنت زبير..

لما كانت مريم ابنة عمران وفاطمة بنت محمد هما سيدتا نساء العالمين، ففرح بنت زبير هي أحقر نساء العالمين والشياطين.. الخير والشر نقيضان يقفان على مسافة متباعدة، لكن يجمع بينهما شيء واحد فقط، أنهما لم يخلقا ليصفا أمثال فرح.. هي عكس كل خير وأشر من كل شر.. وضاعتها لا حد لها، وإبليس هو ملاك الرحمة جانبها!.. لا تمنح غير الأذى ولا تسعى إلا إفسادًا، لا ينطق لسانها إلا بالفحش ولا يهوى قلبها قدر الخراب للجميع.. قتلها الله وأحرق مرمسها ومتع نار جهنم بلحمها..

ـ آه يا أولاد الزنا.. يا مخنثون.. راكعون طوال حياتكم وتدعون أنكم واقفون.. جعلتم شرفكم حبيس فروجكم حتى صار كالبول النازل منه..

مجرد عبيد أنجاس لا تعرفون غير التضرع بين يدي الجليل، أو لعق أقدامي على فراشي.. هذا ما أنتم عليه وتتوهمون غيره.. تحتقرونني وأنتم الأذلة، ترتفعون عن ذكر اسمي ثم تأتونني ساجدين في الليل.. آه لو مُلّكت على رقابكم لقطعتها، وتغوطت فيها أو فصَّلتُ منها نعالًا متينًا..

هذا ما تزوم به في كل صباح إذا أفاقت من نومها مبكرًا.. ترش الماء أمام بيتها لتهمد الغبار المثار، وتجوس بناظريها الحاقدين في الأنحاء.. تتطلع بشغف ولوعة المشتاق إلى قصر الجليل.. القصر الذي عاشت فيه أجمل أيام حياتها ونهلت فيه من ملذات الدنيا حتى ثملت.. ثم تنظر خلفها فترى كوخها الرديء المتهالك البعيد عن بيوت أهل القرية الأطهار كما صنفهم الجليل صفي الدين وصنفها كزانية لا تتوب، وراءه سفح جبل الغريب كأنه عملاق يحرسها.. مسحت يدها في صدرها وتنهدت بحرقة قائلة:

ـ أما آن للعاصي أن يلين.. لتهجع روحي وتستكين..

لو أحصيت نعم الله على البشر، لأحصيت مثالب المقبور عمير بن سعيد وشروره الذي لم يدع إثمًا إلا وارتكبه.. أما فرح بنت زبير فهي باكورة جرائمه في عالم النساء..

كان زبير فلاحًا بسيطًا معدمًا مثل سواد قريتنا الأعظم، له زوجة جميلة ذات عينين زرقاوين وشعر أشقر اسمها ياسمين، توفيت عقب إنجابها لابنتها ببضع شهور بمرض لم يستطع تشخصيه طبيب القرية عم فرج.. تربت فرح في بيت حزين تطفو فيه ذكريات أمها، فارغ من كل معالم الحياة حتى من أبيها الذي يعمل كمزارع بكد لتوفير معاشهما.. أول ما أدركته من دروس الدنيا أن الفقر هو عدو السعادة، لذا لم تذق طعمها طوال سنواتها الأربعة عشرة مع والدها.. فهي بالكاد تأكل أو تلبس في حين ينعم بعض أطفال القرية بالخيرات لقرب آبائهم من الجليل دون أن يكدوا مثل أبيها.. القرب من الجليل إذن هو مفتاح جنتها الذهبي ـ هكذا

أيقنت بيأس المغلوب على أمره.. فكيف لها أن تنال منزلة عالية عنده وهي ليست بإمام القرية أو راعيها أو ذات عضلات مصقولة مثل الرجال الذين يحيطون به، أو زوجة له؟!

حظيت فرح بجمال وجه أمها غير منقوص، وقدٍّ عماتها الممشوق المغري.. فارت أنوثتها الخابلة في ربيعها الخامس عشر وكذلك طاش عقلها عن الصواب.. أفقدتها هنات الصبا الصبر والرضا، فتاقت إلى تعديل مصيرها مستخدمة سلاح النسوة الأهم ـ الجمال.. حارت كثيرًا في تحديد صيدها الذي ستغويه لينتشلها من بؤسها.. بدأت بتحري أمر فريستها الأولى سعدان بن الشيخ حسين لكنه لم يعرها بالًا إذ كان متيمًا بصفية ابنة الحطاب.. ثم فكرت في الراعي عبد الرحمن لكنه عجوز وتقي وليس له سوى ثلاث بنات لن يرثن مهنته كي يتزوجنها ويغدقن عليها النعم.. فتحولت إلى عم عثمان كبير المزارعين الذي لم يخِل عليه حركاتها أمامه وتصرفاتها اللافتة لإغرائه، فنهرها عن الاستمرار في محاولاتها لإثارته وقرعها بعنف ثم أبلغ أباها الذي عاقبها بالضرب المبرح حتى تزاحم على جلدها الأبيض الكلوم المتورمة..

مضت تطوي ساحات القرية ودروبها علها تبلغ طوق نجاتها.. لا تكف عن التبجح بأحلامها وآمالها حتى تحت اشمئزاز قريناتها وتهكم أهل القرية عليها وضربات أبيها العنيفة الذي أيس منها وتمنى لو يستردها الله قبل أن تدنس شرفه، وتمرغ رأسه في التراب.. كانت أسعد لحظاتها حينما تخلو القرية من سكانها إبان هبوب ريح عاصفة، أو مطر غزير.. هنالك فقط تأنس بقبح أفكارها وتأتيها الدنيا كلها منبسطة في حلم هي بطلته الوحيدة.. لكنها في إحدى الليالي الممطرة لم تعرف أن لحلمها بطلًا آخر سيقتحمه ليقاسمها فيه عندما ظهر لها الجليل عمير تحوطه عباءته كشيطان متنكر..

ميزته عندما أزاح ستر وجهه كاشفًا عن ابتسامته الماكرة.. فارتبكت..

لم ترتبك لأنه رجل وهي فتاة ألقت بهما المصادفات في قارب واحد يخلو فيه بعضهم ببعض.. لكنها ارتبكت لأنها لم تتهيأ لملاقاة مولاها الجليل صاحب كل الرفعة.. وزاد ارتباكها حينما بدأ الحديث معها بصوته الفخيم المفعم برجولة ساحرة:

ـ ما اسمك يا حلوة؟

طاردت شجاعتها في كل خلايا جسدها لتجيبه بعزة تليق به وبجمالها، وتحكمت في غصنها المهزوز لتثبته، فأجابته قائلة:

ـ فرح بنت زبير

ـ ابنة زبير المزارع الطيب؟

ـ أتعرفه؟!

ـ أنا الجليل يا فرح كيف لا أعرف رعاياي؟!.. رحمة الله على أمك فقد كانت امرأة تقية بهية الطلة..

لفحتها غبطة حينما علمت أن الجليل يعلم أبويها وأنها ليست في أسفل السافلين كما توهمت.. فلمعت عيناها الزرقاوان وزاد وهجهما بعدما استطرد قائلًا:

ـ المطر الليلة يسكب سكبًا، والذئاب لا تكف عن العواء.. بيتك بعيد يا صغيرة وأنا أخشى عليك العودة وحدك.. تعالي معي إلى القصر حتى الصباح.. وعند الصباح أبعث بمن يردك لأبيك سالمة معافاة ويطمئن قلبه..

وافقته دونما تدري على اقتراحه، واتقد شغفها واجتاحتها الأماني بأن تصبح سيدة القصر.. فالجليل غير متيم بزوجته كما يشاع عنه وجمالها لن يخذلها.. والقدر دومًا يخبئ الأفضل للبشر كما يقول الشيخ حسين في خطبه..

ـ يالله هل حقًا سأصبح عروسه عن قريب؟!.. يالله هذا كل ما أبغي

وإن رغبت فيما دونه، فأنا جشعة هالكة تستحق عذابك الأبدي.. يالله أتوسل إليك أن تسخر لي قلبه وتجعل متنفسه هواي وقرة عينه وجهي..

لم تفق من استغراقها في أمانيها إلا على وهج المشاعل المتناثرة على مدخل القصر وجلبة الخدم وهم يتهافتون على سيدهم لينزعوا عنه العباءة المبتلة ويستبدلوها بعباءة أكثر دفئًا وأناقة.. نزع عمامته، ودلف من باب حجرة استراحته الأرضية مصطحبًا فرحًا من يدها البضة البيضاء آمرًا أحد خدمه بأن يأتيها برداء أنيق، وبعض الطيب ومنشفة.. ثم تركها الجليل لتبدل رداءها العفن المبتل وتتطيب من عطن الطرق والفقر، وتمشط شعرها المبعثر..

لم تدر فرح ما جرى لها وهي محاطة بكل ذاك النعيم.. المدفأة الأنيقة والطنافس المذهبة والسجاد المشغول بعناية والريح الطيبة والصوان الممتلئ بصنوف الفاكهة والمرآة المذهبة والسكون الباعث للطمأنينة.. ارتدت جلبابًا أزرق كلون عينيها، مخصرًا أنيقًا لا يدع فتنة من مفاتنها إلا وصرخ هاتفًا بها.. مسحت عنقها الأبيض بعطر الياسمين وإبطيها وكفيها.. أما شعرها فاسترسلت في تمشيطه أمام المرآة المذهبة لا إعجابًا به لكن انبهارًا بما تعكسه المرآة مما يحيط بها في الغرفة.. هنالك دخل الجليل بخلسة كثعبان يخشى الضجة.. وراح يرمق صيده في تعجب وخبث وهي غارقة في تمشيط شعرها وخيالاتها وفرحها الساذج.. بعد وهلة أراد الجليل شق جدار الصمت فقال بولع هامسًا:

ـ أواه ما أجملك!!

توقفت يداها المعلقتان بشعرها وخدرتا من وقع الكلمات.. فظلت جامدة تتلذذ بوقعها في أذنيها وتسبح في أمنيتها المرجوة متعجبة من سرعة استجابة الإله لابتهالها.. لم تفق من ذهولها حتى أمسك الجليل بيدها وجذبها برفق إليه.. فقامت منصاعة لجاذبيته ترجوه في خواطرها المهتاجة أن يكون فارسها المنتظر حتى جلست جواره على منضدة قطنية

مستطيلة وظلت تراقبه وهو يخرج صندوقًا خشبيًا من تحت سريره وفتحه ببطء كأنما يشوقها لما به.. أخرج لفافة صغيرة ممهورة بكلمات كثيرة ومزدانة بألوان زاهية..

ـ أتعلمين يا فرح ما بتلك اللفافة من نعيم؟

لم تنبس فرح ببنت شفة، وبدأ يتحول تعجبها إلى اعتقادٍ بخبل الجليل.. فكيف سيكون النعيم في لفافة لا تتجاوز حجم الكف؟!.. لكنه استطرد قائلًا:

ـ في تلك اللفافة لذة لم تختبري مثلها من قبل.. تفوق لذة العشق، ورغد العيش، وسرور الحكايات المسلية.. جئت بها من عالم البشر بعد معاناة تكبدتها لكنها تستحق كل الملك.. لم أهدها إلى أحد من قبل فأنا لا أحب أن يشاركني أيًا ما كان لذتها؛ لكن جمالك ووقعه في قلبي يحثني على مشاركتك إياها.. على أن تعديني إن أعجبتك وملأت قلبك سعادة بأن تمنحيني مقابلًا مناسبًا..

تيقنت فرح بعد تلك الكلمات أن الجليل مخبول معتوه.. لكن أليس خبله جذابًا؟!.. أليس حديثه يحمل لذة أسرار الحكايات؟!.. لمَ لا تجاريه علها تفوز بالحسنيين.. هوى قلبه ونشوة سره الموعودة..

ـ ما تحوي تلك اللفافة يا مولاي؟

ـ يالله ما أجمل صوتك وعذوبته!.. إن بها سر الفرح يا فرح.. ألا تحبين أن تعرفي سر اسمك؟!.. ها ها ها..

كان إغواء اللفافة يستبيح فرح أكثر من الجليل والثراء ورغد العيش.. فمدت يدها لتمسكها لكنه أزاح يده عنها قائلًا:

ـ دعيني أفتحها لك وأخرج كنزها من تحت ستره.. ألقمها لثغرك الرقيق وأرقب على مهل ردة فعلك..

ـ أتُؤكل هي يا مولاي؟!

ـ نعم يا حلوة.. مذاقها فيه النعيم المقيم.. ومضغها لا يضاهيه متعة أي صنف آخر من الطعام.. تذوب في الحلق بحنو فتتلقفها المعدة لتنتشي بدورها.. هاك يا حلوتي لتدخلي جنتك..

وقعت فرح في دوامة من الانتشاء، شعرت بذوبان روحها في حلقها وتحلل جسدها من ماديته الفانية.. تمنت لو مضغها يدوم أكثر من عمر النجوم اللامعة والأرض الممتدة أو تنتهي حياتها قبل انحلال سحر ما تأكله إلى أعماق أمعائها..

ـ ما أجمل ما أطعمتني إياه يا مولاي.. إن مذاقه يفوق كل لذة خلقها الله في العالم..

ـ ألم أبشرك يا حلوتي بالنعيم.. أصدقت أم كذبت عليك؟

ـ بل صدقت ورب الجعافرة.. زدني منها يا مولاي..

ـ ها ها ها.. ما أجحدكن معشر النساء.. أسرعان ما نسيتي عهدنا يا فرح؟!

تورد وجهها بحمرة الخجل.. وأرخت ناظريها على ظلال الحائط قائلة في دلال وخضوع:

ـ أتملك مثلي شيئًا يا مولاي تهبه لك؟!.. أنا مثل أهل قريتنا يعيشون من فيض خيرك، وعطف حنوك..

ـ انفرج وجهه عن ابتسامة تنضح مكرًا قائلًا:

ـ لقد أطعمتك غذاء الملوك، وسر سعادتهم.. وما أريد لنفسي شيئًا سوى ملء فمك المغري بما هو أهل له..

ـ أتجود عليّ يا مولاي بنعيم آخر؟!

ـ أنا كريم ابن أكرمين يا فرح..

نهض من جوارها وسار بمحاذاة الحوائط يطفئ مشاعلها بتؤدة،

وأبقى مشعلًا واحدًا فقط يكفي للإحاطة بهما وعزلهما عن الظلام.. أرخى عباءته عن كتفيه ثم رفع وجهها نحوه بطرف أصبعه.. غيبت فرح في ما صدر من عيني مولاها وغابت في ألقهما، فراحت ليلتها تمنحها أكثر مما تمنته لطيلة عمرها.. لم تفق من غيبوبتها اللحظية إلا عندما صدم وجهها جسم سميك يشبه عصا والدها الغليظة التي يضربها بها، عرفت ما هيته ففزعت ورجعت إلى الوراء برأسها إلا أن الجليل أمسك بذقنها حاثًا إياها:

ـ ستجدين في مذاقه لذة أعظم من لذة اللفافة.. لا ترددي يا حلوتي.. تعودي على الثقة في كلامي.. فأنت تبدئين حياتك الآن..

وهكذا سيقت فرح إلى حصون الغواية المترعة بالنشوة والعذاب.. بالسرور والندم.. كان كرور الأيام على علاقتهما دافعًا أكبر لتحولها إلى نظير الشيطان عمير لا تقل عنه شرًا ولا تبخل عن مساعدته في التفكير بالآثام.. ولاؤها ضارب بجذوره تحت أقدام عمير وما دون ذلك هالك في نظرها قبل ساعته.. وأول من ذاق علقم مرها كان أبوها المسكين.. الذي لم تكتف بكيّ قلبه تحت أنظار المتهكمين والمشفقين بعدما صار اسمها يردد على كل لسان بأنها عاهرة القصر ومحظية الجليل.. بل طلبت من عمير أن يوافيها إلى بيتها في ميعاد عودة أبيها من العمل لتعاشره أمامه فتنتقم منه، وتذيقه الآلام التي سببها لها أحيانًا بفقره وأحيانًا أخرى بعصاه الغليظة فتعلن بذلك سيادتها للكون كله وانتصارها على كل ضعف نال منها سابقًا.. وحينما رآها أبوها تتقافز عارية على خصر عمير شل في لحظتها ومات بعدها بأيام حاسرًا بعدما حرم الطعام على نفسه والماء..

لم تكترث فرح لموت زبير.. بل ارتاحت لموته وضميره اليقظ وتدينه المفرط وفقره المقزز.. انهالت على الحياة بصحبة عمير بشراهة وجشع فغاصت في حمأة الشهوة المطلقة بنهم وتفانٍ.. وأضحت لفافة النعيم الأولى إلا أضحوكة لما تلاها من رغد العيش.. حتى كشفت الحياة

عن وجهها القبيح بتخلي عمير عنها فجأة إلى لعبته الجديدة سلمة بنت عدنان..

هكذا سقطت من عليائها إلى أسفل سافلين.. حتى فقر أبيها أضحى جنة مزدانة لما آل إليه حالها.. ترجت عمير أن يردها إلى نعيمه لكنه ركلها من قصره كشيء قذر ملتصق بنعله وحذر حرس قصره من مرورها أمامه وإلا أطاح برءوسهم جميعًا.. سخطت.. بكت.. توعدت.. همدت.. دعت الله.. ذبلت.. وجدت نفسها ملقاة على أعتاب الطرق تستجدي عطف الرحماء.. لكن الجميع يعلم قصتها فأبوا أن يدنسوا أنفسهم بصلتهم لتلك الملعونة..

تلقف جسدها ذئاب القرية الطامعون في لحمها.. وصارت تتقلب بين أنيابهم لتقتات.. تعيش كي تُفترس.. وإن أبت عن افتراسهم لها ماتت.. سحقًا لتلك اللعنة التي أصابتها.. كأن الله لم يدخر لعقابها شيئًا للآخرة.. وزاد سخطها وانحطاط حالها حبلها بمولود تجهل نسبه.. فالذئاب كثر، ووقع أنيابهم عليها لا يفرق بينهم سوى بضع سويعات.. كرهته وكرهت كل من نهشوها.. تمنت الانتقام من عمير الذي هدم منزلها وأنشأ لها بيتًا بعيدًا لئلا تدنس قريته الطاهرة!

ألا يكفيه ما أصابها من غوايته؟!.. ألا يشبعه هوانها وقلة حيلتها؟!.. حتى يرسلها إلى حضن الذئاب وكأنما لا يكفيه نهشها من ذئاب البشر؟!.. فصارت وحدها مع وليدها مبتور النسب الذي لا يكف عن العواء مع ذئاب الجبل وكأنه ابن لها!!

- 5 -

الجليل

سماء اليوم صافية، بدت زرقتها هالة وضاءة تلملم نواحي قريتنا.. البيوت تتشابك فيما بينها بحبال ورق الزينة الملون.. الحواري مرطبة بالماء والأطفال لاهون بعريهم البريء يطاردون فراشة برية أو دجاجة تعدو بجناحيها العاجزين عن الطيران هاربة من طيشهم.. نصبت المشاعل على جدران المنازل، وارتدى الرجال ثيابهم الزاهية، فاقعة الألوان حاملين فوق رءوسهم مقاطف مجدولة من سعف النخيل بها الهدايا الملائمة لعرس حارس مولاهم وأكثر المقربين منه..

عبق النسيم بروائح العطور المختلطة كأن قريتنا أضحت باقة ورد نضر.. تزاحم سكان القرية عند حمام أنس الحلاق منتظرين خروج صفوان بن يزيد ليزفوه إلى بيت أهل عروسه الثالثة حتى يصطحبها إلى بيته..

دقت الصنوج والدفوف في منزل العروس ـ عالية بنت عكرمة.. وراحت النسوة المتحلقن بجلابيبهن الفاتحة يصفقن لإحداهن ترقص بغنج فيتمايل خصرها وتتلاعب بجيدها، تهز نهودها وساقها المحشوة باللحم المغري.. كانت وجوههن ضاحكة منتشية، فنادرة هي أيام فرحنا، حتى ولو كان فرح جلاد قريتهن البغيض!.. أما عالية فقد غاصت في

الغرفة التالية في حضن أمها تبكي بلوعة والأخرى تهدهدها مواساة وأسى، فها قد حل عليها أسوأ كوابيسها بالزواج من أغلظ وأبغض خلق الله.. لم يستطع أبوها رفض طلبه أو أوامره المغلفة بوعيد الجبابرة حينما أتاه يطلب يدها مع أخته فاطمة.. فالقتل عنده متعة، غاية يعيش من أجلها، والجليل صفي الدين واقف إلى صفه أبدًا ولن يدفع عنهم شره.. هو نذير شؤم، وحيوان مفترس.. كائن دميم لم يخلق في سوئه أحد، تلمع عيناه حين رؤية الدم وتتهلل روحه عند زهق الأرواح.. هي زيجته الثالثة في فترة لا تتجاوز العامين.. زوجاه السابقتان وارى جسديهما التراب.. فذاك الغراب لا يمضي أكثر من أسبوع مع أي امرأة حتى تفارق الحياة.. حتى أمه التي حملته في بطنها قبرت عقب خروجه الأثيم من رحمها.. تكهنات منتشرة بين أهالي القرية تقول بأنه هو من قتل زوجيه الأولى والثانية بسبب فطرته المترعة بالإجرام.. أو أنه بالفعل يحمل الشؤم في موضع قدميه كالشر في قلبه، والجنون في عقله..

كان صفوان مسترخيًا في حوض حجري طافح بالماء المعطر بالأعشاب.. يفرك جسده عم أنس بالزيوت الفواحة متتبعًا مخابئ القهل في جلده الذي احمر عن آخره كأنما صار يجري تحت دمه!.. تصاعد البخار ثقيلًا خاملًا حتى عزل العين عن صاحبها.. هنالك انغمس صفوان في مخيلته غالقًا عينيه كالناعس المتعب، تداعت على ذهنه أوجاع نفسه وقديم الذكريات.. فاليوم يتزوج فتاة لا يشعر ناحيتها بأي حب كما تزوج سابقتيها.. يخوض مكرهًا على رفقتها وهو الذي يستطيع هد الجبل في بضع ضربات بيمينه وتهتز الأرض تحت أقدامه المفلطحتين، وتخور الجباه راكعة أمامه اتقاءً لغضبته لا يقوى على الزواج ممن هواها وأشقاه الهيام بها!

صرخت أجنابه بصوت مكتوم مرددة سؤالها الحائر: أواه، كيف أنالك يا ابنة أمي؟!.. يا من أشعلت جذوة العشق في قلبي حتى تفحم وصار يابسًا لا ينبض فيه سوى حبك.. هلك كلي وصرت حيًا بين الناس

وبيني ميتًا.. ما السبيل إليك وقد أوصدت يد الإله والبشر كل السبل؟!، كم أتوق إلى ضمة حضنك لي عند النوم تقصين عليّ حكاياتك المسلية، إلى قُبلك الدافئة التي كنت تغمرينني بها هلعًا إذا غبت عنك يومًا بأكمله، إلى حديثك المؤنس، وطرافتك المبهجة، وابتسامتك الفاتنة، ومشاغبتك الشقية، إلى يديك وهما تحممني في الطست النحاسي الكبير كما كنت تفعلين في صغري وأنت جالسة قربي تصبين على جسدينا العاريين الماء الساخن، إلى الاختلاء بجسدك الشهي الممتلئ في كل جزء منه بما يكفيه للإغواء، من كعبيك الحمراوين وساقيك البيضاوين وصدرك الناهد وشفاهك المكتنزة وشعرك الفاحم الناعم المسترسل في انسيابه المنطلق حتى أسفل عجيزتك المدورة كالبدر الصافي، إلى الانفراد بعينيك اللتين تخترقان مجاهل نفسي فتنال كل حقيقة أخبئها إلا حقيقة واحدة عجزت عيناك عن فك طلاسمها.. لمَ يا أختاه تحكمين عليّ دائمًا بالجحيم المستعر؟!.. ألا يكفيني ما أصابني حينما أرغمني أبونا على قبول طلحة زوجًا لك بعدما حاولت قدر استطاعتي إبعاد فتيان القرية عنك؟!.. ألا تحسين بقضم فؤادي تحت أنياب فراقك؟!.. ألا تعلمين أني لا أتزوج إلا إرضاءً لك، فكل امرأة تخطبيها لي أبغضها قبل رؤيتها حتى أتزوجها رغمًا عني مخافة إغضابك.. فأقتلها بجسدي النافر من خيانتك.. جسدي يا فاطمة يأبى لمس جسدًا غيرك.. ألم تفهمي بعد سر تكويني النابع من حبك؟!.. أهواك يا ابنة أمي بلا أمل ولا ملل.. أحلم بلحظة تأتينني فيها راغبة باختلاط لحمينا وامتزاجهما دون توقف وأقسم بأني مستعد بعدها بقذف نفسي في جهنم أبد الآبدين بهناء القانع الذي نال جل مراده..

طوقته خيالات فاطمة في رأسه كأنها ذئاب أحكمت الخناق على ضحيتها فلا تقتله ولا تكف عواءها المرعب.. طالت غفوته تحت يد أنس التي انفصل تحت ملمسها الخادر كيانه العابد لفاطمة عن جسده الراحل إلى عالية.. يعتقد صفوان أن عشقه العظيم لأخته لم يكن وليد الأمس أو الصغر بل من قبل ولادته.. قبل أن تتلقفه طفلًا يبكي بساعديها الضئيلتين

وهي في السابعة من عمرها حينما ضمته بحنان مشفقة على يتمه المبكر وثغره الذي لم يقطر فيه حليب أمه.. قبل أن تربيه وتعتني به وتلعب معه وتطعمه ويشتد عودهما بعضهما بجوار بعض.. حبها عامر في قلبه منذ آلاف السنين وإلى يوم يبعث بإثمه أمام رب العباد - هكذا يشعر بها.. هكذا يتألم..

في الثالثة عشرة من عمره بدا على ضلوعه أنها منحوتة من بطن جبل الغريب، وأن طوله مستمد من تلاقح النخل مع بطن أمه، وأن كفيه قد تشكلا على يد حداد ماهر فهما كمطرقتين لا يعرفان اللين.. لفت نظر الجليل عمير فأغراه بالعمل لديه كحارس شخصي.. أغدق عليه عطايا الطعام والثياب وفطن بحدسه الخبيث إلى نفس صفوان غير السوية.. فزرع في قلبه بذور الشيطان.. الكراهية والقسوة، الجفاء والغلظة.. نزع من حواشيه الخير ونفخ داخله روح الشر.. حاول ترويضه ككلب إلا أن صفوان كان مدركًا لحجم قوته ومفعولها السحري على رقاب الجميع بما فيهم الجليل الذي في استطاعته الفتك به أينما رغب، لذا كان عصيًا على الترويض.. انتبه الجليل إلى ذاك التمرد الخفي الساري في نفس صفوان لذا لم يجد بُدًا من تعليمه الدرس الذي يلجم أطماعه وطيشه في مهدهما حتى يومنا وإلى الأبد، وهذا حينما دعاه إلى حظيرته ليقفا وحدهما وسط روث البهائم الساكنة تحت السقف الهش من سعف النخيل مخرجًا هيكلًا معدنيًا يشبه اتصال إبهام اليد بالسبابة لكن بشكل معكوس، وتحدث ماكرًا ناحية صفوان قائلًا:

ـ أتعلم يا صفواني العزيز أن ذاك الشيء الصغير يستطيع قتل تلك البهيمة الواقفة هناك من مكان بعيد.. وفي لحظة..

تعجب صفوان من ثقة الجليل الزائدة في ما يحمله، فهو يستطيع ثنيه بسهولة بيديه.. فكيف يقتل بهيمة بحجمه؟!.. عندئذٍ مد الجليل ذراعه وأطلق رصاصة هادرة استقرت في مخ البهيمة الكبير، لم تخر ثانية واحدة

قبل موتها؛ لكن روحها نزعت في لحظتها.. هنالك خيم الذهول على وجه صفوان الذي التفت إليه الجليل عمير ورائحة عرق البلح تفوح منه ناظرًا إليه في مكر واستهانة، وقال بجد وصرامة:

ـ هذا اسمه مسدس يا صفوان.. حارسي الأمين الذي يظل مستيقظًا حين نومي ومتلفتًا دوما عند سيري فلا يقوى أحد على إيذائي لأنه كما رأيت يقتل في لحظة وليس كقبضتك تقتل بعد عدة ضربات..

ثم استطرد بعبث وابتسامة شامت قائلًا:

أريدك أن تضاجع البهيمة الأخرى يا صفواني، فمسكينة هي قد مات بعلها قبل أن يمتعها أو ينجب منها.. هيا تقدم ناحيتها ولا تدبر، فهي تشبهك إلى حد كبير.. ها ها ها

صهر التعجب عقل صفوان وكاد يهوي بذراعه على رأس عمير ليقتله ويصبح هو الجليل مكانه كما تداعبه أمانيه أحيانًا لولا المسدس المشرئب في يديه الذي يدرك الآن جيدًا قوته الدموية الفاتكة الفائقة له بمراحل.. فوقف جامدًا في مكانه لا يدري من أمره شيئًا قبل أن يوجه الأخير المسدس ناحيته ويأمره في حزم قائلًا:

ـ آمرك بمضاجعة البهيمة.. أدخل ذكرك في فرجها حتى ينفلت منيك على إهابها.. وإلا ألحقتك بزوجها..

انصاع صفوان لأمر الجليل ذليلًا يبكي بينما يتنامى في أذنه قهقهة عمير الخبيث.. كان أول يوم يبكي فيه من قهر أحدهم.. وهكذا تم ترويض صفوان على أكمل وجه، ذاق لحم المهانة المر فعرف طعمه في حلق الآخرين وأقسم على اجتنابه بطاعة سيده، فأطلق الجليل آلته المدمرة على أهالي القرية واستمتع في سادية بحصادها الدموي.. حتى صار اسم صفوان محلقًا ومعلقًا في جناح ملك الموت وطقوس الخراب.. لم تصدق فاطمة ما آل إليه الطفل الذي ربته حتى رأته بأم عينيها يرفع أحد المزارعين بقبضته ويلوح به في الهواء هازئًا ثم يهوي به على ركبته كاسرًا

عنقه وسط ذهول الجميع وبكاء أطفاله وضحكاته الفجة المخبولة.. لم تبغضه مثل أهل قريتنا ولم تستطع إيقاف تجبره، لكنها ظلت تحاول نزع أظافر الجليل عن رقبة أخيها حتى لا يتحور إلى كائن مفترس لا عقل له ولا قلب، إذا تنامى إلى مسامعها اعتداؤه على أحد ما، تهب مسرعة لنجدته من بطش أخيها فتوبخه وتذكره بقدرة الله عليه، لكنه يكره الله الحائل بشرعه عن الجمع بينهما ولا يقوى على كره فاطمة التي يتحول أمامها لطفل صغير لا حول له.. فصارت أخته سلاح القرية السري الذي يدفع عنهم شر صفوان المستطر ويكسر سيفه.. آمنت فاطمة بأن صلاح أخاها لن يتأتى إلا بالزواج والإنجاب فتهدأ روحه المضطربة وينشغل عن الناس بعياله، لذا كانت مسألة تزويجه هدفًا ملحًا عليها يتيح لها استرداد أخيها وديعًا هينًا كما ربته..

اكتفى الجليل عمير من حالة الفزع التي أشاعها صفوان في القرية وصدامه المستمر مع أخته، فقرر الاحتفاظ به كحارس شخصي ومنفذ لقانونه الأعور.. فنهره عن الإسراف في القتل لئلا يثير الأهالي عليهما ويكفي أن الجميع صار يعلم بتبعية ذاك المتوحش لسيد القرية الأوحد حتى مات بعدما أنضحه الدنف وخلفه ولده صفي الدين الذي تعامل مع صفوان بنفس مبدأ والده..

* * *

نهض صفوان من حوض الماء وراح جسده الضخم يشق سطحه الساكن ليظهر بكتلته العارية الكاملة.. يتقاطر من أعلاه الماء إلى أسفله قبل أن يلحقه عم أنس بمنشفته ليجففه.. ارتدى ثوبه المؤنق شجيًا بالهم مهتاجًا بما يعتمل في دواخله وأنشد بيت شعر سمع أن قائله عاشق مجهول حفظه عن مولاه السابق عمير في إحدى جلسات سكره:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها وذاك هو بيت الشعر الذي جعله هجيراه، يطرب بترديده أوقات خلوته مع نفسه

ولا يرتاح إلا بالدمع الحارق يهمي على خديه، لا ينهنهه عن ذلك تخوف من أن يفطن سامع ما بما يطم في قلبه من نيران الجوى وهو يهمس باسم فاطمة بغيظ وولع حتى تكاد ترددد الجدران المحيطة وتفضح سره!

هاهو ذا ابن الجبل الحق يخرج من الحمام رافلًا في ثوبه الواسع وملحفته الصوف وعمامته الملتفة.. تسبقه إلى أنوفنا ريحه المعطرة بنرجس وُشِّعَ بالياسمين.. رأسه كصخرة مربعة منحوتة لا تجعيد فيها ولا خدش، يحملها عارضاه الممتدان كجناحي نسر مفرودين.. انتقل بعينيه المتصلبتين بين وجوه الواقفين في صمت العاجز عن حلمه، المتفرس في أتباعه ثم سار أمامهم وهم خلفه يباركون ويهللون متمنين له السعادة والخلف الصالح.. كان يوقن بتملقهم الزائف ويسمع نحيح خوفهم منه في هتافهم العالي.. انعرجوا جميعًا يمنة من بيت أنس الحلاق إلى مسكن زوجته عالية.. وانتظموا منتظرين خروجها البهي ممسكة بيد أبيها كما جرت عوائدنا.. ثم اكتملت ليلة البناء بناءً صوت رجب السمّار المطرب للآذان الذي ظل ساعة من الزمن ينشد الأشعار في الحب والزواج بينما يرص الرجال هداياهم في فناء بيت صفوان المفتوح استقبالًا للعطايا، ويصفق الأطفال والنساء على غناء السمّار.. وبعد أن انتهى الرجال من تقديم هداياهم هبط الجليل صفي الدين وسط الحضور متبخترًا، تنهال على يديه القبلات، وعلى أذنيه الدعوات بطول العمر والصحة الوافرة حتى وصل إلى صفوان فشد على يديه وتناول من خادمه زيد عباءة حرير أهداها لحارسه، ولزوجته قرطًا من ذهب ثم عاد من فوره إلى قصره لئلا يتعود الناس مخالطته أكثر من اللازم.. فتوقف الحفل وانطفأت المشاعل وتقهقر المدعوون إلى منازلهم وخلا صفوان إلى زوجته النافر كل منهما من الآخر!

- 6 -

الصعلوك

في أغباش الليل بدأ زحف الصعلوك المقدس للأمل متعلقًا بأذيال الحياة.. الحياة دومًا تستحق فرصة أخيرة منا مهما كان الأمر خطيرًا.. الليل هو رفيقه وحبيبه، لذا لا يخشاه، فلكم حماه من أعين المتربصين، وأضاء قلبه بابتهالات السعادة مع رفقاء الليل الذئاب.. الليل هو ضجيج الصامتين، ومدعاة الذكريات، والسكنى الخالي للروح.. وحدها الظلمة قادرة على غسل الإنسان من ندوب النهار وأرق السعي.. وحدها النجوم من تطلع على خبايانا وتهدهد اضطرابها.. والقمر واقف كحارس عملاق على بوابة الهناء.. فقط في الليل يدرك العارفون بالغاية ملاذ العقل..

حاملًا مخلاته المزودة بكسرات الخبز والزيتون والماء.. ذاك كل ما جادت به قريته عليه قبل الرحيل.. تحت أنظار الحرس اندفع إلى خارج حدود المأهول.. كانت أنظارهم تتعجب لا ترهب.. وكأنهم يسألونه لمَ تأخر كل ذلك عن إلقاء نفسه في حضن البرية؟!، فالقرية ليس بها مكان له، وشقاؤه هنا حتمي مهما طال أمده..

لم تنل أمه نظرة وداع، فهي أبغض البشر إليه، وجلاده الذي لم يدع سوطه يغادر ظهره يومًا واحدًا.. كل من سيشتاق إليهم سيرافقونه في رحلته.. لن تتخلى عنه الذئاب ولا النجوم السواطع والقمر الصامت والريح

المسافرة.. كل أولئك وحدهم رفقاؤه.. هم من شاركوه الألم والحزن.. البكاء والغضب.. السخط المكتوم.. الفكرة التي أضحت حُلمًا، والحلم الذي صار يقينًا في الخلاص.. والخلاص الذي يدفع قدميه إلى الأمام دون توقف أو حذر.. الوحوش لن تؤذيه فهم يعلمون أمره والهوام لن تمسه فهو أهون من أن يضروه.. والبشر، وحدهم البشر هو ما يخشى؛ فهم الشر الدائم والعذاب المستعر.. لكن هناك جبل الغريب.. هل تهون عليه العشرة؟!.. رمى ناظريه تجاهه فوجده شامخًا متوهجًا تحت ضوء القمر كما اعتاد رؤيته.. الصخور لا تحزن على الفراق، هو فقط من سيحزن على فراقه.. كيف يقوى على الإذهان ولمحات ذكرياته كلها تجوب بين صخوره السميكة الصلبة، تتشبث بها وتأبى الرحيل معه.. فليدعها معه قليلًا، سيأتي اليوم الذي تتلاشى فيه كضباب الصباح.. الأقدام مازالت تبتعد وتجد السعي لا تعيقها صخرة أو وهد أو عواء ذئب.. الأمام ما ترنو إليه، وأرض البشر هي مستقرها الذي تنشده..

* * *

بلا غطاء يكسوه، يواجه ضربات الريح، وبرد المطر المنهمر على فترات متباعدة.. أقدامه لا تتوقف على الرغم من مسيره ليومين متتاليين.. التعب يهشم أوصال العزيمة داخله.. حاجته للنوم والدفء تفوق حاجته للخلاص.. لا يعلم لمَ في تلك اللحظات يتذكر غناء عم رجب ويترنم به؟!.. هل ليشغل نفسه عن الجوع والتعب أم ليؤكد لنفسه أنه مازال حيًا؟!.. بالتأكيد ليس حنينًا للقرية، فكل ما فيها آثم في حقه ولا يسكن ديارها سوى الأوجاع..

الرمال لا تطويها غير الرمال.. الأرض ممتدة وبكر؛ كأن لم تطئها أقدام مخلوق من قبل.. الريح فقط هي من مر عليها.. كل ما حوله يشير إلى العدم، إلى الخلقة الأولى للحياة.. حتى النباتات القصيرة الشوكية المتناثرة تشكو الوحدة والفراغ وعدم الجدوى من وجودها.. استطابت

نفس الصعلوك للسكون حوله.. وتمنى أن تعود الدنيا إلى ما كانت عليه.. عدم نقي خالي من الضغائن والأنفس والدماء والأصوات.. لمَ خلقت الحياة إذا كان العدم بهذا الكمال؟!ـ هكذا سأل وتفكر.. لكنه لم يجد غير إجابة واحدة.. الله غير مفهوم ويستلذ عذابنا لذا خلق الحياة..

نال منه النوم في اليوم الثالث حتى إن سباته امتد ليوم رابع!.. فأفاق مفزوعًا وكأنما تأخر على موعد ما فمضى إلى مقصده مسرعًا دون تلكؤ.. وعندما قاربت الشمس على التواري خلف الحجب رأى من بعيد شيئًا يتلوى على الأرض.. فاقترب بحذر منه كي يستكشف ماهيته، فرآه ذئبًا ينزف الدماء من عنقه وقدمه وبضعة مواضع في بطنه.. حاول الاقتراب منه ليهدهده لكنه أجبر على التوقف بزمجرة حازمة من الذئب اصطدمت في أنيابه المكشرة.. فجلس على مقربة منه ينظر إليه آسفًا، يشفق على أناته الخافتة، مبهورًا بشموخه وإبائه في أكثر لحظات ضعفه.. كأنما يسمع الذئب يخاطب نفسه في لحظات احتضاره قائلًا:

ـ رسالتك الأخيرة للعالم شيءٍ لا يقربه العالم.. فهم أحقر من أن يدنو منك.. حافظ على طهرك ولا تلطخه.. البشر دنس.. والشفقة هاوية.. والاغتراب عزة.. أذلهم بصمتك.. واهزمهم بشموخك الغامض.. كن صفحة من كتاب مغبر ولا تجعل لسانك يخاطب إلا نفسك.. فهي أحق بأنسك حتى تفارقك.. فإن فارقتك ـ أرتقي معها معلنًا بفنائك قهرك للعالم.. لكل العالم..Top of Form.

وحدها الذئاب من تمتلك سر الحياة وعظمتها ـ هكذا آمن منذ صغره.. ظل يبكي جانب الذئب الميت حتى تورمت عيناه، وتكسرت إرادته على المضي قدمًا فأرخى جسده جانبه وغاص في النوم حتى لقي شمس نهاره الخامس توخزه فعاد إلى المسير وسط الفراغ الممتد، ولولا يقينه بأنه اتخذ الشرق غايته منذ بدء رحلته لظن أنه يدور حول نفسه من تكرار نفس المشاهد حوله.. رمال صفراء ساكنة، تتناثر على ظهرها نباتات قصيرة

جافة وريح مرتبكة الهبوب تارة يمنى وتارة يسرى..

أثار استغرابه أنه على الرغم من كل ذاك المسير المضني الطويل لم يلقَ مملوكًا واحدًا استوقفه أو هجم عليه قاطع طريق أو افترسته ضواري هائمة على وجهها في البراري تروم الدم.. أكانت أكاذيب يرددها الشيخ سعدان أم أنه لم يمض سوى النزر اليسير في البعد أم أن حظه بدأ يبتسم له وتذكره الإله بعد طَول نسيان بالعناية؟!.. لكن لو كانت أكاذيب يرددها الشيخ سعدان فلمَ يرددها؟!.. ثم بادر رأسه هازئًا:

ـ وعلام الحيرة في أمر سعدان وهو المتحدث باسم الإله في قريتنا؟!.. لقد حسمت رأيي في ماهية الإله لذا لا داعي لاستغراب سعدان.. الإله الذي أوصاني بطاعة والدين أحدهما زنا بفرج أمي ثم تركني في حيرة من هويته والأخرى التي جعلت فرجها قبلة لعاشقي الدنس، هو إله لا يختلف عن مبعوثه في قريتنا..

ثم استطرد ساخرًا:

ـ وسعدان يظن أن ربه سيرحمه بمولود يحمل إرث عائلته الطويل ويحافظ عليه.. ها ها.. كلنا مخدوعون في رحمة الإله وواهمون.. هو لا يرحم وإن رحم، فلا يرحم سوى الأقوياء؛ ليزيدهم سطوة وهيبة وبطشًا.. كم أكرهك وأعلم أن كرهي لك سيوردني حمم التهلكة.. لكني لا أنسى ما أجشمتني إياه وأشقيتني فيه.. هو العدل عينه أن أكرهك ولا أحبك.. هو العدل إذا كنت تعرفه..

وهكذا استسلم الصعلوك لنار الكراهية تصطليه، تذكره بما عاناه وتحفزه إلى المضي قدمًا غير عابئ بانتقام الإله الذي يبغضه وينتقده بسخط حاد.. فهو يظن أنه ذاق صنوف العذاب كلها ولن يجد الله عذاب آخر يسقيه له، حتى جهنم التي يتباهى الرب بقوة فتكها في كتابه لن تزيد في عذابه شيئًا جديدًا ـ هكذا يؤمن، هكذا يوقن..

- 7 -

الجليل

مفرط بُهته الظاهر على محياه.. يطنطن وجده المتناهي إلى أعماق الصحراء.. تتعرى أمام عينيه السماء لامعة نجومها المحتفية بالسهاد.. يداعب وجنتيه نسيم الليل المبعوث من العدم، المسافر دومًا.. خاطره محنيٌ أمام يأسه وبرمه، يصغي باعتناء لعواء الذئاب وحفيف الشجر ورفرفة الطير الساهر.. فجره الحقيقي لم يبزغ بعد؛ لذا حياته ليل حالك السواد لا يبدلها سوى ليل أعتم منه.. كل ما يحيطه وهم يريغه في عينيه عجائب جمة.. قريته المطوية تحت سفح جبل الغريب وأشجار الزيتون وشعبه الراقد ومملكته المنسوجة في خيالات منذ الماضي السحيق.. كل هذا وهم خادع مضحك.. وتلك وحدها هي الحقيقة المجردة البازغة كنجوم الليل..

تمضي سنون عمره بطيئة موجعة.. تعشو الخلاص من ثقل إرث استعبد جعفرًا وأبناءه من بعده حتى ألقى على كاهله.. حكم على أمرنا معه بالاكتنان خاضعين.. وحده يعلم السر كله، وهذا ما يمزقه.. لكم يتمنى البوح بما يخبئه، يشاطر الجميع حوله كربه الأبدي.. كانت صرخاته مكبوتة في هذا الليل البهيم كأنما يعض بنواجذه على نقيف الحنظل مبتلعًا مرارته برحابة.. وذاك نزر هين من فواجعه!

ما أتعس الجليل في تلك الليلة، كحاله كل ليلة.. إلا أن ليالي الزيجات خصوصًا تهيج في فؤاده علته التي لن تبرأ أبدًا.. تجدد دماء لعنته المطلسمة.. حبه المفؤود.. هند بنت زهير الحداد.. هاهو يطلق زفرته المتأوهة كعادته في تلك الليالي قائلًا:

ـ آه يا هند لو تعلمين ما أصابني من فراقك لرفقتي بي قبل إقدامك على الهروب والغوص في مجاهل الأماكن.. لو طلبت نفسي، لنحرت عنقي أمامك قربانًا.. لو أمرتيني بعبادتك، ما تأخرت عن السجود تحت قدميك لحظة واحدة.. لو ألمحتي برغبتك لمغادرة القرية، لهجرت ملكي وتبعتك إلى ما تطيب له نفسك.. لكنك رحلت فجأة، واختفت آثارك عن المتتبعين كأنما أُعرج بك إلى السماء.. فوحلت دنياي، وسلب عقلي، وانجزم حبل الحياة عن شراييني، طال غضبي القريب والبعيد وحلت بالجميع النوازل.. خمس سنوات يا هند ينمو حبك داخلي كأنك قربي أو تمرحين أمامي.. ليالي قريتنا كئيبة، ومملة، زادها أفول نورك يا حبيبتي مرًا، وظلمة، ووحشة، حتى صارت ليلتي الواحدة كسنة.. احسبي يا ظالمتي كم عامًا مر عليّ أسيرًا لذكراك، متوحشًا للقائك، هاجرًا للنوم، متخليًا عن السعادة.. لم أكن أعلم بأن قلبك مفتون بهوى آخر حتى تلك الليلة التي هربت فيها مع علام بن راغب.. ليتني قتلته قبل أن يشغلك عني ويدفعك للبعد مني.. تزوجت أختك رغد رغمًا عني فهي شيطانة تتسرب من مسامها رائحة المكر والحقد ويضطرم في قلبها كراهية وغيرة متقدة من كل شيء.. ليست صافية مثلك أو ترقى لنقائك.. لكني تزوجتها لأن وجهها وقدها صورة منك.. وكيف لا؟! وهي توءمك الذي ابتلع داخله قرينك فصار شرًا كاملًا وأضحيت أنت ملاكًا منزهًا.. أنا يا مهجة الروح لم أقوَ على التخلي عن صورتك بعدما رحلتِ بجسدك وروحك فحكمت على نفسي بعذاب مضاعف بارتباطي بتلك المخلوقة الفاخر بشرها إبليس، المسلوب من مكرها أمان الوسن وراحة البال.. لا أعرف هل أنت حية فينقل لك الطير السابح في السماء أسرار حالي.. أم معاذ

الله هلكت كمن هلك قبلك تقاومين دهاء الصحراء ومخاطرها المتراكمة المتلاحمة، والتي لم تفش عن سرها لأحد غير جدنا جعفر ونسله من بعده.. أنا واثق بأنك حيةً في مكان ما.. لن يقوى أحد على إيذائك أو خطف عمرك قبل مرور ربيعه.. فمازال الخير يفيض في الكون تضرعًا لجمالك وطيبة نفسك.. ولو كنت ميتة، لمنع الله عن الأرض الغيث وأقام الساعة.. فعلام يذر خلقًا ليس بينهم وجهك المشرق، وابتسامة ثغرك، وخطواتك البهيجة؟!..

انتشله من غيبوبته وقع أقدام خفيف يقف مترددًا خلف الباب ليستجمع جرأته قبل أن يدلف ناحيته.. فتح الباب وصدر منه صريرًا خجلًا وظهر من ورائه عينان نجلاوان يشقان أستار الليل وجسد مضمخ بعطر القرنفل.. تقدمت نحوه بدلال وحنان مصطنع قائلة:

ـ لكم أتمنى أن أعلم ما يشغلك عني كل ليلة هكذا؟.. أهو الزيتون أم شئون الرعية أم تعب تخفيه عني لئلا أقلق عليك.. أم....

كُتم صوتها.. وانكسرت نظراتها إلى الأرض مردفة بهوان:

ـ أم إنجاب الذكر الذي تبغيه خليفة لك؟!

سقطت دمعة من عينيها ولفها السكون للحظات.. فمسحت خدها وتمالكت نفسها مستطردة في ابتهاج طفولي:

ـ هل تعلم ماذا طلبت مني حليمة ابنتك؟.. تريدني أن أخطب لها رومي بن عثمان شيخ المزارعين.. ها ها.. أترى بما تفكر تلك المسخوطة؟!

اعتلت نبرة صوتها صرامة مفاجئة وهي تبلغه متلجلجة:

ـ لقد أمرت الخدم بعدم السماح لها باللعب مع أي أحد.. فابنة الجليل، وحده فقط من يقرر الزوج المناسب لها..

لم تتغير جلسة صفي الدين أو تتحرك شفتاه بكلمة، كأن ما قالته لا يعنيه.. فانتفضت مستاءة ثم ألقت نفسها على حجره، وغرست أناملها

الرقيقة في فوده.. رمقته بوله امتزج بدمع راح يطفر في اضطراب من عينيها المقابلتين لعينيه قائلة في توسل.

ـ لقد أعدت زبيدة القابلة خلطة أعشاب أقسمت لي بكل الأيمان المغلظة بأنها ستؤتي ثمارها هذه المرة.. سآتي لك بالذكر القوي الذكي الذي تسعد به أبدا.. أرجوك لا تكرهني ولا تبدلني بواحدة أخرى.. فأنا دونك أهلك يا حبيبي..

راحت تذرف الدمع الحار على كتفه، ويفسد مخاطها المتدافع جفاف ثوبه.. تدفس وجهها أكثر في نحره وتتعلق في عنقه بتشبث الغريق.. بينما الأخير جامدًا كالميت لا تصدر عنه سوى أنفاس رتيبة.. لم تفلح محاولات رغد في استجداء عطفه أو نزعه من غمه الذي تعرف عن سببه جزءًا والجزء الآخر تدعي أن الولد سينسيه إياه.. فانسحبت من أمامه في مشية العاني المنقاد إلى خارج الغرفة وتركته وحيدًا ساكنًا لينًا ككتلة طين تتنفس..

لم تستطع خداعه بدموعها الزائفة.. أو تحرك مشاعره الراكدة بحركاتها المكشوفة، هو يعلم أطماعها وغايتها.. فالجاه والسلطة مطلبها والقصر حلمها الذي تخشى الإفاقة منه إلى بيت أبيها.. وفرة صنوف الطعام على المائدة يشبع عينيها قبل بطنها والملابس المريحة الباهية المكدسة في صوانها لتغيظ بها فتيات القرية الأخريات.. ولو مد الله في بصرها وكشف لها ما في أراضي البشر من خيرات متنوعة، لماتت بحسرتها لأنها لا تمتلك ما يمتلكون!

مسألة الولد تضايقه بعض الشيء إلا أنه واثق من إنجابه له في يوم قريب عكس رغد المضطربة هلعًا من زواجه بأخرى، فتلد له الولد وتُطرد بابنتيها إلى بيت أبيها.. فبنات الجليل مثلهن مثل أي فتاة في القرية لا قيمة لهن تزيد عن صلة الرحم من أخيها أو أبيها، أما الملك ونعيمه فيؤول للذكر وحده.. هو يتمنى ألا تنجب الولد قبل عودة أختها.. فيطلقها

ويتزوج قمره الوضاء التي ستنجب له أجمل الأطفال وتحيل حياته إلى فردوس لا يشقى فيه ولا يمل منه..

زحفت كالثعبان على مخيلته خواطره مرة أخرى، وراح يتأمل في البيوت وقد تصاقبت في بقعة بدت له من عليائه كحجم الكف.. تهاوت على رأسه من ذاك المنظر أسئلة حائرة عن أسلافه: كيف صمدوا أمام تصاريف الأقدار، وهجمات الزمان في تلك الرقعة من الأرض التي لا يعلم عنها من العالمين إلا الله وهو؟!.. كيف حافظوا على ملكهم لمئات السنين دون تبديل أو تغيير؟!.. أهي تميمة ساحر لجؤوا إليها منذ فجرهم الأول؟ أم جسارة وقوة تابعيهم؟ أم أنها متانة عهد جعفر القديم الذي لا يفله ضربات الباغين؟ أم هو رضا أهل قريتنا الممزوج بالوهن والسكوت المطلي بالجزع؟

تخيل مشهد رعيته وهم تفتح لهم الأبواب المغلقة ويعلمون ما علم عن دنيا البشر.. فابتسم هازئًا وخاطب نفسه مشفقًا، وقال: كيف لأولئك مواجهة ما آلت إليه عقول الناس في الخارج؟!.. ما رد فعلهم حينما يرون السيارة والقطار والطائرة.. البريد والتلغراف.. التلفاز والراديو ودور السينما.. الجرائد والمجلات.. صيحات الموضة والأزياء.. الكهرباء ذات سحر الإنارة والتشغيل.. القنبلة الذرية ابنة جهنم الهاوية وما فعلته بما يسمونها ناجازاكي وهيروشيما.. المدافع المدوية والصواريخ المدمرة.. الفرنجة الذين صاروا دولًا تتقاتل فيما بينها لكنهم لا يزيحون حوافرهم عن بلادنا.. إن مصر التي يعرفونها ليست مصر المماليك بل مصر الإنكليز وأحفاد محمد علي.. وأن مالقة لم تعد وصار اسم دولتها الحاضنة إسبانيا.. كم أشفق عليكم مما علمت.. متمنيًا لو كنت جهلت..

أزعجته بشدة تلك الخواطر فانتقل بجسده ناحية الشرفة الخلفية حيث تقبع أشجار الأثل بخضوع العجائز الهرمين.. خضارها باهت جاف يشي بموات مرير.. أما طوالها وأصولها الغليظة وعَبْلُ فروعها لم يشفعوا لها

عزة البقاء.. كل شيء ذليل مكسور بين يدي قريتنا حتى ولو كان منظره يعكس غير ذلك.. هو لا يقوى على الإفصاح، فإن أفصح عن سر جده، فسيتشرد أو يفنى معدمًا دون رعية يستغلهم للعمل من أجله خادعًا إياهم بالقليل.. وإن علم أهل القرية ما يخفيه، فسينكلون به بالتأكيد انتقامًا من فعلة جده الذي سجنهم هنا مئات السنين دون ذنب، ليحقق حلمه المجنون بالملك الذي لا يبلى..

جلس على أريكته ومد ساقيه محاولًا إغماض عينيه كي يفوز ببضع ساعات ينامها قبل أن توقظه الديوك بصياحها، والحمير بنهيقها، ودبيب أرجل المزارعين وأحاديثهم المملة الصاخبة.. لكن كيف ينعم بالنوم في ليل تعصف فيه الذكريات والخواطر ونهار يملكه الضجيج والضجر؟!.. لجأ إلى حله السحري إذ تخيل أنه وهند قد تزوجا وعاشا في إحدى فيلات حي الزمالك في القاهرة ذات واجهة زجاجية وحديقة مورقة، وأولاده يخالطون أولاد الفرنجة في مدارسهم، وأنه يعمل مديرًا لمصرف فخيم كالذي يدخر فيه أمواله، ويتنزه مع أسرته بسيارته البويك الأمريكية على كورنيش النيل حيث المكان الذي ركل فيه جده جعفر السلطان محمدًا فغير حياتهم للأبد..

* * *

اكفهر وجهها الناعم وهي تلقي بجسدها فوق فراشها الوثير.. تعض وسادتها غيظًا وتقذف الدموع من عينيها.. تورم حلقها من الاحتقان المكبوت واتقد صدرها من غضبها العاجز الكامن.. انبثق في قلبها رواعد وجر قاصمة، وهزتها رجفات القلق.. هي لا تملك لنفسها شيئًا بعدما ظنت اقتناءها للدنيا بحذافيرها.. كل الخيرات المحيطة بها مهددة بالزوال.. القصر الذي حلمت بسكناه طوال عمرها بدلًا من بيت أبيها الطيني المتداعي.. الفراش الحرير المطرز بدلًا من فراشها البالي المخرم.. الخدم المنتشرون المتأهبون لإراحتها بدلًا من كدها السابق المتواصل في

رعاية شئون أمها وأبيها.. الصوان المكتظ بالملابس النظيفة الجميلة بدلًا من جلبابها المرقع.. الطعام المترامي بأصنافه المتعددة على المائدة بدلًا من البصل المحمر في زيت الزيتون والخبز المغموس في اللبن والعسل الذين شكلوا بنيانها في سنواتها السبعة عشرة اللواتي قضتهن في بيت أبيها.. زوجًا سيدًا لقريتها ينحني أمامه الجميع وتغبطها النسوة كلهن على ارتباط اسمها باسمه.. كل ما حولها يهتف بالنعمة المجيدة إلا هي، فكل ما هي فيه مرهون بإنجابها للولد.. إنه الحمل الذي لا تعرف كيف ترمي بذرته في بطنها.. تصبر على مضض من أجل خروجه المتوج من رحمها ظافرًا لها بالنعيم الأبدي الذي لا تشقى بعده أبدًا..

لا تعشق رغد شيئًا في الدنيا غير رغد العيش.. ولا يؤرقها سوى كابوس فراقه لها.. هي لا تحب صفي الدين ولا والديها ولا أختها ولا أهل القرية.. وأكاد أجزم أنها لا تحب ابنتيها اللتين تخشى تحمَّلهما إذا ما ولت أيامها في القصر وعادت إلى بيت أبيها مطلقة مهانة..

فكت معصميها عن الوسادة، وأشعلت المصباح المنتصف لغرفتها الواسعة، حملته ناحية المرآة وثبتته في أعلاها.. فكت ضفائرها، وأسدلت شعرها للخلف.. تأملت ملامحها الفاتنة وقدها الممشوق وأنوثتها الطاغية.. تحسست وجهها بأصابعها ثم ضمت بكفيها نهديها البارزين كحبتي برتقال شهيين.. أنزلت ذراعيها، وأمسكت بخصرها كأنما تخنقه لتقيس محيطه المنضبط.. ثم استرخت باستسلام وجلست على الكرسي الخشبي تحادث نفسها:

ـ أنا أستحق كل النعم وما خبأه القدر بخلًا لئلا أنال أكثر مما حظيت مَن من النساء توازي جمالي أو يشبه شيئًا فيها شيئًا في؟.. كيف يعاملني ذاك الغبي المغرور بكل هذا النفور؟!.. ألا يكفي احتمالي لبروده ومضاجعته الخامجة إذا حنّ عليّ وتذكر أني زوجته؟!.. كيف بواحدة في جمالي لا تثير شهوة عاتية تعصف بأوصاله؟!.. وإذا عاشرني فإني أمضي أتعس

لحظاتي تحت جسده الخامل وإحليله الملتوي الذي يستهلك كل قواي كي ينتصب.. في كل مرة أتحامل على نفسي وآتيه ولا يأتيني مرة واحدة.. ألا تعرف نفسه الرغبة؟.. أم أن حبه القديم يحول بيني وبينه؟ ما الفرق بيني وبين تلك المدللة الهاربة.. لعنتي اللصيقة التي ولدت معها؟!.. الجميع يتحدثون عنها على أنها ملاك الطيبة وأنا الشريرة القاسية.. مذ كنا أطفالًا كانت رغباتها التي تصوغها بلطف يسعى الجميع لتلبيتها وأنا مهملة، وجه أبي المتلهف حينما يعود من عمله للعب معها، أنس أمي لها وتهامسهما الضاحك، تأوه فتيان القرية حينما يرونها تعبر الطرقات.. كل ذلك كان يقتلني ومازالت ذكراه تفتك بي.. لم فُضلت عليّ وهي ابنة نفس الأم والأب ولنا نفس الشبه؟!.. حتى الزوج الذي تمنيته، أتى لوالدي كي يخطبها هي وحينما هربت عجز عن هجران حبه لها فتزوج صورتها.. ظلها الأسود الزاحف خلفها دائمًا.. آه كم أكرهك يا هند وأتمنى أن تكون قد التهمتك الضواري وقبرتك الجوارح في أمعائها..

نهضت من مقعدها ثائرة، وأمسكت بالمصباح ملوحة به لتهوي على المرآة لكنها كظمت غيظها وأطفأت نوره لتنغمس في ظلمة حولها تشابه عتمة نفسها الكئيبة الوحيدة.. استلقت على سريرها وأسدلت ذراعيها المتشنجين، واستطردت في عصبية قائلة:

ـ لن أسمح لتلك التافهة بأن تسلب مُلكي.. لن يحيى حبها طويلًا في قلب الجليل.. سأعمل على استئصاله وأبدله بحبي والولع بي.. سأنجب ذاك الوريث المنتظر.. سيكون قويًا حكيمًا وسيمًا تركع له الدنيا.. سيكون مفتاحًا لجنتي الخالدة وخاضعًا لي.. سيصحبني معه إلى دنيا البشر ويريني عالمهم المخفي عن بصري ويمتعني بخيراتهم المخبوءة عني.. أقسم على إنجابه حتى لو واجهت العالم أجمع وتحالفت ضدي قواه.. لن أعود كما كنت وسأمضي داخل الأقدار أقتنص ما هو حقي..

* * *

أقعى صفوان في جلوسه المستكين أمام عالية كأنما ابتلعه الحائط ولفظ وجهه الكدر.. نظراته ساهمة يعكر صفوها القنوط.. لا يطالع زوجته المرتعدة من فكرة اقترابه منها.. لم ينتو معاشرتها كحال أي عروسين في ليلتهما الأولى فقد سمج منظرها في عينيه على الرغم من تزينها المثير للغريزة وحسنها المعتدل.. ظل مهمومًا بمصيبتين أولاهما هي مضاجعة امرأته وأخراها عدم لمسها وما سيثيره ذلك عليه من شائعات مغرضة وتهكمات أهل القرية، وسرٌ مثل ذلك لن يلبث أكثر من سويعات حتى يلف القرية بأكملها!.. انداحت دوائر القلق حول رأسه المتصدع بأسئلة مرهقة: كيف يخون معشوقته فجسده وقلبه منذوران لها، ويفضي بنفسه لغيرها؟!.. كيف يتحاشى سخرية أراذل القرية حينما يتندرون على وحشهم المرعب وثورهم الهائج الذي عجز عن فتح قفل امرأته؟!.. أما السؤال الأهم: كيف يضمن ألا تهلك عالية تحت جسده كما حدث مع زوجتيه السابقتين إذا ما فقد سيطرته على نفسه؟!.. هو لا يريد قتلها ولن يضره موتها، لكنه يخشى تأذي نفس أخته، وصفة الشؤم التي ستزداد التصاقًا به.. ارتبق صفوان في حبال أقداره، عليه الاختيار بين شرفه ورجولته أمام الناس أو موت عالية المحتمل إذا ما غاب عنه وعيه مثل مرتيه السابقتين.. فخاطب نفسه بسخط يائس قائلًا:

ـ يالاعتساف الدنيا، وعبثها الهازئ!.. أوتيت قوة الريح إذا عصفت، والجبال إذا هوت، والأرض إذا زلزلت ولا أجرؤ على نيل أي مما أريد.. لا فاطمة.. لا حب.. لا ملك.. لا أصحاب.. حتى تلك المرأة لا أملك رفضها.. اللعنة على نعمتي المسجونة بين جنبي.. عافية مهيضة لم تنفعني أو تكف نكبة عني طوال حياتي، كالماء المالح للظمآن لا ترويه..

أبى صفوان تمرير عينيه على وجهها لئلا تشرق له ملاحتها فتثيره.. صمم على زهده معاندًا قدره.. مر الليل ثقيلًا ككثبان الرمال حتى صعد الفجر على أكتافه، وواصل السَّنَاجُ زحفه المتروِّ إلى عنق المصباح، فقام صفوان ليطفئ اللهب الخابي ثم اتكأ على السرير وجلس قرب عالية

مطأطئ الرأس.. دقت في أذنه وجيف قلبها وشمت أنفه هلع صدرها الممزوج بطيب ريحها.. ذابت كتلتها الضئيلة في الظلام حتى أضحى مكانها صفحة سوداء.. مضت دقائق متتالية لا يتحرك أحدهما من مكانه كأن العتمة قد بددتهما.. وفجأة زرت عيناه على لوحة بيضاء نقية تلصف دون ضوء.. امتلكه وميضها، وألح عليه النداء.. أرهف السمع للسكون العذب المنغمس فيه.. فامتد خياله ليرسم ما عنَّ له.. ظهرت له من باطن اللوحة فاطمة تتهادى إليه في دلال، مبتسمة، نضرة، شفافة مشعٌ شبقها.. كأنها آلهة وثنية تأمر فتطاع.. اندفع ناحيتها، ناحية الفراغ، يهتف في تأوه:

ـ فاطمة.. فاطمة..

أفاقت عالية من غفوتها المضطربة الموجزة على ذاك النداء.. كان الصباح ينازع عبر ثقوب الخشب في النافذة فيرتمي على وجه صفوان.. رأته، وهالها ما انكشف لها.. نظراته المخبولة وجبينه المتفصد عرقًا، أنفاسه اللاهثة وارتجاف شفتيه، تيبس قوامه واختلال أقدامه.. رمقها بعينيه، وانهال دون إنذار على قدميها البضتين تقبيل العاني المولع.. ألجمت فزعها ولم تصدر منها سوى شهقة المفجوءة.. وراحت تتابع في دهشة العاجز يد زوجها الغليظة الضخمة ترفع جلبابها، وفمه اللاعقة بنهم لكل جزء في قدميها وساقيها حتى وصل بفمه إلى كنزها المدفون.. هنالك انفجر نهمه وظل يلعق كأنما تحالفت حواسه الخمس على أكلة واحدة.. غارت عينا عالية وتلاطمت حولها أمواج الشهوة العاتية على صخور الخوف البارزة، تخشى الإذعان بروحها له وتتمنى في نفس الوقت لو أذاقها فحولته الكاملة حتى تثمل.. مضت يداه حرتان حتى أزالتا ستر صدرها الناتئ، واعتصر حلمتيها النافرتين كقلب زيتونة، يتلوهما لسانه الخشن الطائف بخصرها وسرتها كأنما ضل الطريق ليده حتى وصل منهكًا لاهثًا إلى ما يبرز من أصابعه فقبل صدرها بتأنٍ وانسحب برفق إلى عنقها حتى التقم شفتيها وضم رأسها الصغير بيد واحدة لينهل من ريقها ويمزجه بريقه.. استطاع اقتحام قلب عالية من ذاك الأداء العاشق والجسد

العابد للحب المتقن لفنونه.. فاستسلمت له وغاصت في رغباته.. تلامس في غبطة ثعبانه الناشف متأهبة على حذر لاندساس لبنه في عسلها..

ظلت عيناه متوقدتين، لسانه يتمتم باسم أخته وكلمات عشق مفرطة الرهف تلقفتها مسامع عالية لكن عقلها المغيب في اللذة النشوانة أجبرها على تجاهلها، ولكن مع كثرة ترديده لتمتمته وانفلاتها بصوت أعلى جعلها تلملم شتات نفسها، تنتبه، تنكر هذره، تنسحب بجسدها من تحته رويدًا رويدًا.. فأحكم قبضته على معصميها، ثبتها بقوته الغاشمة تحت فخذيه المتصلبتين كالأوتاد.. صرخت فزعًا فأطبق كفه على فمها متماديًا مغيبًا، لاهجًا باسم فاطمة بوله تام كأنما امتلكها.. قاومت عالية بكل ما أوتيت من قوة وطفر الدمع من عينيها الجاحظتين خوفًا من الموت.. تتنفس بصعوبة الغريق تحت كفه الموصدة لمنافذ الحياة.. هنالك باعد بين فخذيها ووصل جسده بجسدها بسهولة تماثل دهس فيل لفأر.. افترع بكارتها، اعتلاها، التحفها، نالها كلها.. راحت عصاه تطعنها بتتابع وقسوة بينما كفه رابضة فوق ثغرها الصغير.. توسلت بنظراتها، باستسلامها، بأنينها المكتوم، بالسيل المتدفق من عينيها أن يرحمها.. لكنه غائر العقل، مدموج في حلم يقاتل بكل مشاعره لئلا يخرج منه.. دفعه روعة ما يلاقيه في خياله إلى الضغط أكثر فأكثر على رقبة عالية مع أنفها وفمها.. فقُضيَ نحبها.. استغنت عنها روحها وصارت كتلة لينة كالصلصال.. استمر صفوان في هتكه لها حتى بعدما خمد جثمانها.. ثم اندفع ماؤه الساخن ساحبًا روحه بلذة فائقة.. أغمض عينيه، وتجعدت جفونه؛ لئلا يفارقه طيف فاطمة لدقيقة ثم فتح عينيه مكرهًا.. نهض مترنحًا وسار على مهل تجاه زير الماء.. شربه كله كأنما يعوض ما خرج منه عرقًا كان أم منيًا.. عاد إلى سريره متأففًا بعد تذكره رقدة عالية عليه.. هزها بقرف كي تعد لهما إفطارًا.. لم ترد عليه.. فقذفها مغتاظًا.. وقعت على الأرض وبان له زرقتها ودمها المسال من أنفها وفمها، وعيناها الجاحظتان..

* * *

تصاعد الصهد حوله راكلًا النسائم الرقيقة إلى خارج محله.. هذا ما اعتاد عليه وقت الظهيرة حينما تناجي الأسنة المحمرة حوله حرارة الشمس.. الحديد الذائب كمخاط متدلٍ من منخار طفل.. المطرقة الضخمة.. مقاديم الكيران المسودة منَ النار.. معاول صدئة متلهفة للعودة إلى قوتها.. سكاكين باردة الأنصال مفرودة على حجر عالٍ في الركن الأيسر اصطفت ليحدها العم زهير، المتفحم الوجه والكفينَ وقد مجلت يداه من العمل، وهجعت روحه من الغم!

كان يجلس وحيدًا مطرق الرأس، مستظلًا بسقف محله الهش.. تتناثر البقع السوداء على جسمه كله حتى لحيته الصهباء لم تسلم.. يوحي وجهه المكفهر بهمه المطبق على صدره وحزنه الذي لا يفنى.. لم يكن هكذا قبل سنوات قليلة ولت.. فهو البسام الضحاك الطيب المرح الكريم.. محبوب قريتنا الأول، ومن منا لا يرتاح بمصاحبة ومطالعة ومجالسة عم زهير؟!.. ظل بيته قبلة لأهل قريتنا سنين عديدة.. يفرج عن هذا همه ويشارك ذاك مأكله، ينصح فلان لما فيه هداه ويساعد علان في مبتغاه..

تفحمت غضاة الذكريات في قلبه، وصبغت نفسه قتامة.. هذا ما اقترفته موائق الاستبداد فيه.. نكلت بروحه أيما تنكيل، وأوردته مصاب المصائب.. إنه يتذكر جيدًا ذاك الصباح الغائم الرمادي حينما زاره مبعوث الخراب وآمر الهلاك صفي الدين يتبعه حارسه سفير الشؤم صفوان ومرافقان خاضعان زيد ورافع ـ حاملين لأثمن الهدايا من ثياب وطعام وطيب وذاك ما لم يقم به جليل من قبل بأن يزور بيت أحد رعيته.. لكنه كان متيمًا بهند، ونار هواها مذكية في قلبه.. أتاه يطلبها زوجةً له واعدًا إياه بطيب المكانة التي ستحظى بها ابنته عنده.. ألجمه صمت المفاجأة وتسمرت عيناه بعيني صفوان اللتين يتطاير منهما الشرر.. كان أهل القرية جميعًا يعلمون بغض زهير لعمير والد جليلهم الحالي وما لاقاه على يديه الآثمتين من عذاب وظلم حتى أهلكه الله، كما ظنوا أن ابنه سيكمل ما بدأه أبوه؛ لكنه أحسن للحداد دون الآخرين واختصه بوده وابتساماته

الشحيحة!.. كان زهير أبًا رحيمًا رفيقًا بابنتيه.. فهما ضوءا عينيه، وأنفاسه الرطيبة، وبهجته الدائمة.. لم يخطر على باله يومًا بأنه سيزوج إحداهما رغمًا عنه.. كان يعتقد أن جمالهما وسيرة والدهما كفيلين بنيل زوجين طيبين لهما يهنآن بحياتهما معهما.. أمنياته البريئة بأحفاد يشبهون أمهاتهم.. مشاكسون وطيبون كهند.. جادون وأقوياء كرغد.. وأن يظل بيته فياضًا بالحياة..

أخذ القدر زهير على حين غرة بطلب الجليل لابنته هند.. هو يكره كل جليل، ويلعن تاريخهم الدموي، وطغيانهم الفاجر من لدن جعفر حتى صفي الدين.. لكنه ضعيف، طيب، جبان لا يجرؤ على مجابهة الجليل، أو يده الباطشة صفوان.. فآثر السلامة، ووافق مرغمًا..

أسحمت سماء زهير بغيوم مدلهمة، وانهار كل آل بيته في غم وحزن.. فالأم تشابه زوجها في بغض الجليل وظلمه، وهند تعشق علام بن راغب، وتروم الزواج منه مذ كانا طفلين، أما رغد فقد صهر قلبها الغيظ لحظ أختها الواسع في نيل زوجًا لها هو سيد عالمهم بينما هي لن تجد سوى الشراذم لتتزوج منهم وتكمل حياتها في الضنك لأنه لا يوجد غير جليل واحد وما دونه في الوحل..

أرق زهيرًا الفكر، وأضناه المصاب.. هو يحفظ ابنته عن ظهر قلب.. هند لن تتزوج صفي الدين حتى لو جرها من شعرها صفوان إلى سرير الجليل.. رأسها لم تخلق للمطارق والانصهار.. وإرادتها لا يفلها شيء خلقه الله من قبل أو من بعد.. هي تحب علامًا.. ذاك ما أفصحت به لأمها ولن ترضى زوجًا غيره.. ظل أيامًا يعتصر ذهنه عله يجد حلًا ما.. لكن هيهات النجاة إلا بزواج هند من الجليل وإلا أحرقهم جميعًا أحياء.. وهند لا تستجيب لتوسلات أمها وأبيها الواهنين المستضعفين وتقسم بكبرياء الواثق، وغضب المتوعد على ألا يمسها الجليل حية أبدًا.. لا ينفك كل من يعرف زهير وأسرته على نصحهم بتعجيل ليلة الزفاف لئلا يثور عليهم

الجليل ويحيق بهم سوء العذاب والهوان حتى حصل ما حصل!

دجا ليل الويلات، ومحق قمر الهناء عن سقف الدنيا المرفوع حينما هربت الوامقة العنيدة هند عن قريتنا.. عبرت مع علام حدود دنيانا طاوية ماضيها وأهلها وحياتها في ذكرى تحملها.. شقت متاريس الصحراء فارة من مطاردة مصير لم يرق لها.. كان ذاك في الليلة الخامسة بعد زيارة الجليل لبيت والدها وطلب يدها.. ونيت قدرتها على مقاومة رجاء والديها بقبول الزيجة لئلا يفتك بهم صفي الدين كحال أي جليل إذا عُصي أمره ورفض طلبه.. لم تجد حلًا غير الهروب من القرية مع حبها الوحيد علام بن راغب فهي لا تتصور أن تكون لرجل غيره.. أشارت عليه بفكرتها فانصاع لها مرغمًا.. هو أيضًا مثلها.. عاشق مجنون..

تسللا بين نقط الحراسة المحيطة بأطراف قريتنا.. كانت جذوات الحرس المشتعلة نذيرًا لهما، وهاديًا.. علا عواء الذئاب كما لم يعلو من قبل.. تآكلت شجاعة علام على المضي إلى ما وراء عتمة الليل الكثيفة، إلى قلب رعبهم الأكبر ـ الصحراء، لكن هند الهادئة قبلته على خده وقالت له بثقة ومرح:

ـ الذئاب تحتفي بحبنا.. تبارك هروبنا.. ستتولى حمايتنا من هنا فلا تخشَ شيئًا ياحبيبي..

* * *

تسع أيام لم تذق فيها قريتنا هجوع الوسن، وطمأنينة القلب.. لم يُسمع سوى صهيل الخيول المتحفزة والرجال الثائرين والبكاء المستغيث.. السباب واللعنات على راغب وزهير يطوفان مع الهواء إلى كل أذن وعلى كل لسان.. أطلق سراح الوحش الكاسر صفوان فطفق تنكيلًا بكل من يلقاه في طريقه حتى يموت التعيس بين يديه أو تنجده فاطمة في آخر لحظة من تحت أنياب أخيها.. قتل وحده ثلاثة رجال كل ذنبهم أنهم أوقعهم حظهم العاثر في طريقه وأنهم لا يدرون إلى أين هرب علام وهند.. كل رجال الجليل

اندفعوا في الطرقات كالكلاب المستشرية فاتحة أشداقها لالتهام الحيوات وهدم الدور.. أستطيع تسمية تلك الأيام بموسم حصاد ملك الموت.. فهو الذي حكم خلالها وعلا شأنه.. أيامًا أسعدت فيها النائحة الثكلى، وأسقيت الأرض نجيع المظلومين واحتضنت مكرهة آخر زفراتهم..

انطلق جليلنا وحده يطوي الصحراء شبرًا بشبر، لم يفارق ظهر فرسه أسبوعًا بأكمله متوهمًا بأنه يصقب من حبيبته الهاربة كلما توغل في مسارب التيه.. يشم ريحها في كل بقعة كأنما تراوغه الصحراء ساخرة.. تتبع أثرها كما تعلم من أجداده فنون اقتفاء الأثر.. اشتد عليه الغليل، وتقلصات السغب، وغارت عيناه وروحه.. زلزله النحيب حينما أيقن بأن هند رحلت دون أوبة.. ذابت في الصحراء ككل أسرارها..

قصم ظهره الجوى.. كما قصم ظهورنا..

عاد إلى القرية مهزومًا محزونًا محمومًا.. ظل في فراشه ثلاثة أيام مريضًا يتناوب على الدخول إليه صفوان وعم فرج طبيب قريتنا الذي تعلم خفايا وفوائد الأعشاب أبًا عن جد انتهاءً إلى سعاد زوجة حسن نسيب جدنا جعفر.. كانت قلوب أهل القرية معلقة ببرائه حتى لو نهض غاضبًا فقتل نصفهم فعلى الأقل سيحيى النصف الثاني بسببه.. فهو الذي يملك القوت ودروبه، ويحميهم من خطر المماليك وقطاع الطرق.. إن هلك لحقهم الموت وراءه.. وإن نجا، فسيعيشون وذاك أقصى أمانيهم!

يا ليت الحمى قضت عليه.. ذاك كان رجاء كل قلب رحيم رأى ما فعله ذاك المختل الفاجر براغب والد علام.. فقد أمر بقطع أوصاله «الرجلين واليدين معًا» ولسانه وفقأ عينيه ثم تركه حيًا.. وحينما همَّ بارتكاب نفس العقاب المجرم في حق زهير رأى وجه رغد فارتجع متذكرًا وجه هند، وأمر أباها أن تعد ابنته الليلة للزفاف.. خارت رغد وكاد قلبها ينزلق من فرط السعادة عندما سمعت تلك الكلمات وتألق أمامها حلمها الوردي بازغًا بعهد جديد تودع فيه الفقر والتعب..

أضحى العم راغب أمثولة القرية في جزاء من يُغضب الجليل أو يُسكن في بيته أحد الحائدين عن طاعته.. مكومًا في بيته لا حس له ولا حركة تصدر عنه كأنه آنية فخار مطفأة اللون.. إذا أراد الأكل أو الشرب أو الإخراج يخفق بعضديه مثل طير ينازع سكرات الموت فتأتيه زوجته المنكوبة لتقضي له حاجته.. لم يمنع الجليل عن راغب وزوجته القوت، لأنه يتشفى في رؤية عذاب والد قاهره ومذله علام، فقتله لن يشبع عند صفي الدين لذة الانتقام أو ينسيه ما جرى..

- 8 -

الصعلوك

البرد في الصحراء يشتد عوده، وفي الليل تدلهمُّ الأمور، فيحكم إحاطته على الأنحاء وتصير كلمته هي العليا.. الرحلة وصلت لمنتهى القسوة، والعناء يثدق على الصعلوك من صدر الدنيا زخات ثقيلة متتابعة.. الأيام وصلت لشفا عاشرها، والقدم تقرحت من طول المسير.. العزيمة خامدة، والقنوط بلغ ذروته.. بدت له الصحراء في هيئتها واحدة وخادعة كرحمة الإله الذي يبغض، تدفعك إلى التضرع ثم لا تجد إلا سرابًا!

تخالط على ذهنه أصوات الذكريات مع صمت الصحراء.. الجنون فاتح أشداقه ليبتلعه، والموت يناور حول رقبته بألاعيبه الخبيثة.. كل الحيل عاجزة أمام جبروت الرمال الساكنة والريح الهائمة والعدم المطبق.. الزاد قارب على النفاد، والماء لم يتبق منه إلا النزر اليسير الذي يكفيه لآخر يومه، ولولا بضع قطرات المطر التي خزنها، لهلك من يومين، والسماء تبدو صافية كصفحة واقعه.. أليم جليّ..

بدأ الرحلة مهرولًا ثم ونيت قوته ليصبح سائرًا، واليوم هو أقرب للحبو منه إلى العرج وكي يعود سائرًا يلزمه الكثير من الطعام والماء، والراحة.. سخط على جسده الذي لا يسعفه حين يسأله العون.. ألم يألف ذاك الجسد كل أنواع الشقاء والحرمان؟!.. كيف يخونه الآن

وهو لم يجشمه أكثر مما اعتاد طوال حياته؟!.. أيفيده الآن الاستغاثة بالرحمن؟!.. لكنه استغاث به آلاف المرات من قبل ولم ينقذه.. لن يكون ما فيه أسوأ من ليالي الضرب المبرح على يد عشاق أمه أو من هجمات الجوع الشرسة في حضن جبل الغريب أو من تندر الناس عليه وسبهم له دون جريرة.. حياته كلها مشهد واحد كان فيه هو الطرف المنكوب دومًا..

حل يومه الثاني عشر كئيبًا موجعًا.. أمضه الجوع، وتحجر لسانه من العطش.. عيناه غائرتان وجسده يلفظ أنفاسه الأخيرة.. صار يسير على أربع كالذئاب، وثوبه المهلهل ممزق في كثير من مواضعه كأنه يعاون البرد على النيل من صاحبه.. نفسه لا تأبى الاستغاثة بالله لكنه يعلم سلفًا أنها دون جدوى.. تشبثه بالحياة لم يكن يومًا قويًا لذا ارتاح إلى الاستسلام لرسول الموت الذي تراءى له كثيرًا في الآونة الأخيرة.. انتابته رجفة الخوف من الله، ود لو يتوب لكنه موقن بأنه لم يكن المخطئ كي يتوب..

ـ إذا مت، فلأمت صادقًا.. تكفيني تلك الفضيلة لأواجه بها العبث والظلم الذي واجهته طوال حياتي وسأواجهه بعد مماتي!

كانت تلك آخر كلماته قبل أن يفقد وعيه، ويخور جسده على الرمال اللامعة.. أما آخر ومضات عقله فهي صورة الذئب المسجى في دمه وزمجرته الزاجرة!

* * *

تحلق جمع من الأطفال المشاكسين حول جسده يقلبونه قبل أن يهل عم بشرى على بغلته التي يركبها بصعوبة ولا يهبط من فوقها إلا في الحدث الجلل أو حين انتهاء حاجته منها لآخر يومه لكسله المفرط وبنيته المترهلة السمينة.. زعق فيهم بحدته المعهودة وهبط على الجسد بكلتا كفيه وبطنه المنتفخة.. فحمله وهرول به ناحية البغل.. وضعه فوقه ثم وكزه ليعود إلى الخيام التي يحفظ طريقها عن ظهر قلب!

مر يومان على سباته العميق تمثل له فيهما صراع الوجود.. لمحات الذكرى تنتابه في إغفاءاته القليلة.. جبل الغريب، الذئب المسجى، أيام العذاب، العواء العالي، أناشيد عم رجب، أسطورة علام وهند.. شعر بمعدته وهي تملأ باللبن والعسل وكثير من شراب يجهل نسبه واسمه.. الحياة تداعب أوصاله من جديد وتشد عزم الجسد الواهن.. العين تفتح لكن غشاوة التعب مازالت تغطيها.. تلتقط أذناه أصواتًا لأناس يتكلمون لغة تشبه لغته لكنه لا يفهمها، أيكون ذلك لوعيه الغائب أم حدثت المعجزة ووصل لأرض البشر؟!

لم يحتج عقله المزيد من الحيرة حينما أفاق على تهاتر رجل وامرأة على مقربة من رأسه.. كانت المرأة تقارب الأربعين وأسنانها المذهبة تبرق مع صراخها الحاد، حلقان الذهب تغطي ساعديها المشمرتين استعدادًا للفتك بزوجها المنفوخ كقطة سمينة تخشى العراك.. بياضها صافٍ وجسدها الممتلئ يوشي بجبل من الثلج النقي تحت جلبابها المطرز.. وبعدما زاد هياجها، تقهقر زوجها إلى خارج الخيمة يسبها ويلعن الساعة التي تزوجها فيها تاركًا إياها تزفر وتزمجر متوعدة إياه لو لم يطعها فيما ترغب.. انتزعها من فورانها سعال صدر من مريضها المطمور تحت الأغطية الكثيفة.. فهتفت مهللة:

ـ حمدًا لله على سلامتك..

أدار رأسه تجاهها ببطء وصوب بصره ناحيتها سائلًا:

ـ أين أنا؟!

تعجبت المرأة للحظات من لهجة الفتى، لكنها تلهفت لإجابته قائلة:

ـ في خيمة قطر الندى.. سيدة العارفين بالبخت وقراءة الفنجال.. وجدك زوجي بشرى بين الحياة والموت على مقربة من خيامنا فحملك على بغله الذي يشبهه وأتى بك إلى هنا..

لم يع الصعلوك بعضًا من كلامها.. فأثار ذلك تعجبه ليسألها حائرًا:

ـ في أي بلد نحن؟!

ـ على مسافة يومين من طنطا.. فنحن ذاهبون إلى هناك بعد شهر لحضور مولد السيد البدوي (شي الله يا سيد).. ونخيم هنا استراحة من عناء السفر، وبعدًا عن سخف الفلاحون.. كبدي على الغجر!!.. لا يرتاحون ولا يجدون مأوى لهم.. لكن ذلك قدرنا..

ـ هل طنطا هذه في مصر؟!

ـ نعم ياخويا في مصر.. وليست في الهند!

ثم تهلل وجهها، وبرق لمعان أسنانها وهي تدعي الخجل قائلة:

ـ أنستني فرحة استيقاظك عن سؤالك اسمك ومن أي بلد أنت؟، وما الذي رمى بك في الصحراء دون طعام ولا ماء ولا حتى ثوب يكسوك من برد الشتاء يا ولداه؟!

تاه عقل الفتى في التقاط الإجابات.. هل يخبرها أنه لا اسم له سوى السباب وأن موطنه هو جهنم الحمراء وأن الذي رمى به في الصحراء هو استغاثة بالحياة كي تلتفت له.. لكن وعيه الذي غاب مرة أخرى أنقذه من إجابات لم يتحضر لها جيدًا ولم يعد لها إعدادًا محكمًا.. فآفة البشر السؤال، ولا مفر دومًا غير الإجابة، والإجابة المقنعة فقط..

* * *

على الرغم من بلوغها زهاء الخامسة والثلاثين عامًا إلا أنها مازالت على نفس عهدها مع المطر والريح.. تخرج للقائهما في الطرقات الخالية وتلقي بجسدها في أحضانهما.. حينها فقط يدفئها قلبها بروائع الأماني ويضيء عقلها بومضات الأحلام السعيدة.. مازالت تحلم برغد العيش والهناء الكامل.. فرح توقن أن قلب المرأة العاشق لنعيم الدنيا لا يدخله الرجال.. فالحب ضعف، والضعف ذلة، وهي ما تمنت هجران الفقر إلا

لقبح الذلة فيه.. هي لم تحب المقبور عمير ولم تمل إليه بقلبها ولو للحظة واحدة.. إنما عشقت قصره الأنيق، وملابسه الباهية، وعطوره الأخاذة، وماءه الدافئ، وخدمه النشيطين، وفراشه الوثير، ولفافاته ذوات المذاق الساحر.. آه لو أتذوقها مرة أخرى قبل أن أموت ـ هكذا تمني نفسها كل يوم..

سحبتها روحها التواقة إلى الجنة المحرمة للطواف حولها.. إنها تحفظ كل شبر في ذلك القصر، محفور خارطته في عقلها.. في كل ركن فيه شهدت متعة جسدية من نوع خاص مع عمير.. مازالت تتذكر طريقته في معاشرتها.. إنه بالفعل يستحق لقب الجليل ـ هكذا تؤمن بعد ما مارست الجنس مع معظم رجال القرية.. لازال عمير هو الأفضل والأول.. كان يعلم كيف يشعل شهوتها ويخمدها بنفس لذة الإشعال.. هي تشعر الآن بأنها لا تكرهه.. فقد أعطاها ثمن كل لحظة متعة استغلها فيها.. علمها كيف تستثمر جسدها لدرء شبح الجوع والتعب.. ماذا سيكون حالها الآن لو لم تتبع عميرًا؟!.. زوجة لمزارع فقير ممل، لا يعرف فنون الحب.. ثم ترزق بأطفال لن يكونوا أفضل من ابنها الصعلوك يعملون في خدمة الجليل كغيرهم.. هي الآن أفضل حالًا بكل تأكيد.. تقبض ثمن كل لحظة تعيشها دون أن تبذل مجهودًا في خدمة أحد..

انتزعتها ضحكة صدرت من أعماقها حينما تذكرت كيف تعلم نسوة القرية إن كان أزواجهن يعاشرنها أم لا فزوجة أي رجل في القرية عندما تتفقد خزين طعامها أو ملابسها وتجده ناقصًا تعلم ساعتها أن زوجها قد خانها مع فرح.. فكثر الأزواج الذين تعرضوا للتنكيل علي يد زوجاتهن بعدما نجحت تلك الحيلة في كشفهن لخياناتهم.. لكن سرعان ما تغلب الرجال على تلك الحيلة بحيلة مضادة من خلال عملهم المضاعف في الزرع وقبض الثمن من الراعي بكر وتمريره في حينه إلى فرح دون دخول بيوتهم لئلا تعلم زوجاتهم.. ونجحت الحيلة واستمرت فرح تجني ثمار جسدها الشهي.. لكنها ستذبل وتهرم وتصير عجوزًا قبيحة لا يرغب أحد

في معاشرتها.. ماذا ستفعل حينها وهي وحيدة لا زوج أو أبناء أو أحد يحبها؟!.. تقول لنفسها دائمًا بأسف:

ـ لو كنت رزقت ببنت تشبهني، لهيأتُها لخلافتي من بعدي والاتكال عليها إذا هرمت.. فالبنات لا ينزعجن مثل الرجال من سوء النسب، وغمزات النمامين، ويمكن السيطرة عليهن بسهولة.. لكني بُليت بذاك المعتوه الذي لا أعلم من رمى بذرته داخلي.. وأخشى أن أحمل مرة أخرى فأرزق بولد آخر يزيدني بؤسًا ولا يقدم لي حلًا.. ما الحل يا فرح؟!.. السنون تمضي سريعًا.. والجمال الباهي سينطفئ وميضه عاجلًا أم آجلًا.. فالفقر وشظف العيش يسلبان الجمال أسرع من سنون العمر.. وكلاهما قد تحالفا عليّ..

تنهدت بحرقة وهي تنظر إلى القصر المغري بلوعة ثم استطردت سائلة:

ـ أما آن للعاصي أن يلين؟!

حاولت فرح عدة مرات بعد وفاة عمير أن تغري ابنه صفي الدين لتنال منه ما لم تنله من أبيه.. تفننت كما لم تتفنن امرأة من قبل في إبراز مفاتنها علها تأسر قلبه.. لكنه ولتعاسة حظها وسوء نواياها كان صفي الدين عاشقًا متيمًا بهند بنت زهير الحداد.. هي تعلم أن الرجل العاشق كالنجم العالي لا يمكن أن يحظى به أحد مهما حاول.. فأحبطت عزيمتها وقنعت بحياتها كعاهرة حتى توقد لها الأمل مرة أخرى بعد هروب هند مع علام من القرية، ومجيء صفي الدين إلى مخدعها كي يداوي حبه الجريح برذائل تشغل النفس.. فأحاطت به، وأولته كل صنوف العشق والهوى، وتفانت في إبهاجه أكثر من والده.. لكنه فجأة وبعد ليلة واحدة فارقها وتزوج رغد.. وحينما ذهبت لتزوره في قصره وتعاتبه على الهجران.. نالت منه مثلما نالت من أبيه من الركل الموجع والسباب والوعيد..

وهكذا صار قدر فرح.. أن تكون لعبة بين أيدي الرجال تسليهم

وتلهيهم ثم حينما يملوا منها يلقونها في القمامة، حيث مكانها المناسب كما يعتقدون.. لكنها لا تمل الأمل، ولا تكف الطواف حول جنتها المحرمة كلما حانت لها الفرصة، ولن تستطيع أن تكون سوى عاهرة قريتنا.. ذاك هو قدرها المحتوم..

- 9 -

الجليل

رائحة البخور تضوع في غرفتها المعتمة.. لا يُلمح في المكان سوى جمرات المبخرة وعينيها الجاحظتين البارزتين كنتوء.. كل ما حولها أسود داكن، حتى روحها الحبيسة معتمة ذابلة، جلبابها، مقلتاها المتوقدتان، سخائم قلبها.. لا توجد أية إشارة على الحياة في غرفتها سوى خيوط البخور الصاعدة وشفتيها المتيبستين اللتين تتمتمان بلغة لا يفهم معناها أحد غيرها.. همهمة ترددها ساعات طويلة منذ أمد بعيد.. سرها مخبوء يلفه الاستتار.. على هذا أقسمت في يومها الذهبي الذي غير حياتها وخلق من نفسها نفسًا جديدة.. حتى زوجها المولع بها والعاشقة له لا يعرف عنها شيئًا وبالأخص ساعاتها الطويلة التي تقضيها حبيسة في غرفة وليدهما المنتظر.. الابن الذي لم يأت بعد..

قبل خمسة عشر عامًا أو أكثر كانت صفية فتاة مشعة نضرة يكسو وجهها نقاء ورواء ليست كما هي عليه الآن امرأة كئيبة مظلمة ينبت الزغب على ساعديها وهيئتها مزرية.. تزوجت الشيخ سعدان عن إعجاب.. وبارك زواجهما الجليل عمير الذي منحهما القمح والزيت وأقفاص الدجاج وفرسًا وثيابًا وعطورًا.. كان ذاك عهد كل جليل مع إمام القرية حينما يتزوج..

بزغت حياتها مع الشيخ سعدان بسعادة غامرة.. فزوجها يحبها ورزقهما وفير ومكانتهما عالية بين أهالي القرية.. كل سبل الخير معبدة أمامها إلا سبيلًا واحدًا أرقها يومًا وراء آخر.. الإنجاب.. طافت بنسوة القرية تسألهن العون والحيل كي تحمل بطنها لكن لم يفدها أحد بمن فيهن أم زوجها القابلة زبيدة.. عجزت تمامًا عن إدراك مرادها عامًا وراء آخر.. مزقها إصرار أهل زوجها على اقترانه بأخرى كي ينجب الولد الذي سيرث فقه العائلة لكنه رفض حبًا فيها.. كانت تعلم جيدًا معنى عدم إنجاب سعدان لولد يخلفه.. أي انتهاء خمسة قرون من احتكار أسرتهم لعلم الدين وانتقاله لعائلة أخرى وبالتالي سيلم بهم العوز المدقع لأن الجليل سيمنح شرف الإمامة لعائلة أخرى، فهو الذي يملك كتب الفقه والحديث والشريعة، يمنح سرها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء..

قبل عامين من لحظتها هذه، فقدت صفية صبرها وعقلها.. ألمَّ بها غضب الجحيم، وسخط المارقين.. دهمتها حالة فريدة من الضغينة تجاه كل البشر، ورب البشر.. صبت جام كرهها على الله تحديدًا، فكل يوم هي تدعوه ولا يستجيب لها، ترجوه ولا يحقق لها أمنيتها.. يئست منه، بغضته.. كيف يهون عليه التخلي عنها هكذا أمام أهل زوجها ولا يمنحها ما يكف ألسنتهم عنها؟!.. كيف يترك الرجل الذي يدعو الناس لعبادته دون خلف؟!.. ألم يقل في قرآنه: (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) إذًا، أين إحسانه على من أحسنت عبادته طوال عمرها ولم تعصه قط؟!.. أين إشفاقه على التي لم تقصر من قبل في حق يتيم ومعدم؟!.. أين صدق وعده لعباده الصالحين؟!

ـ كله كذب بيِّن.. كله خداع..

هذا ما هتفت به بعدما أدلجت مكتظٌ صدرها بالهم، مسعورٌ وجدانها تبلًا إلى ساترة عوراتنا ـ صحرائنا المترامية.. هنالك وقفت مشلولة

وسحت عيناها دمعًا مدرارًا.. كان كل ما حولها صامتًا.. جبل الغريب، المقابر، الذئاب.. صاروا جميعًا كالفراغ الباهت.. نظرت إلى السماء المنورة بالفَخْتُ، وزجت حاجبيها في غضب.. اضطرمت داخلها كل مشاعرها المكبوتة وصاحت قائلة:

ـ أبغضك وأبغض من يعبدونك.. كل من سجد لك يومًا وخدعته برحمة لا تنزلها، وعدل لا تقضي به.. برزق أنت دومًا مانعه، وحكمة تدعيها لا معنى لها.. منذ الليلة أنا كافرة بك.. أتسمعني؟.. أنا كافرة بك كفرًا بيِّنًا.. أتمنى أن تشعر بكرهي لك مثلما شعرت بحاجتي إليك.. اغضب عليَّ قدر ما استطعت مثلما تجاهلت توسلاتي تلك السنين الفائتة.. هل تسمع قلبي الذي يضطرم بدقات القِلَى؟ أم أن صوت آلامه جعلك تعتقد أنه لا يعرف سوى الأوجاع؟!.. أنصت إليه، واغضب، إلعن، توعدني وسط ملائكتك بالعذاب الأبدي.. جحيمك لا تساوي النار التي قذفتني فيها دون ذنب.. كل ما ستعده لي في جهنم هو أهون مما حكمت عليّ به..

ركعت على الأرض، وأهالت التراب على رأسها تندب حظها وتعاستها المجحفة.. كان جسدها ساخنًا كأنما اغتاظت جهنم لكلامها، وفتحت أشداقها لالتقامها.. سجدت على الرمل قائلة في غيظ:

ـ أسجد إليك يا عدو الله، يا أول من فطن للرحمة الزائفة وحكمة الخلق الواهية.. هأنذا مطرودة مثلك، لاجئة إليك.. أعلم أنك ستنصفني، أثق بك.. فأنت وحدك تشعر بالقهر الذي أصابني.. لبّي طلبي وسأكون عابدة لك أبد الآبدين.. حتى لو سيق بي إلى جهنم فسأظل على عهدي هذا.. امنحني ابنًا وسأمنحك حياتي وآخرتي، جسدي وروحي..

ظلت تبكي بحرقة لوقت طويل تردد قائلة:

ـ امنحوني ابنًا.. أريد ولدًا واحدًا.. خمسة عشر عامًا، وأنا صابرة لا يأتيني الغوث..

هاجت حنجرتها بصيحة حارقة:

ـ أواه، ألا يسمعني أحد؟.. أواه، ألا يريحني أحد؟..

عصفت الريح، وراحت تختلج في اتجاهات متعاكسة، كأن مقصد هبوبها صفية.. اندفعت الذئاب بين مضائق جبل الغريب تعوي في ترنيمة لم يسمع مثلها قبلًا، جرى السحاب في اتجاه القمر خافيًا نوره.. فرفعت صفية رأسها من سجودها المهين وأصخت لصوت بدا بعيدًا.. ليس صفير الريح الممزوج بعواء الذئاب، إنه صوت خاص يشبه فحيح الأفاعي تنامى في مسامعها شيئًا فشيئًا، حتى اتضح تمامًا.. كان صوتًا مفهومًا كصوت الآدميين لكنه أجش مخيف هبط على أذنيها بكلمات لم تنسها حتى الآن:

ـ لقد سمع استغاثتك سيدنا.. رق لحالك وهاله مصابك.. إنه سيد رحيم غير ما تظنون معشر الإنس.. إنه يعدك بذكر قوي عفي يفعل الأعاجيب.. يبشرك بأنه سيؤول له ملك قريتكم وأي مَلك يرومه.. سيصحبكم إلى عالم البشر، ويجعلكم سادة هناك على شرط أن تطيعوه وتطيعوني.. لن تشقوا معه بعدها أبدًا.. سيمنحك سيدنا الولد بعد انقطاع المحيض عنك ليثبت لأهل قريتكم معجزة الوليد وقدرة سيد الوليد.. ومن هنا حتى موعدنا عليك لزوم السجود إليه والالتزام بعبادته.. سيمنع أذى أهل زوجك عنك وسيعمي بعلك عن أية امرأة غيرك فلا يكون لأحد إلاك.. لا تخبري أحدًا مهما كان قرب منزلته إليك بسرك هذا حتى تحملين بطفل الخلاص.. وإن فشا سرك قبل أوانه، هلك ابنك قبل مجيئه.. هذا عهده فاحفظيه وإلى موعدنا..

مذ ذاك اليوم وصفية تداوم على التزلف إلى الشيطان وكل شيطان.. عزلت نفسها عن الناس، ووهبت نفسها لعدو الناس.. ابتكرت طقوسًا غريبة لعبادته بها.. تشعل البخور، وتلوك الحشرات الميتة، تمجده بكلمات أقرب للشعر، وتدهس القرآن بقدميها المتسختين.. تدعوه بخشوع أن يعجل فرجها، وتتمتم بأسماء اختلقتها لأعوانه كي يذكّروا

سيدهم دائمًا بوعده لها.. تعتقد أنها تسمعهم يجيبونها ويطمئنونها بأن سيدهم سيمنحها الولد.. وكلما اشتد بها القنوط، تسير بنفس الجلباب، والغضب المتقد إلى الموضع الذي تتوهم أنه خاطبها فيه فتمرغ رأسها في التراب وتناجيه لساعات ألا ينسى وعده مذكرة إياه أنها على عهدها معه، لكنه لا يجيب.. وهي مازالت واثقة في صدقه!

لاذت بصمت لم يعرف البشر مثله، قد تتحدث مرة في الأسبوع بجملة مقتضبة إلى زوجها الذي يئس منها وفضل تركها على حالها.. فحياتهما أضحت خامجة لا أمل فيها دون خلف، لذا فالصمت دواء شاف يعزل كل منهما عن الآخر..

* * *

يوم الجمعة.. يومنا المميز الذي يجتمع له رجال القرية في المسجد، ويعقدون بعد الصلاة مجلسهم الممتد في فناء رجب السمّار على حصران بيته المتهتكة حتى المساء، يأكلون الكسكس ويشربون اليانسون والقرفة، يتبادلون أحاديث قد تبدو تافهة مملة لكنهم يرفهون بها عن أنفسهم بعد أسبوع من العمل الشاق في الزيتون والبلح وغيرها من الأعمال، ثم يختمون ليلتهم بصوت بلبلهم الصداح العم رجب، أما النسوة فيتبادلن الزيارات فيما بينهن، تبث تلك ذات نفسها لجارتها وتستبثها سريرة قلبها ويتشاركن سر طبخة ما ابتكرتها إحداهن، أو طريقة مضاجعة تشعل غيرة تلك من حظ هذه..

الجمعة له عادات خاصة في قريتنا تبدأ منذ الصباح حينما يلتف الصغار حول بيت الشيخ سعدان بلهفة وضحكات خبيثة، ينتظرون رؤية منظره المضحك فهو رجل أعجر، قصير، لحيته بيضاء مبعثرة على وجهه المدور، وعيناه ضيقتان كثقب الإبرة وسط لغاديده المنتفخة غضبًا وتأففًا.. يوزك في مشيته كالغراب مرتديًا ثوبه الأزرق الذي يرتفع من على ساقه قدر شبرٍ أو شبرين بسبب بطنه المنتفخة.. أول ما يلمحونه ينفجرون

في ضحك صاخب وهم يشاورون بأناملهم الصغيرة تجاهه ويتساقط اللعاب من أفواههم، فلا يكون من الشيخ إلا أن يرمقهم بسخط ويسبهم مزمجرًا:

ـ يا نغل، يا وغل.. يا أولاد الأفاعي..

يَدِجُّ في سيره تجاه المسجد فيحفز ضحكاتهم الساخرة أكثر وهم يرونه يسرع خطاه، عندئذٍ يتأكدون أنهم قد نالوا منه وهزموه مثل كل أسبوع، فيقذفهم بالحصى لينصرفوا عنه لكن ضحكاتهم مازالت ترن في أذنه.. يدخل متأبطًا نعله إلى المسجد ذي الأبواب المشرعة وجدران من خشب غير مصقول وسقوف من سعف وفناء مفروش بحصر مهترئة.. يطالع باحتقار وتأفف وجوه المصلين لأنهم آباء أولئك الصبية الملاعين الذين يسخرون منه كلما رأوه.. صلى ركعتي السنة ثم صعد السلم ذا الثلاث درجات لاهثًا يتفصد عرقه من كل ناحية.. فمسح عرقه بمنديله القماش وجاس بعينيه أسفل منه فلمح الجليل جالسًا في الصف الأول وحده، وهي من المرات القلائل التي يصلي فيها الجمعة.. هوى من مكانه كصخرة تتدحرج على منزلق ونزل على ركبتيه مبتسمًا ليقبل كتف الجليل بعينين مضعضعتين وسلام حار.. فربت الجليل بحنو على صدغه الممتلئ ليكف الأخير عن تملقه الزائف ويخطب في المصلين صائحًا في جزل:

ـ الحمد لله رب العالمين.. باعث النبي الهادي الأمين.. راحم الطائعين، وموقظ الغافلين.. رازق الطير في عليين، والدود في أسفل سافلين.. حبيب القانعين، وناصر المستضعفين.. إذا أعطى، فهو خير المانحين.. وإذا حبس، فبذنوب الآثمين.. بحماه نحيا آمنين، وله نجثو شاكرين.. فقد أعزنا بالجليل صفي الدين، أميرًا عادلًا من نسل أشراف مؤمنين..

اشتدت أحبال صوته في سجعه الأخير.. وانتفخت أوداجه كأن ما قاله

يؤمن به أيما إيمان.. نظر إلى سيده في هوان وضعة.. ثم استطرد خطبته بنبرة المهموم المشفق قائلًا:

ـ آه لو تعلمون ما أعلم.. لهلعتم، وفزعتم، وفارقتم مضاجعكم ونساءكم أبد الآبدين.. فوالله الذي اجتبانا واصطفانا بمولانا صفي الدين لقُتل رجالنا، ويُتم أطفالنا، وسُبيت نساؤنا على أيدي المماليك الملاعين الذين مازالوا يذيقون أهل مصر ويلات الظلم والهوان، أو هلكنا جوعًا لولا أن لنا سيدًا لا يهاب المخاطر، ويملك قلبًا لا يعرف اليأس ولا الضعف، وعقلًا مستنيرًا متيقظًا.. هذا الأسد الجسور ابن الأسود آخر أحفاد المجاهد جعفر بن عبد الله قاهر النصارى القشتاليين يجازف بحياته من أجلنا كل ستة أشهر ليحمي أرضنا من أن تعيث بها أيدي الفاسدين، متحديًا كمائن الصحراء والضواري الشرسة وأنصال قطاع الطرق الذين فتكوا غدرًا بأخواله الحسن وصلاح في زمان قريتنا الأول ليمنع عنا الجوع والفقر والظلم والذل.. إنه إرث عريض من الشهامة يجري في عروقه يجعله يحمل عنا ما لا طاقة لنا به.. والذي نفسي بيده لو وقفت على منبري هذا أثني عليه وأدعو له أبد الدهر، ما وفيت حقه علينا.. فاللهم أجزه عنا خير الجزاء، وادفع عنه الأذى، وسوء المكر، وكن عونًا له على كل من يعاديه..

علا الشيخ سعدان بدعائه المستغيث كمن يتشبث بستائر عرش الرحمن لئلا يرده الله خائبًا، كأنما حلت على قريتنا النوازل وحوصرت من حشود الفرنجة.. ولولا تململ الجليل من طول دعائه لظل يبتهل إلى الله حتى يدركنا العصر!

* * *

ما أتعس شيخنا سعدان.. نهاره غم وليله هم.. الذل هو قضاؤه، ومهنته.. قدِّر عليه تملق الجليل والإنشاد في ريائه حتى آخر عمره.. بوق يذيع الجليل من خلاله الوهم والكذب للناس باثًا الرعب فيهم من

المماليك والتيه الغادر والضواري المتحفزة.. ذاك هو حظ عائلته من الدنيا منذ الإيكال إليهم بإمامة قريتنا أيام علي بن جعفر حتى الآن.. لا يملك سعدان الإدلاء بكلمة إلا بما يبتغيه الجليل.. فتاوى كانت أم أحكام قضاء.. يدرك أنه مجرد موظف لدى صفي الدين وليس بعالم دين حقيقي كالسلف الصالح.. وماذا في يده؟!.. هل يعصي الجليل فيحرمه من الطعام والكساء ويخرجه من بيته الكبير ملقيًا به إلى كهوف جبل الغريب؟!.. ثم من يقوى في قريتنا على قول أو فعل ما يثير حنق صفي الدين؟!.. فسعدان مثل الجميع.. عشب متكوم حول شجرة باسقة يشرب إذا شربت ويموت إذا ماتت.. ما المطلوب منه أن يفعله؟!.. إنه يرتعب خشية من مصير يماثل مصير راغب بن جبير.. أو يحكم عليه بالجلد جلدتين خمس مرات كل يوم لخمس سنوات مثل قتيبة بن حنين الذي كانت كل جريرته هو المطالبة بمزيد من القمح واللبن لأجل أطفاله بحجة أن نصيبه الذي يحصل عليه مجحف فهو أكثر العاملين في النخل والزيتون جهدًا.. أم يحكم عليه بالرحيل من قريتنا دون ماء أو غذاء هو وعائلته كما فعل مع عبد الرافع بن فارس الذي بالتأكيد قضى نحبه مع زوجته وأطفاله بين فكي الصحراء، ذلك لأنه توسع في بناء بيته دون إذن صفي الدين فهدده الأخير إما بالخروج من القرية أو القتل صلبًا.. اللعنة ما أقسى الجعافرة.. ما رد فعل ابن حزم أو القرطبي أو الشاطبي أو سيد المذهب نفسه مالك بن أنس لو كانوا مكانه؟!.. بالتأكيد سيرضخون دون مقاومة ـ هذا ما تعود سعدان أن يجيب به على نفسه دائمًا ليصالح ضميره..

هاجس شيخنا الأكبر الذي يقض مضجعه هو الإنجاب.. يعيش مترقبًا بهلع لحظة تنحيته عن الإمامة.. عبثًا يحاول توطين نفسه على الرضوخ لتلك الفاجعة المنتظرة بصبر ورضا، فمجرد تفكيره في الخروج من دار الإمامة والكد مع الفلاحين في الزرع وهو في هذا العمر وذاك الجسم من أجل فتات العيش يشق صدره بسيف من نار الحسرة والمهانة.. دائمًا ما يسأل نفسه: إلى من ستؤول الإمامة من عائلات قريتنا؟.. هل إلى حاتم

بن عدي ذاك الأفاق المنحط أم إلى جرير بن هانئ الواشي الخبيث الذي لا يعرف كنهه إلا الجليل وأنا وصفوان أم حامد بن عبد الصمد الذي لعق قدم صفي الدين في مرة بدونية مقززة بحجة مص الدم الملوث من قدم الجليل عقب وخزه بشوكة صبار؟ كل أولئك هم أحقر من بول كلب.. لكنهم يحومون حول الجليل كي ينالوا الإمامة منه وفُنائقُها بعدما تيقنوا من انقطاع نسله..

ـ آه يا صفية لو تعلمين ما بي أو أعلم ما بك.. يارب لك الحمد على قضائك خيره وشره..

كان فتى متناسق الجسم بهي الطلة حينما تزوج بامرأته صفية، أمضى معها أيامًا لا تنسى من السعادة والابتهاج.. ظلا يدعيان انشغالها بالحب المنفلت وشبابهما اليانع ويتجاهلان تساؤلات الآخرين عن تأخر إنجابهما.. لكنه شيئًا فشيئًا تصدعت هالة الفرح الزائفة التي أحاطا نفسيهما بها ليواجها واقعهما التعس.. ولما كانت المرأة في قريتنا هي وحدها الملامة عن الإنجاب، فإن أهل سعدان وبالأخص أمه زبيدة نكلوا بصفية سبابًا ومعايرة وبصقًا على وجهها لعدم قدرتها على جلب الوريث.. فكرهت المرأة حياتها ونفرت من زوجها المستكين الذي يراها تهان ولا يدافع عنها مكتفيًا بصموده أمام أهله بعدم تطليقها أو الارتباط بغيرها.. وحتى ذلك كذب محض.. فسعدان أضعف من جناح بعوضة أمام أمه التي زوجته سرًا من فلاحة تدعى نائلة مات أبواها من صاعقة أصابت بيتهم فحرقتهما في أحد الأشتية السابقة، فلم تحمل منه نطفته لعام ونصف العام.. ففطنت زبيدة بأن العقم في ابنها، لذا دست سم أفعى لنائلة كي يموت معها السر ولا ينكشف أمر ولدها دون رجفة ضمير، وروجت الأكاذيب بين أهالي القرية بأن ابنها لولا ولعه ببنت الحطاب وإخلاصه المفرط لها لكان له بدلًا من الولد ثلاثة أو أربعة.. وراح ابنها يمثل دور الضحية العاشق الشهم أمام رجال القرية لئلا يعيِّره أحد برجولته، مدعيًا الصبر لقضاء الله والرضا بحكمه وحبه لصفية.. كان يعلم أن ذاك التمثيل الوقح والزيف الفج يمزق قلب امرأته المخدوعة

والتي يحبها بحق، لكنه فضل الانتصار لذكوريته فقط دون أية حسابات أخرى..

انقضت أعوامٌ عديدة وسعدان طريد كوابيسه وظنونه.. حتى بعدما يفرغ من طرح الأسئلة على نفسه حول مصير إمامته، يتساءل في تعجب وقلق عن سر صمت زوجته الدائم وتبدل حالها؟!.. هل علمت بزواجه من نائلة؟ لكن من أين لها أن تعرف فالأمر كان في خفاء محكم؟!.. أم أنها فطنت إلى عقمه وخداعه لها وتنتقم منه باجتنابه؟!.. هل تلبستها روح نائلة لتجتمعا ضحيتيه في جسد واحد ويذكراه بظلمه لهما؟!.. نعم ولمَ لا؟!، وهي ترتدي دائمًا ذاك الرداء الأسود الكئيب جاحظة بعينيها المخيفتين هاملة لأنوثتها عازفة عن الدنيا وملذاتها عازلة نفسها معظم يومها عن الجميع..

* * *

خب المسير من أذرع الجبل المرخاة تجاه قريتنا.. متعجلًا، متأنقًا.. هكذا هي عادته المألوفة لدينا.. هو من البدو، لكنه في نظر الجليل ليس من طينتهم القبيحة الوضرة.. وكيف يكون وهو أوسم رجالنا وأبهاهم طلة وأكثرهم بشاشة، وحظوة لدى صفي الدين؟!.. ينحدر بكر مثل أهله البدو من نسل كوثر وصلاح، أما جذور حكايتهم وسكنهم للبادية بعيدًا عن قريتنا في طرف خفي مهمل يعود إلى عهد الجليل مالك بن خالد بن علي بن جعفر.. بدأت مأساتهم بادعاء أحد أحفاد كوثر وصلاح يسمى ربيعة أن جدهم قد أتاه في المنام ثلاثًا، وفي كل مرة يشاهد كيف انتزع جعفر روح جدهم عن جذعه وغدر به، وهو واقف عاجز لا يستطيع درء الموت عنه كأنما بنى القدر حاجزًا زجاجيًا حال بينهما، فقال له صلاح وهو يحتضر بصوت متحشرج: «أترى يا ربيعة كيف خانني جعفر وفتك بي؟!».. وربيعة يضغو مستغيثًا لنجدة جده المغموس في دمه لكن لا مجيب أو معين، وفجأة أمسك صلاح بتلابيب ربيعة كأنما اخترق السد الزجاجي

المنيع وأمره حازمًا: «اثأر لي يا ربيعة وأرو الأرض بدماء الخونة»، فسأله ربيعة بارتباك عن الوسيلة، أجابه بجملة ظَل يرددها بهوس: «يتِّم أطفاله كما يتموا أطفالي.. يتِّم أطفاله كما يتموا أطفالي».. هنالك أذاع ربيعة بين أهله أن ولاية أبناء جعفر على قريتنا باطلة لأنها جاءت بالخيانة وسفك الدماء دون وجه حق وأن الرؤية إذا تكررت ثلاثًا فهي رسالة من السماء لأهل الأرض واجبة التنفيذ.. فالتف بنو صلاح حول ربيعة وتعلقوا بحلمه المؤكد لشكوكهم المغذاة من لدن جدتهم كوثر حتى الآن، فهي الوحيدة التي لم تهضم كذبة جعفر عن مقتل زوجها حتى ماتت..

تعاهد بنو صلاح فيما بينهم وقد كانوا أكثرية على القصاص لجدهم من حفيد جعفر الجليل مالك، وأن تُوكل الإمارة لربيعة الموحى إليه برسالة جدهم، وتوسد مهمة البحث عن سبيل للبشر إلى ثلاثة منهم أشداء مستعدين للتضحية فداءً لحياة أهليهم.. وحينما عقدوا العزم على مهاجمة قصر الجليل في ليل بهيم حوصروا من بني حسن المتربصين لهم!، المسلحين بالعصي والمعاول، وعمل مالك فيهم قتلًا بسيفه ورمحه حتى أحبط عزمهم، فألقى القبض على ربيعة، وسلخ جلده عن لحمه حتى مات بصراخه وكابوسه، ونفى كل من كان من بني صلاح في تلك الواقعة إلى خارج القرية بعدما نزع عنهم فرسهم ودوابهم ومنع عنهم القوت تأديبًا إلا نفر قليل عاشوا في القرية معززين مكرمين وهم من لم يشتركوا في المؤامرة ووشوا عن إخوتهم للجليل، ولولا مباغتة الموت لمالك وتولي سعيد ابنه لتفنن في الفتك ببني صلاح حتى آخر نفس منهم.. كان سعيد حليمًا عاقلًا ورحيمًا عن أبيه فأعاد إليهم دوابهم وصرف لهم أقواتهم لكنه لم يسمح لهم بالعودة مرة أخرى تجنبًا لغدرهم.. وأطلق عليهم لقب البدو.. ومن وقتها صاروا كالذئاب في عوائهم النادم، ونظراتهم الشرسة، ومكرهم الشرير..

كان بكر استثناءً في تاريخ البدو مع الجعافرة.. هو الوحيد الذي حظي بثقة الجليل ليوليه مهمة الراعي.. والراعي في قريتنا هو الشخص المنوط

به توزيع الطعام والثياب على أهل القرية مقابل عملهم في الزيتون والنخل أو في الأشغال الأخرى الموكلة لأشخاص بعينهم كالحدادة والتطبيب والنجارة والبناء ورعاية الدواب والأنعام.. يقدر مجهود كل فرد على حدة ويحسب احتياجات أهله من الغذاء والكساء ويصرفها له.. يعلم متى يعاقب بالقوت ويجزي به.. إذا كره أحدنا، أهلكه دون خشية وإذا أحبه أغدق عليه دون حسيب، فالجليل لا يشغل باله بتوسلاتنا وتسولنا ويترك تلك المهمة لبكر البدوي، وأهالي القرية كلٌ مهموم على بطنه وبطون عياله ولا يعنيه أمر الآخر..

لا يعشق بكر شيئًا قدر النساء، على الرغم من عدم زواجه حتى بلوغه الثلاثين من عمره!.. ويشاع عن نساء البدو أن العذراء الوحيدة فيهم هي الجدة خولة التي منعها قبحها من الزواج بأي أحد، فبكر لا تعتق عيناه ونفسه الشهوانية امرأة إلا ونالها كما يتباهى أمام أعوانه في فناء رجب السمّار وهو يحتسي عرق البلح ويبحر في سكره.. ولولا خشيته من غضب الجليل لاغتنم من نساء القرية ما عنَّ له.. فنساء القرية لهم العزة والطهارة ونساء البدو أعظمهن شأنًا لا تساوي جناح بعوضة، وشرفهن مستباح..

في نظر البدو يبدو بكر أوفرهم حظًا لمكانته العالية عند الجليل.. وفي نظر أهالي القرية هو مقسم الأرزاق الذي يمنح ويمنع.. أما الشباب فهو قدوتهم في التأنق والذكاء الذي يتمنون نيل حياة مثل حياته.. لكنهم لو علموا بحاله، لأشفقوا عليه مما يعتمل بداخله!.. هو المبتلى بحب النساء تتمزق روحه لنيل امرأة عصية المنال، وصالها محال، وحبها وبال ما بعده وبال.. إنها رغد زوجة جليله صفي الدين.. أجمل نساء القرية بل العالمين في عينيه حتى لو اطلع عليهن كلهن.. تتلوى شهوته العاتية في صدره وتطعن صبره كل لحظة ألف طعنة وتخبطه الخيالات عنها.. لا يعلم لها سبيلًا، ولو علم لصار ما جرى لربيعة هينًا نسبة إلى ما سيحيق به.. هي العشق الممنوع والجنة المحرمة.. سلواه في لياليه معاقرة

الشراب ليلهيه عن وجع قلبه.. لكن هيهات لرغبة متقدة أن تخمد إلا إذا نال مراده وضاجعها، يتمتع جسده الجسيم بجسدها الناعم المرسوم بإتقان.. هو لا يريد الزواج.. لكنه يتمناها كل ليلة بجواره نائمة على كتفه وتداعب خصلاتها وجهه بعدما يأخذ حصته منها كل يوم.. فيتندر على حاله متوجعًا:

ـ أوزع حصص الحياة على الناس وتأبى عليّ حصتي من الحياة!

- 10 -

الصعلوك

قيامة الجسد.. ذاك ما تلذذ به الصعلوك وهو جالس في الطست النحاسي الضخم يغسل أدرانه.. لأول مرة في حياته يكتشف لون جلده، أبيض البشرة مثل أمه.. شعره أسود ناعم كفرو الذئاب، وعظامه بارزة كأنها كل جسده.. رائحة الطيب تضوع حوله وتنبعث من الماء الدافئ كسر مجهول النسب، مثله تمامًا.. البخار حوله يتصاعد ثقيلًا خاملًا كأنه صادر من مبخرة مشعوذ.. هنالك أغمض عينيه واعتصر عقله ليتدبر قصة محكمة يخبرها لمن تلقفوه قبل ملاك الموت.. يجب أن تكون بسيطة ومحكمة.. لا داعي أن يقص عليهم حكايته الحقيقية لئلا يعلموا سر أمه وتصبح حياته في أرض البشر جحيمية مثل حياته السابقة التي فر منها.. ولكن أين المماليك؟!.. وهل سيعثرون عليه ويميزون أصله فينكلوا به؟!..

ارتدى ثوبًا نظيفًا زاهيًا بدا كبيرًا بعض الشيء على جسمه الضئيل لكنه فرح به.. فلأول مرة في حياته يرتدي ثوبًا بتلك النظافة.. شاهد نفسه في المرآة ولمح علائم الأبهة لامعة عليه وكأنه الجليل صفي الدين بل أكثر وسامة منه لعينيه الزرقاوين الواسعتين كبحر مالقة..

خرج من الخيمة متوجسًا مما سيراه خارجها.. الآن هو يخطو أولى

خطواته في عالم البشر المحرم.. آماق بصره تنداح حوله فلا يرى غير خيم بالية تشبه خيم البدو في قريته.. إلا أن الجميع مشغولون بألاعيب يتدربون عليها.. رمي الخناجر معصوبي الأعين، القفز من حلقات النار، والرقص كالمجاذيب حول امرأة شهية جمالها يغوي الورع والفاسد على حد سواء..

راح يرد السلام على المهنئين بشفائه ويتحاشى نظرات المستريبين حتى رأى قطر الندى قادمة تبش بوجهها نحوه..

ـ أها كما توقعت.. ثياب عنتر تناسب مقاسك.. فهو يمتلك جسدًا نحيفًا مثلك إلا أن الفارق بينكما أن عضلاته هي البارزة وأنت عظامك هي البارزة.. ها ها ها

ابتسم الصعلوك مجاملة لدعابتها وشكرها على رعايتها له.. فأردفت وهي تمسك بذراعه قائلة:

ـ هلم بنا إلى الخيمة.. يجب أن تأكل وتتغذى جيدًا.. وبعدها تقص عليّ حكايتك..

دخلت عليه بصينية من طعام لم يحلم بتذوقه مرة في حياته.. الدجاج المحمر والأرز الأبيض والحساء الذهبي.. وأصناف متنوعة من الفاكهة يجهل أسماءها.. ثم جلست أمامه على الأرض مشمرة عن جلبابها حتى ركبتيها فرأى ساقيها البيضاوين يبرقان في نقاء ورواء.. أحس بذكورته تستيقظ من سباتها العميق وعينيه اللتين ألصقهما بالجزء الواضح من فخذيها الممتلئتين.. فقاطعت إعجابه المفرط بأنوثتها وهو شيء اعتادت عليه، قائلة في غنج:

ـ هيا مد يدك حتى يصبح خبزًا وملحًا..

فرد مرتبكًا:

ـ لكن الطعام على الصينية ليس به خبز أو ملح!

ـ ها ها ها.. إنه مثلٌ نقوله كي نؤكد على ارتباطنا الوثيق.. وعدم استطاعة أحدنا خيانة الآخر فقد تقاسمنا نفس الطعام والشراب والجلسة الحلوة..

ـ فهمت.. حسنًا سيدتي..

ـ لكن أخبرني ما اسمك؟ ومن أي بلدة أنت؟ ولماذا تتحدث كالفقهاء؟ أأنت واحدٌ منهم؟!

استحضر في سرعة البرق الإجابات التي حضرها في رأسه لكن سؤال الفقهاء هذا باغته.. فرد متلعثمًا:

ـ اسمي أحمد بن زهير الحداد.. بلدتي تقع في أقصى الجنوب.. وأنا لا أعرف من هم الفقهاء لكن في بلدتي نتحدث هكذا..

ـ من أي بلد في الجنوب فقد جبناه كله ولم نرَ أو نسمع أحدًا يتحدث بلغة عربية فصحى مثلك.. لعلك من أحد تلك النجوع التي يتدارس سكانها القرآن ليل نهار ويعتقدون أنهم حملة لواء الدين..

ـ نعم سيدتي.. أنا من تلك النجوع..

ـ حسنًا لن أسألك عن اسمها لأنها جميعًا يشبه بعضها بعضًا، فقر مدقع، وكآبة موحشة.. لكن شكلك وقسمات وجهك تدل على أنك من الفلاحين.. فأهل الصعيد لا يوجد بينهم من هو أبيض مثلك ويمتلك تلك العيناوين الزرقاوين.. بالإضافة إلى أنهم رجال أشداء أصحاب غلظة!

ـ قد ورثت عيناي من أمي يا سيدتي..

ـ أها.. إذن أمك من الفلاحين.. لكن قل لي ما الذي رمى بك في الصحراء بين الحياة والموت هكذا؟!

حاول ضبط ملامح وجهه وتعبيراتها ونبرة صوته كي يخبرها بقصته الوهمية التي أعدها كي ينهي تلك المرحلة بسلام.. قائلًا:

ـ تخاصمت مع أخي ونحن نُسَيِّر الخراف والنعاج والسخول إلى حي الحسين كي نبيعها هناك.. فغادرت أهلي مغاضبًا لأنهم انتصروا لأخي.. وسحبتني أقدامي إلى أعماق التيه لأيام، وهأنذا..

أطالت قطر الندى النظر إلى عيني الصعلوك كأنما تبحث بعينيها المتفرستين عن مواطن الصدق والكذب في حكايته.. لكن هناك شيئًا ما في مشاعرها يدغدغها كلما نظرت إلى وجهه الجميل.. فانتبهت من صمتها الممتد قائلة بصوت عالٍ آسف:

ـ اللعنة على الشيطان وساعة حضوره.. لا تقلق يا سي أحمد.. في طنطا تستطيع ركوب القطار من هناك واللحاق بأهلك في الحسين في ساعة زمن..

ـ لكني لا أريد مقابلتهم.. فأنا مازلت غاضبًا منهم..

في تلك اللحظة دخل زوجها بشرى الخيمة يترنح في سكره المهين فاستقبلته بالسباب والوجه الغاضب قائلة:

ـ ها قاد عاد البغل أخيرًا..

ـ صه يا امرأة قبح الله وجهك العكر..

اغتاظت قطر الندى حينما حدثها بشرى بتلك الطريقة أمام الصعلوك فاندفعت نحوه حاملة نعلها هائجة زاعقة:

ـ يا ابن الكلب.. وجهي قبيح أم شكلك الذي يطفش الجربوع من رؤيته يا عفن يا قذر يا عديم الرجولة؟!.. نعم، فكل ما تفعله هو معاقرة الخمر لتنسيك فشلك في إرضاء زوجتك يا مخنث..

هرب بشرى من أمام زوجته الفائرة وخرج يعدو خارج الخيمة تحت ضحكات السامعين لكلامها.. ثم توقف على مسافة بعيدة وبصق تجاه خيمتها بعزم قوته قائلًا:

ـ لولا أن نبتك حرام ولسانك مثل باطنك نجس، لوهبك الله الخلف

الصالح.. كيف تريدين مني مضاجعتك أيتها الثعبان التي استبدلت دماءها بالسم.. لعنة الله عليك إلى يوم الدين..

راحت قطر الندى تستجمع أنوثتها التي بعثرتها بغضبها المخيف وتشد عضلات وجهها بابتسامة تجاه الضيف قائلة في مرح:

ـ دعنا نكمل طعامنا يا سي أحمد، ولا تدع ذاك البغل يفسد شهيتنا كما أفسد حياتي كلها بجشعه وإدمانه للخمر وغبائه منقطع النظير وعدم قدرته على الإنجاب..

كانت قطر الندى أول امرأة تعامل الصعلوك بود واحترام.. شعر بقلبه ينجرف إلى بحر هواها لكنه انتشله بحزم مسرعًا بحجة أنها متزوجة ولا يجوز التعدي على حرمة رجل أنقذه من الموت.. هو الوفاء إذًا لأول معروف يلقاه في حياته..

* * *

لم يصمد الصعلوك أمام غواية قطر الندى.. فجسدها يشي بأنوثة طاغية، وطريقة حديثها الناعمة تغري أي رجل وتسلبه عقله.. حركات جذعها مدروسة وساحرة، ونظراتها تبوح بمكنون يسيل له اللعاب.. استطاب له الحديث معها ووجدها تميل ناحية الأنس به.. لا يعلم تحديدًا كيف يرى قطر الندى.. هل يرى فيها الأم التي حرم منها أم الرفيق الذي يأنس به أم الحب المقدر؟ لم يجهد نفسه في تصنيف شعوره تجاهها.. كل ما يعلمه أنه يسعد في حضورها ويستمتع بكلامها وتثيره حركاتها وغنجها المفرط..

علمته قراءة البخت بالرغم من أنه من الأسرار المقدسة لدى الغجر التي لا يجب البوح به لغريب مثله.. عرفته على عشيرتها، وحكت له قصتها وقصة كل فرد من أهلها، كيف تزوجت بشرى دون حب بعد موت أبويها وهي صغيرة لتجد مأوى لها وعائلًا يعولها، وكيف ذابت حتى ذبلت في حياة الغجر، ثم متى بدأت تثور على هوانها وتعاستها وتمتطي

صهوة البهجة والحرية دون الاكتراث لزوجها العجوز الذي لم يفلح في إسعادها.. لم يتدخل زوجها ليبتر نبت العلاقة الخاصة التي تجمعهما، فكما تبين للصعلوك أن الغجر يشبهون بدو قريته.. مجموعة من الزناة مجهولي النسب مدنسين تختلط لحومهم بعضها في بعض لكنهم يلوذ بعضهم ببعض للاستمتاع والترفع عن احتقار الآخرين لهم، يندمجون وينصهرون في غاية منشودة هي الفرح ونبذ الحزن، وينأون بأنفسهم عن حياة البشر المملة الكئيبة التي تكبلها قيود الدين والتقاليد..

ـ لكن ألست مثلهم أو أحقر شأنًا؟!.. هم عرفوا كيف يتغلبون على مشكلة النسب واندمجوا في عالم ساحر عزلوه عن ألسنة البشر التي لا ترحم.. الفضيلة والشرف شيء واهم ابتكره البشر ليتفضلوا فيه بعضهم على بعض أو ليعزلوا الأجناس بعضها عن بعض.. السعادة هي الفضيلة الوحيدة التي يجب أن تكون مسعانا وقدس الأقداس.. الغجر تعلموا السعادة واحترفوها حتى لو لم يعترف الآخرون بها، فهم يشعرون بها ويمارسونها.. انطلاقهم في الحياة يشبه عدو الذئاب.. ورقصهم الصاخب المرح كأنه تجمع لذئاب تعوي في جماعة فوق جبل تحت ضوء القمر المثير.. يقتنصون السعادة كلما أتيحت لهم ويتمرغون فيها مثل الذئاب حينما تمزق فريستها بلذة ونشوة.. إنهم ذئاب.. أنا غجري!

أسرت حياة الغجر هوى الصعلوك وراح يتعلم فنون المهنة منهم.. ارتدى ثيابهم وصار يرقص مثلهم.. تعرف ثغره على الضحك المستمر والسباب دومًا.. وشارك معهم في تدريباتهم مؤديًا لا مشاهدًا.. جذبته حياتهم الحرة ليقع في هوى أكثر عمقًا وإغـواءًا.. هوى قطر الندى، راح تعلقه بها ينحاز إلى طريق العشق.. تبرق عيناه حين رؤيتها ويتحين الفرص لمشاهدة أي جزء من جسدها المثير.. جبن من لمسها أو البوح لها عن حبه على الرغم من دعوتها الخفية لاقتحامها وقتما يريد.. بدت له كالسر الذي لا حل للغزه.. لكن غواياتها سلبته من أمان الجبن إلى لذة المخاطرة حينما رآها في إحدى المرات تسرح شعرها المبتل التي تتجاوز

ذؤاباته مؤخرتها الطرية الممتلئة وجلبابها الفاضح لمعالم جسدها.. اندفع وألصق جسده بظهرها وانهمر تقبيلًا على عنقها وكتفها.. لم تصده كما تحسَّب منها، لكنها استدارت ناحيته وألصقت شفتيها في فمه وانهمرت عليه تقبيلًا كأنما أوجعها طول صبرها على إقدامه..

ـ أخيرًا نطقت يا فقي..

قالتها بوله ومرح.. لكنه لم يعبأ إلا بثدييها الكاعبين اللذين التقمهما بشره كوليد أمضه الجوع.. وراح ينزع ثيابها على عجل ويمزق ما يؤخره عن الولوج لجسدها الكامل.. كانت شهوته ناقصة المتعة فصورة أمه العاهرة وبشرى زوجها ظلت تومض في رأسه كلما نال منها.. لا يعلم إن كان ضميره الذي يؤنبه أم رأى في قطر الندى عاهرة مثل أمه..

ـ لكنها ليست كأمي.. هي تحبني وتروم جسدي مثلما أروم جسدها.. هي امرأة طيبة وأمي هي الشر كله.. ما بال هذا الوسواس ينخر في رأسي؟!.. ألم أصبح غجريًا مثلهم عبادتي هي السعادة وفضيلتي المتعة؟!.. كيف أخون الرجل الذي أنقذ حياتي؟!.. اللعنة على الأخلاق كلها.. ذاك الزيف الذي بلي به البشر.. أنا عاشق لتلك المرأة وهي كذلك.. فلنعش ما نستحقه سويًا بلا ذنب يلاحقنا.. أنا لم أؤذِ بشرى بل أشاركه المتعة فقط..

أخرجه من صراع نفسه صوت قطر الندى وهي تتأوه من سائله الساخن المنطلق ناحية أحشائها.. كأنها تمتصه بجسده لداخلها، وتمنى لو تفعل!.. قام من فوقها بعدما فرغ، وظل يرقب تنهداتها الولهانة..

ـ ما أروعك يا أحمد.. لا شيء يماثل التمتع بشهوة رجل هي مرته الأولى التي يضاجع فيها امرأة..

تعجب من فراستها.. ونال الانبهار من وجهه سائلًا:

ـ وكيف عرفت يا حبيبتي؟!

ـ أنا قارئة البخت أم نسيت؟!.. أعرف الغيب وما تحجبه الأنفس.. ها ها ها..

غاص الصعلوك في مستنقع الرذيلة مع قطر الندى التي أفعمت قلبه بالنشوة المرجوة.. سبرت أغواره وقبرت كل البؤس داخلها.. حررته من قيود الغم وأطلقت عنانه ليعزف على أوتار حياته أنشودته الاولى.. أعادت ترتيب بناءه كيفما أرادت وكشفت له عن حجاب الجنة التي تمناها طوال أيام شقائه.. عرفته لذة الجنس وقوة الغواية اللتين وقعتا فيهما أمه من قبل.. فقط في شهر!

- 11 -

الجليل

لم يعتد الشيخ سعدان طوال حياته على أن يُطرق بابه في صباح يوم الجمعة وكذلك أي شخص آخر في القرية.. فالكل مشغول بما سيعدونه على الغداء وما سيلقونه من مرح في رحاب رجب السمّار أما هو فمشغول في أمنية هلاك كل الصبية المشاكسين في قريته قبل خروجه من البيت إلى المسجد، وابتكار كلمات ثناء جديدة جيدة يتملق بها الجليل على المنبر.. لذا ضج ذهنه بهوية الطارق.. وما إن فتح الباب، حتى هوى على ركبتيه مقبلًا يد الطارق، هاتفًا في جزل:

ـ مرحى بمولانا صفي الدين.. أي شرف اختصتني به لتبارك قدماك منزلي المتواضع وصاحبه الخاضع لسلطانك.. والله إن هذا لهو أجَّل صباح فتحت عليه عيني..

كانت قسمات الجليل صفي الدين بادية الحياد.. لا غاضبة أو مسرورة.. فرحة أو محزونة.. وجهه يزخ غموضًا وأنفاسه تزفر ريبة.. سحب يده برفق من تحت شفاه الشيخ سعدان ومضى إلى داخل الدار بتؤدة، فقفز الأخير من ركوعه المهين ولحق بمولاه يبالغ الابتسام والتومق حتى قطع الجليل ذاك الإسهال المقزز برفع كف يده مشيرًا له بالتوقف ثم بدأ بالتحدث له دون النظر إليه قائلًا في حزم:

ـ أمامك شهر يا شيخ سعدان حتى تحبل زوجتك بوريث للإمامة والقضاء.. فإن لم تفعل عزلتك ووليت حامد بن عبد الصمد مكانك.. فأنت تعلم أن منصبك هو أخطر وأهم منصب في قريتنا ولا يجوز لي الاكتفاء بمشاهدتك تكبر وتهرم دون وريث يكمل المسير بعدك.. لقد انتظرتك سنين طوال رأفة لحالك وعرفانًا بإخلاصك وإخلاص أجدادك لكن دون جدوى، وعاد صبري يؤذي مستقبل قريتنا.. لا تقلق فإن لم تحمل امرأتك بالوريث في شهر، يمكنك الزواج بأخرى ولا تجعل حبك لامرأتك يعميك عن صالحك وصالح قريتنا، وإن لم تحبل الأخرى في شهر هي أيضًا، فالعيب فيك، لذا لا يصلح استمرارك كإمام للقرية.. أدعوك أن تجِدّ في مسعاك فأنا جاد فيما عزمت..

لف عباءته حول جسده بخفة بعدما أنهى كلامه، ملقيًا بأنفاطه فوق رأس سعدان ثم مضى خارج المنزل وترك الأخير مذهولًا مبتور الأمل تتكالب عليه أسوأ كوابيسه دون شفقة.. كانت الكلمات تزدحم في حلقه أمام فمه المشلول عن النطق، وتضطرم المشاعر في دواخله.. تمنى لو استطاع استيقاف الجليل ليسأله عن مصيره، كيف سيهون عليه إلقاؤه إلى أسفل سافلين بعدما عاش جل حياته في أعلى عليين وهو الذي لم يقصر لحظة في طاعته وأفنى حياته في خدمته وأعمل عقله في نسج الحكايات عن بطولاته الزائفة وتضليل العباد، وأشغل لسانه بالدعاء له لاعنًا أعداءه؟!.. ياالله ما أقسى الجليل! وما أحقر الدنيا!.. سيتداعى عليه الشامتون ولن يرحمه كبير أو صغير.. فأهل القرية كلهم أشرار حقودون.. سيبالغون في إذلاله إذا عمل في الزرع والفلاحة وسيشقون عليه ما لا طاقة له به.. وسيحوط به الصبية الأراذل ليل نهار للسخرية منه..

رأى حوائط فنائه الواسع تطبق عليه مثل مخاوفه الثقيلة وحمله الموجع فهوى على الأريكة يستجدي الرحمة من مستقبل مفزع ومصير أسود ظل طيلة حياته يناهض التفكير فيه وانتظار وصوله المشؤوم.. ود لو يصرخ أو يبكي أو يوقظ زوجته ليصرح لها بمصيبته لكنه مشلول النفس،

مقيد الذهن، واهن الجسد.. أطلت الدموع بمرارتها من مقلتيه وانسابت على وجهه المنعم حتى استقرت على صدره الممتلئ ظاهره بالخيرات وباطنه بالحسرات..

* *

مضى مختالًا بين الأزقة غير عابئ بما يقال عنه.. فكل ما يلفظه الناس عنه يدور في فلك الكراهية والخوف.. لذا هو يحثهم على الاستزادة.. فنصف القوة سمعة، وجل الهيبة رهبة.. أحيانًا تدفعه فطرته المشوهة إلى ركل عابر على مؤخرته أو صفع عجوز على قفاه أو تعليق طفل على باب منزل ملحقًا ذلك بضحكاته المخبولة.. هو لا يكترث بأحد، فالكل خلق ليلهو به، وشكواهم للجليل لا تلقى صداها، فهو يعجبه عمله ويجازيه جيدًا على ترويع أهل القرية..

من ينقذه؟!.. تلك ضالته التي يبحث عنها ولو كلفته حياته.. لقد مل التظاهر باللامبالاة والتسلي بالبطش بالآخرين.. مُكره على الاستمرار في الحياة بتلك الطريقة.. هو يؤمن بأنه لا فرصة لديه ولا أمل للعودة إلى ذاك الطفل الوديع الذي تحممه أخته لاهية معه.. آه يا أخته، يا سر بقائه على قيد الحياة وسر شقائه!

هل تعود صفوان على مآسي زيجاته؟!.. هل حقًا ألف موتهم قتلى على مشانق خبله؟!.. هل سيستمر بالزواج من أخرى وأخرى حتى تفنى نساء القرية جميعًا ولا تبقى غير أخته فينالها؟!.. هل سيستطيع الصمود هذه المرة ويتجاهل نظرات أهل القرية المزدرية لشؤمه؟!

ـ يالله أمتني تحت أقدامها لاعقًا مقبلًا.. يالله عجل بساعة لقاء هواي.. يالله قلبي بين يديك وليس بين يدي، فأرحه من عذابه وناوله مراده.. ويلي من حب حرام.. أواه أواه.. ويلي من حبي الآثم، وقلبي الدامي، ووقاحة ابتهالاتي.. أدعو الله بأن يهبني أختي!؛ لكن ما الحيلة إذا كنت لا أهوى غيرها؟!

يمسح دموع وجده بكم ثوبه.. ويحاول ضبط ملامحه الصخرية قبل لقائه بالجليل صفي الدين.. إنه اجتماع دوري يعقده معه الجليل كل فترة ليخبره عن عزمه على بعض القرارت فيحرص صفوان على تنفيذها والعاقبة على من عصى، أو ليذكره بقدرته عليه بسلاحه الفتاك «المسدس» أو ليأمره بالكف عن البطش فترة معينة حتى يأذن له بالعودة.. إنه اجتماع الشر المعتاد بين قطبي الهلاك في قريتنا..

أكثر ما يقلقه أن يغيب وعيه للحظات أمام الجليل بسبب إفراطه في شرب عرق البلح.. فالجليل لا يحب إلقاء الأمر مرتين.. هو يكره الأغبياء ولا يتورع عن قتلهم إذا أزعجوه.. اللعنة.. كل حياة في قريتنا قابلة للزهق في لحظات دون رجفة ضمير أو لحظة تفكير.. أليس الجحيم أعدل من ذلك؟!

في بهو القصر رأى الجليل جالسًا على كرسيه صامتًا جامدًا كعادته.. فحياه بخضوع مصطنع وجلس أمامه منتظرًا أوامره التي دعاه ليلقيها عليه.. فبادره الجليل بهدوء قائلًا:

ـ حزنت لوفاة زوجتك.. لكن هكذا الدنيا.. كلنا عابرو سبيل إلى ضفاف الآخرة..

ـ نعم يا مولاي.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

ـ لكنها زيجتك الثالثة وتنتهي بنفس النهاية الشؤم.. عجيب أمر حظك يا صفوان!

ـ نعم هو قدر الله الذي جبلنا على التسليم له..

تفتح فم الجليل على ابتسامة هازئة قائلًا:

ـ قدر الله يفسره كل واحد حسب هواه.. أما تفسيري أنهن قد قتلن على يديك..

ـ لا ورب الجعافرة يا مولاي.. هن يلقين حتفهن دون أن أمسهن بسوء..

ـ تستطيع الكذب على أي أحد يا ثور أما أنا فعلمي بنزقك وخبلك أكثر

مما تعلمه أنت عن نفسك، وإياك القسم باسم عائلتي كذبًا مرة أخرى.. وعمومًا، فلتكف عن الزواج وهذا قرار لا رجعة لي فيه.. وإن أردت إفراغ شهوتك، فباب فرح لا يغلق أو بيوت نساء البدو..

ـ أمرك يا مولاي..

نهض الجليل من جلسته وأدار ناظريه عنه تجاه الشرفة الأرضية المفتوحة على مشاهد قطف الزيتون.. ثم استكمل حديثه قائلًا:

ـ قد أمهلت الشيخ سعدان شهرًا على حمل زوجته.. فإذا مر الشهر دون ذلك، فاحرص على عزله كما يليق به وإخراجه من منزله ليسكنها حامد بن عبد الصمد، ولا تعتدِ عليه إلا إذا تخلى عنه عقله وقاومك..

ـ أمرك يا مولاي..

ـ قد قارب موعد ارتحالي إلى أرض البشر، فاحرص على القرية كما عهدتك مخلصًا أمينًا قويًا..

ـ توكل على الله يا مولاي وليحفظك برعايته..

دار الجليل نصف دورة وكأنما تنبه لشيء ما فقال متذكرًا:

ـ قد علمت أن ابن فرح قد هرب من القرية..

ـ نعم يا مولاي وأنا أيضًا علمت بذلك من حراسنا على حدود قريتنا.. قد أراح واستراح.. هو لا فائدة منه ولا قيمة له.. حتى أمه لا تبكيه ولا أثر فيها فراقه.. فلتفترسه الضواري أو يأسره المماليك وينكلوا به..

ـ لكن إن أسره المماليك فقد يبوح بسر قريتنا..

ـ وهل بمثل وجهه يؤخذ بكلامه؟!.. إنه مخبول الهيئة وقريتنا محفوظة برعاية المولى ورعايتكم يا مولاي..

ـ إذًا فلتقض عليه الصحراء أوتفترسه ضواريها.. ذاك أفضل لنا وله..

ـ نعم يا مولَاي.. نعم..

* * *

كعادتها كل ستة أشهر تراصت الجمال والبغال محملة بخيرات قريتنا.. الزيتون يحمل على الجمال وحدها، أما زيت الزيتون والبلح

فيحملان على البغال.. كعهدها دومًا مشهدها مهيب، كأنها جنود خرجت لملاقاة العدو دفاعًا عن أرواح النسوة والعجائز والأطفال.. أهل القرية يحيطون الموكب، يصفقون خلف أهازيج عم رجب ويتراقص الأطفال كفراشات ضالة.. الشمس مازالت في بداياتها ولونها الذهبي يزحف برفق على زرقة السماء، والطير اليقظ يحوم فوق الرءوس مهللًا مستبشرًا بالرزق القادم.. وحدها الذئاب صامتة فموسم الحياة ليس بموعدها!

فتحت أبواب القصر وظهر فارس القرية الأوحد وحاكمها جليلنا صفي الدين على ظهر فرسه المسماة أصيل كعهد الجعافرة في تسمية أحصنتهم.. مرتديًا ثياب الترحال الشاق من بنطال فضفاض وحذاء مقوس وقميص من القماش وعمامته السوداء وعلى كتفيه عباءته السميكة الضخمة لتحميه من برد الصحراء.. عدا مسرعًا أمام الأعين حتى سحب لجام فرسه أصيل فجأة أمام الحشد والجمال والبغال ثم أطلق صفيرًا عاليًا وطويلًا أتاه على إثرها في سرعة البرق كلابه الضخمة القبيحة ـ الشرسة.. يكسوا جسدها العضل القوي وتبرز أنيابها ويشيع بين الآذان نباحها المدوي.. إنها عشرة كلاب مدربة على حراسة الركب وانتظام مساره لئلا يشرد جمل أو بغل..

هبط من على فرسه كقائد عسكري بعدما تراص أمامه في صف واحد أعيان القرية في ضعة وخضوع ليمثلوا أدوار الولاء والطاعة أمام وليهم الجليل.. فكان لكل واحد منهم تكليفه الخاص من الجليل الذي يأمرهم به ويحاسبهم عليه حين عودته.. فبدأ يُسِرُّ كل واحد منهم بحزم قائلًا:

ـ صفوان: اهتم بأمن الناس وحدود قريتنا.. ومن يخرج عن القانون فنكل به واحتجزه حتى أعود.. وإن تأخرت في العودة عن المعتاد فلا تنسَ ما اتفقنا عليه بشأن الشيخ سعدان..

ـ أمرك يا مولاي.. حفظك الله وردك لنا سالمًا غانمًا..

ـ بكر: الزم العدل بين الناس.. وحافظ على مخزوننا حتى آتيك بالمدد..

ـ أمرك يا مولاي.. حفظك الله وردك لنا سالمًا غانمًا..

ـ شيخ سعدان: لن أضيف حرفًا عما قلته لك سابقًا وليفعل الله ما فيه فلاح قريتنا وصلاحها..

لم يقوَ الشيخ سعدان على التذلل كما ينبغي أمام الجليل فقد امتص الحزن كل ما به من ذلة ولم يبق له ما يفيض به تحت أقدام صفي الدين الذي يعلم سلفًا أنه إذا عزم علَى أمر، فلن يحول بينه وبين ذلك سوى الموت.. لذا خرج صوته مبحوحًا وخافتًا:

ـ أمرك يا مولاي.. حفظك الله وردك لنا سالمًا غانمًا..

ـ زهير: ابعث بامرأتك إلى رغد كل يوم كي تسليها وترعى شئونها.. وبالطبع إذا أردت زيارة ابنتك، فباب القصر مفتوح دومًا لك..

ـ أمرك يا مولاي.. حفظك الله وردك لنا سالمًا غانمًا..

ألقى صفي الدين نظرة على شعبه وملكه بعين صارمة.. ثم صاح عاليًا وهو يقفز على فرسه..

ـ الله أكبر..

فردد أهل القرية وراءه النداء ثلاثًا.. ثم انطلق بفرسه تتبعه الجمال والبغال المحملة وحراسها من الكلاب الشرسة.. راح الموكب يذوب في الغبار الهائج وتصهر ملامحه المسافات.. وانصرف الناس إلى بيوتهم بعد الابتهال الضارع الذي ردده الشيخ سعدان أمام أهل القرية بأن يحفظ الله الجليل من قطاع الطرق والمماليك والوحوش الضارية، وبالعودة المظفرة بالغذاء والكساء والدواء الذي يكفيهم مطالب الحياة حتى موعد الحصاد الجديد..

أما سعدان فواجبه أن يتضرع إلى الله بذمة كل ليلة بعد صلاة العشاء

لئلا ينكل به الجليل حين عودته.. فهناك دومًا الجواسيس الذين يسجلون كل همسة تدور خلف وليهم وينقلونها له كي ينالوا الرضا ورغد القرب.. كان أداء الشيخ سعدان في الابتهال جيدًا بالمقارنة مع أدائه في توديع الجليل.. يبدو أن عقله أسعفه بنصيحة مؤداها ألا يزيد الطين بلة وليظل على وفائه للجليل إلى آخر لحظة عله يرحمه من المصير الأسود أو يترفق به..

* * *

ها قد حانت لحظات صفوه التي ينتظرها مرة كل ستة أشهر.. إنه خارج الحدود منزوع الأغلال والقيود.. الحرية التي يحلم بها يتراءى له نعيمها محلقًا بلا أثقال حكم سخيف ولا إرث مجنون.. وحده في الصحراء يسابق ظله ويداعب كلابه.. إنها الأيام المعدودات التي تمكنه من رؤية صورته واضحة جلية.. يستخرج دفائن نفسه ويعيد ترتيب روحه.. يكتشف إنسانيته دون خجل ويفضي إليها بسريرته..

يصرخ، يضحك، يسير عاريًا، يسب، يبكي بحرقة، يدع كلبه يمتطي صدره فيقبله كابن له.. يود لو تستمر متع البراءة إلى الأبد.. حتى يصل مركب خياله إلى ضفة سوداء تقف صورة هند على طرفها.. هنالك فقط يستحيل صفي الدين إلى صنم لين لا يتحرك فيه سوى دمعه المذرف على حب ضائع..

كان يتحرك مع موكبه بتلقائية ومهارة وخفة.. الصحراء صفحة بيضاء مترامية لكنه تعود على قراءتها وحل غموضها.. هذا ما خلق له كآخر الجعافرة، وتدرب عليه على يد أبيه المقبور عمير مذ كان في السادسة عشرة من عمره.. كانت رفقة أبيه مقززة ومسلية.. شاهد خياناته المتعددة لأمه المسكينة وتقلبه من فراش امرأة لأخرى مبذرًا المال على متعه الخاصة ثم العودة إلى القرية محملًا بما لا يسد حاجة الناس شهرين أو ثلاثة.. كانت دومًا حجته أن سعر الزيتون في النازل، أو هجوم قطاع الطرق

عليه وسلبهم لكثير من حمولته، أو مروره على أحد كمائن المماليك واضطراره لدفع رشوة طائلة لهم كي يتركوه.. الكذب هو فضيلة عمير والنساء هن دينه الذي بذل حياته فيه.. لكنه كان خفيف الظل مسليًا وتاجرًا ماهرًا.. يستطيع سلب لب أي امرأة أو أي تاجر بكلامه المعسول وتمثيله المتقن وحيله العديدة..

كثيرًا ما راودت صفي الدين أمنية الفرار بمال الزيتون وبدء حياة جديدة في القاهرة يستأجر فيها شقة فسيحة ويفتح مشروعًا خاصًا له، يعيش وسط البشر، يأنس بهم ويتطور في ركبهم.. يشاهد عروض السينما التي يحب وقتما يريد.. يرقص في الكازينوهات ويشمل في البارات.. يصادق المثقفين والصعاليك والموظفين.. وإذا عنَّ له الالتحاق بحزب سياسي ما، فليلتحق وليشارك في المظاهرات والاغتيالات السياسية.. قد يفتح له الحظ بابًا إلى عالم السينما والمسرح فيصير ممثلاً عظيمًا.. هو ليس بشيء عسير عليه إتقانه.. فحياته كلها تمثيل وقريته وهم في واقع الدنيا..

القاهرة ماكينة الحياة التي لا تعطب ولا تهدأ.. لا مكان للسأم في ضواحيها.. البهجة تحل على الغني والفقير على السواء.. ما الذي يمنعه عن تحقيق حلم الفرار.. تمسكه بإرث أجداده؟!.. اللعنة عليهم جمعاء.. هل هي شهوة الملك وحياة السلاطين؟!.. لكن مملكته أقرب لنجع يحكمه شيخ قبيلة.. هي ليست فرنسا ولا إنجلترا ولا حتى مصر كي يأسف على تركها.. هي شيء قبيح يسكنه الجهل والذل.. لكن في كل التاريخ لم يترك ملك مملكته من أجل حلم تافه مهما كانت مملكته وضيعة..

ـ لا، لن أكون أنا هادم الإرث.. لن أترك ملكي كي أحتفي بشبابي ثم أقضي بقية عمري في الندم.. ماذا إن غامرت وهربت بمال الزيتون إلى أحضان القاهرة ثم خسرته في تجارة أو سلبه أحد اللصوص مني؟!.. هل سأقوى حقًا على الحياة كشخص عادي وقد عشت جل حياتي كملك

يخدمه الآخرون ويسهر على أمنه الرجال الأشداء ويطلب وده الجميع وتشتهي معاشرته النساء؟!.. نعم الحياة في قريتنا مملة لكن ذاك حال الملوك.. فأعباء الحكم كثيرة والمشاكل لا تنتهي.. الحياة ليست كلها رفاهية وتسلية وإن كانت كذلك، لمل الناس وانتحروا.. يجب عليّ أن أشقى في قريتنا ستة أشهر كي أستمتع بأيامي هذه في القاهرة، ولو كانت حياتي كلها لهوًا لظللت طفلًا خيرًا لي.. فقدر الرجال هو الصعاب.. وإن كان سيأتي يومٌ يهدم فيه إرث جدنا جعفر، فلن يكون ذاك اليوم في عهدي.. التاريخ لا يرحم أواخر الملوك فيسمهم بكل عيب ويذمهم ويلعن أيامهم..

كان يقين الجليل صفي الدين بأن سر قريته سيكشف يومًا ما وأن ملكه إلى زوال.. فالبشر لا يكفون عن التقدم والزحف.. والمد العمراني يطال الأرض بقعة وراء أخرى.. والطائرات تجوب السماء بحرية مطلقة.. يتذكر يومًا مرور طائرة فوق قريته وحديث الناس عن ذاك الطائر العجيب الذي حلق فوق سمائهم فما كان منه إلا أن أوصى الشيخ سعدان بإبلاغ الناس بأن ظهور الطيور العملاقة إحدى علامات يوم القيامة وقرب وقوعها لتغير تلك الطيور على الكفار، وتفترسهم كما تفترس النسور الفئران..

قد يكشف السر في عهده أو في عهد وريثه المنتظر أو يكون القدر رحيمًا فيحدث في حياة حفيده.. لكن الأمر لن يطول أكثر من ذلك.. فالعلم يسير بسرعة مجنونة نحو الأمام.. لكن ماذا سيحدث لأهل قريته حينما يُكشف السر؟.. هل سيفتكون بجليلهم لكذبه عليهم هو وآباؤه من قبله أم يتقوقعون خائفين من الخروج إلى عالم البشر الذي يجهلون معالمه؟!.. ياالله ما أخوفني من تلك اللحظة.. اللهم لا تبلغني تلك الساعة أبدًا وأمتني قبلها..

لم يجد الجليل بدًا سوى لفظ تلك الأفكار والأحلام والاستعداد

جيدًا لملاقاة الحاج رمضان البهنسي أكبر تجار الزيتون في مصر والذي تحتل وكالته ومخزنه نصف شارع الشيخ ريحان بالسيدة زينب.. عليه ضبط هيئته ولهجته لئلا يثير الشكوك حوله فلم يتبقَ على القاهرة سوى بضعة سويعات.. لينهي تلك البيعة كما تعود ويقضي بضعة أيام في المرح والتسلية بمشاهدة الأفلام في السينما أو بضع عروض المسرح وشرب البيرة في بارات وسط البلد ومضاجعة إحدى العاهرات السمينات في إحدى دور الدعارة.. ثم يعود إلى مملكته محملًا بمؤونتها، وهمه المكتوم..

جاءه الليل مباغتًا كالطَرقات الغليظة التي دوت في أذنه.. يعلم سلفًا من وراءها لكنه تمنى أن تكذب هواجسه القاتلة.. زحف تجاه باب منزله مستسلمًا لقدره النذل، مستجيبًا لنداء الشقاء.. هي لحظاته الأخيرة إذًا، أراد أن يملي عينيه بما حوله فهو آخر عهده به ولن يراه مرة أخرى.. هاتفته أمنية صبيانية للحظات بحدوث معجزة تحجب المصير المحتوم عنه، لكن زمن المعجزات قد ولى ولن يعود مثل حياته الهانئة مذ تلك اللحظة.. فتح الباب وكان صليله أقل إزعاجًا من صوت الضيف المقيت القادم.. إنه صفوان رسول الهلاك بوجهه الشؤم ونظراته المخيفة ويده الباطشة يقول في صرامة ووعيد:

ـ الليلة تفرغ البيت من حاجياتك وتذهب في الغد لبيت حامد بن عبد الصمد الذي سيسكن مكانك..

ثم أدار ظهره للشيخ سعدان تاركًا إياه مغموسًا في هاوية هوانه وضياعه.. كان الأخير قد استعد نوعًا ما لتلك اللحظة الفارقة في حياته وهيأ نفسه لها.. زوجته مازالت لا تدري عن الامر شيئًا لذا عليه أن يواجه أصعب مخاوفه.. هو يخشى إزعاجها أو جزعها.. مازال حبها ينبض في قلبه فتيًا عفيًا مثل ساعته الاولى التي رآها فيها.. يخاف عليها من ضنك العيش، وشماتة نسوة

القرية الحقيرات.. وحمدًا لله أن أمه قد ماتت إلا وقد صار عذابه مضاعفًا تحت وطأة لسانها السليط وهوسها بالشجار مع الآخرين..

فتح باب غرفتها المعتمة كعادتها، الظلام الذي خاض فيه لا يساوي مثقال ذرة من السواد الحالك داخله.. وجهها مازال مشعًا نضرًا في نظره يضيء الطريق لعينيه.. حبها دائم اليقظة في فؤاده المضطرم بفوادح الخطوب.. تنحنح ليزحزح جبل الصمت الجاثم على مسامعهما قائلًا في هدوء:

ـ تعالي إلى فناء الدار يا صفية.. اجلسي معي يا حبيبتي.. أريد محادثتك في أمر ما..

لم تعلق صفية على طلب زوجها.. وظلت على جلستها كصنم ذابل حزين.. فاندفع سعدان ناحيتها يغفقه الغيظ والغضب صائحًا:

ـ ما بالك يا امرأة؟!.. ألم تسمعي ما قلت؟!.. ألا تملين ذاك الحزن وتلك الجلسة المشئومة في هذه الغرفة الكئيبة؟!.. هيا اخرجي منها فلا مكان لنا في هذا البيت بعد الآن.. نعم، قد حل الخراب الذي ظللنا نخشى حدوثه منذ أمد بعيد.. ها قد حل يا صفية أمر الهلاك..

أجهش في البكاء بحرقة.. وتكوم على الأرض يصارع كل دواخله.. خوفه من المستقبل، وحزنه على حاله، وبكائه المخجل المهين.. لم يستطع التبجح مثل أمه بأن ما أصابه بسببها، كانت الحقيقة أقوى من أن يدنسها بإفك وبهتان، ما تبقى من رجولته يلجمه.. لم يفق من غيبوبته السوداء إلا على يد زوجته تربت على كتفه قائلة في ثقة وغموض:

ـ سينصرنا سيدي ولن يخذلك مثل سيدك!

- 12 -

الصعلوك

هجع الغجر في خيامهم بعدما استعدوا لرحيلهم إلى طنطا.. دوابهم محملة بحاجياتهم وعدتهم، لم يبقوا غير الخيم التي سينامون فيها لليلة ويجمعونها في الصباح قبل المغادرة.. فعلوا كل شيء في مهارة وسرعة.. هكذا هي حياتهم حل وترحال دائم.. أما الصعلوك فظل مستيقظًا يتدبر في حاله مع قطر الندى.. فهي في آخر ثلاثة أيام لا تعامله كما تعود منها؛ نعم كانت مدة التحول قصيرة وغير مفهومة، لكنه لم يحتمل نظراتها تجاهه المحملة بالجفاء وجسدها الفاتر حينما يلمسها وتمنُّعها المنفر عنه.. ما الذي غيرها ناحيته؟!.. فهو لم يضايقها في شيء.. وعلاقتها مع زوجها كما هي متأزمة لا تخلو من شجار وسباب.. ورجالات الغجر على حالهم لم يتقرب إليها أحدهم ليخطفها منه.. الحيرة تقضم عقله الذي يجيبه بمئات الحجج لكنه لا يقتنع!

ركب خلف بشرى في الصباح على بغلته للسفر، تهفو عيناه تجاه هودج قطر الندى على الجمل السائر يساره.. بشرى كعادته يعاقر الخمر من قنينته الصغيرة لكنه اليوم يبدو سعيدًا منتشيًا على غير عادته.. بل راح يشدو أبياتًا من شعر عن الحب ولوعة السهاد وقبح غدر الحبيب وجفائه.. وكأنما يتحدث إلى الصعلوك بلغة لا يفهمها سواهما.. كان غناؤه المزعج

يتخلله حركات وقاحة وابتسامات شماتة.. ثم فجأة طرح سؤالًا عليه في مكر ومرح قائلًا:

ـ أتعلم يا سي أحمد لمَ سميت النساء بالنساء؟!

ـ لا علم لي يا عم بشرى..

ـ لأنهن ينسين المعروف والحب والعشرة في غمضة عين.. إنهن كائنات دميمات الخلق، جميلات الخلقة، وأجسادهن شهية ووعاء لحفظ البشر من الانقراض.. لا غنى لنا عنهن، ولا تستقيم الحياة معهن.. عشقهن مرض لعين لا شفاء منه والبعد عنهن كآبة ووحشة لا خير فيها.. إنهن بلاؤنا الأبدي يا ولدي..

صمت الصعلوك ولم يرد على بشرى، فرسالته لا تحتاج إلى عقل نير ليفهمها ولا جدال عقيم ليستوضحها.. إذًا هن هكذا وهي خائنة ناكرة الجميل بطبعها أو بغريزتها كأنثى..

عاد بشرى إلى الغناء بصوته الأجش الذي حمل بحة حزن مع كلمات الشجن وكذلك الصعلوك إلى صمت المرتبك المصدوم، وخوفه مما سيلاقيه في طنطا.. هل سيقبض عليه المماليك ويعذبونه أم سينجو من بطشهم؟!.. لا داعي للقلق منهم فقد مرت مئات السنين ولن يتذكروا بالتأكيد جدهم جعفر وفعلته.. لكن الاحتياط واجب – هكذا مغروس في نفوس أهل القرية حكايات الجد والخوف من ملاقاة ما لاقاه!

*

بزغت شمس المدينة بقاماتها الشجرية المرتفعة عن سطوح البوار.. الخضار الزاهي ممتد إلى ما شاء الله وطينته السمراء تفوح بعطر الحياة.. الفلاحون يعملون بدأب، والدوابّ سارحة على صفي ركب الغجر، وأصناف الطيور تحلق في غبطة كلٌ يسعى لرزقه.. تعجب الصعلوك من تنوع الزرع والثمار اليانعة على أطراف الشجر فيما حوله من حدائق غنّاء

وكأنما ظن أن الزيتون والبلح هما ما تجود الأرض بهما فقط!.. خبل لبه منظر الماء الجاري برقته ولمعانه وتدفقه، وتعجب من رداء الفلاحين فهم لا يرتدون مثل فلاحي قريته..

دلف الركب إلى ساحات مرصوفة بالقير والحجارة تتعملق المباني فيها إلى ثلاثة أدوار وأحيانًا إلى أربعة، أي ضعف حجم قصر الجليل.. بدا للصعلوك لباس النساء عجيبًا ومثيرًا والأغرب منهن ما يرتديه الرجال.. سرعان ما فقد عقله حينما شاهد تلك العربات المنطلقة دون حصان يجرها أو بهيمة تدفعها، لها هدير مخيف لا يخشاه من يسمعه حولها!.. ماذا حدث لأرض البشر؟!.. أو ما الذي حل بنا؟!

دجا الليل على الصعلوك بما لم يتحسب له.. رأى أعمدة الإنارة المصطفة على جوانب الطرق تنير دون أن تمسسها نار.. وتحيل العتمة لضياء مبهج.. شاهد صور الماركات المعلقة على الحوائط وعليها صور لنساء جمالهن كفيل بجعل جبل الغريب يخر تحت أقدامهن.. أمسك بصحيفة مطبوعة لم يعلم اسمها لعجزه عن القراءة والكتابة وأعجبه شكل الحروف التي لم تكتب بحبر.. المقاهي العامرة بالسُمار، يلثمون ما يشبه الخرطوم وينفثون من بعده دخانًا!..

كان يومه الأول في المدينة صادمًا كاشفًا، ممتعًا ومشوقًا.. إلى أين وصل البشر وماذا جرى لهم؟!.. وما الذي ستراه عينه أكثر من ذلك؟!.. أسئلة عديدة تطرح على رأسه دون إجابة مفهومة، ثم أتاه سؤاله الملح مباغتًا فجأة: أين المماليك؟!.. إنه السؤال الذي يتمنى إجابته أكثر من كل الأسئلة الدائرة في رأسه والذي يخشى طرحه على أي أحد لئلا يثير الشكوك ويورده الهاوية..

نصبت خيام الغجر بالقرب من مقام السيد البدوي استعدادًا للمولد.. موسم الربح والمال المنتظر.. بدا المسجد بهيًا تعلوه أوراق الزينة وألسنة النور، يزدحم حوله المريدون والمتاجرون.. سكن كلٌ من الغجر إلى

خيمته.. وأوى الصعلوك إلى خيمة قطر الندى كحاله بعد قيامته من الموت.. أما بشرى فكعادته في الخارج يتسكع في الأنحاء معه قنينته التي لا تفارقه.. فوجد الصعلوك ذلك مناسبًا لمصارحة قطر الندى بما يجيش في صدره، ومعاتبتها على صدها له غير المفهوم..

ـ ألا تعلمين أني أحبك؟!

تلقت سؤاله وهي مستلقية على جنبها تحاول النوم.. فأدارت له وجهها بكسل مصطنع، ونظرت إلى حاله المضطرب لتجيبه باستهتار قائلة:

ـ نم يا أحمد، فبالغد أمامنا عمل كثير مرهق..

ـ وكيف تغمض لي عين دون ضمة صدرك لي؟!

شعرت بتململ من وجوده ورغبة في إنهاء تلك العلاقة بأي طريقة، فأقعت على دبرها، وشمرت عن ساعديها قائلة في حزم وحدة:

ـ اسمع يا سي أحمد.. سأقولها صراحة لأريحك وتريحني.. ما كان بيننا ليس بحب.. أنت فتى جميل الوجه وعجبتني.. أردت تذوقك فأنت مثل الطعام للمحروم، صنف جديد لم أجربه من قبل.. أنا امرأة في سن أمك، متزوجة، وحياتي مرتبطة بزوجي على الرغم من عدم حبي له.. فلتنس ما كان بيننا ولنمض في حياتينا.. أنا لا أصلح إلا أن أكون متعة بالأجر لمن يدفع، لا حبيبةَ أو زوجة.. وتلك حياة نساء الغجر فلا تعتقد أني شاذة عنهن.. نحن لا قلب لنا ولا دين لنا غير المال والترحال.. أما أنت فحالم نقي.. ونصيحتي لك أن تتركنا قبل أن تصبح مثلنا.. محتالًا دجالًا لا قلب لك ولا ذمة تتنقل زوجتك من فراش هذا لذاك مقابل المال وتنجب لك أطفالًا سودًا وحمرًا وبيضًا لا يشبهونك في الحرام.. وتعيش في الخيام دومًا على أطراف المدن تجنبًا لاحتقار أهلها وعدم ترحيبهم بوجودنا النجس أكثر من أيام الموالد والأعياد..

كان جوابها وقحًا مزلزلًا تبرق من فجاجته الأبصار وتضطرم من بشاعته القلوب.. ظل الصمت ثالثهما حتى نطق الصعلوك أول كلماته بحشرجة الباكي قائلًا:

ـ لمَ خدعتيني بحب لا تعرفينه، وبسعادة وهمية، وبجسد تهبيه لكل من هب ودب؟!.. أنا لم أؤذك كي تؤذيني.. وكنت صادقًا في حبي لك ووفائي الأبدي لحبنا..

قاطعته بأسف قائلة:

ـ وأنا لم أقصد أذيتك أو الكذب عليك.. فأنا لم أقل لك إني أحبك.. بل أنت من ظللت تردد حبك لي وأنا لا أمنحك سوى جسدي.. كان كلًا منا صادقًا مع الآخر.. أنت أردت قلبي وأنا أردت جسدك.. وتلك علاقة لا يجب أن تدوم لأن حطام القلب من الصعب مداواته.. أعلم أنك حزين وتئن من الوجع.. لكن أن تتألم الآن لسويعات معدودة خير لك من أن تظل في حياة ظاهرها النعيم وباطنها الجحيم..

تنهدت ومسحت بكفيها وجهها لتمسح علامات الشفقة وتستبدلها بخيوط الجد مستطردة:

ـ في الغد يبدأ جمعنا الغزير للمال.. سأعطيك بعضًا منه لتسافر إلى أهلك في القاهرة.. سامح أخاك وأباك وعد معهم.. وسر تحت طوعهم.. فهم يحبونك ويريدون لك الخير.. تزوج حينما تعود إلى قريتك من فتاة طاهرة نقية مثلك.. وأنجب منها أطفالًا تعلمهم الدين والشرف والعمل.. أتسمعني يا سي أحمد؟.. لا تصبح مثلنا جدرانًا محطمة في عمار الحياة يبول عليها الكلاب ويسكنها الأوباش وتسرح بينها الهوام..

اندفع المذبوح إلى خارج الخيمة يركض بلا هدى، وكلما ركض وزاد في البعد، سمع كلماتها تتردد داخل أذنيه كأنها تلاصقه.. حلقت دموعه وراءه في عدوه المجنون وشق بجسده النحيل طريقًا داخل الهواء عزله عن الأعين المستغربة وضوضاء المدينة.. لا يعلم إلى أين يجب عليه الذهاب.. لكنه تمنى لو حطت أقدامه على جبل الغريب.. حيث مواساة الذئاب وحضنه الصخري الذي يحوي رحمة أكثر من قلوب البشر!

* *

الظلمة تبتلع الكون لكنها لا تهضم الحيوات.. نقيق الضفادع، عرير الصراصير، حفيف الشجر، صفير الريح، خرير الماء في الترع الضيقة، شعاع نجم كابي الاحمرار ينافس القمر في اللمعان يلتفون جميعًا حول قلب الصعلوك الجريح ونفسه المكسورة وآلامه متجددة الانبعاث.. القهر هو سلطانه الخاضع له والعجز رداؤه الشائك.. أما السخط فدومًا صاعد إلى السماء، إلى الإله الذي ظن الصعلوك أنه لا جديد في عذاباته لكن قطر الندى عرفته أن الله لا حصر لصنوف عذابه وأن حظه لا نهاية فيه غير الشقاء..

أمه أفضل من قطر الندى، فهي لم تخدعه وجاهرته الكراهية والعداء منذ نعومة أظفاره أما قطر الندى فهوت برأسه على صخور البؤس بعدما حلقت به فوق سماوات الربيع.. البدو أشرف من الغجر فهم لا يباهون بالرذيلة ولا يتاجرون فيها مثل الغجر.. قريته أقل غموضًا من أرض البشر التي يجهل ما بال الناس فيها ولا يعلم عن حضارتها شيء.. الغيب، دائمًا مجهول له ويثير الرعب فيه.. هل أخطأ حينما غادر قريته؟!.. لكن حاله لم يتبدل كثيرًا.. فها هو شريدٌ جائعٌ يصعقه التعب، لا جبل غريب يحتضنه هنا ولا عواء ذئاب يأنس لطربه.. فقط نباح الكلاب المزعج.. لطالما كره الكلاب فهم أعداء الذئاب.. خطواته مازالت تمضي نحو نهاية لا يعلمها ولا يبلغها.. والعقل مثقل بالتفكير المضني..

انحنت به السبل بعد طول مسير اتصل ليومين إلى ضفاف نهر مدينة دسوق.. بدا النسيم نقيًا برغم امتزاجه برائحة روث البهائم والخضرة والطمي، وشمس الشروق متراخية الدفء كحالها في صباحات الشتاء، ودبيب السعي يزحف إلى الآذان.. سار بحذاء النيل بتؤدة المتأمل.. لأول مرة يرى ذاك الفيض من الماء، وسطحه الرقراق المراوغ.. كان طول الماء أكبر من تصوره أو ما روته الأساطير عن بحر مالقة.. لا نهاية ولا بداية تمسكهما العين.. فقط الضفاف، لذا خشي عظمته، وعمق قراره..

على تلك الضفاف كانت نكبة جدنا.. النيل مع القدر يصنعان الخدع القاتلة، وآلامنا الحاضرة.. أكثر ما جذب الصعلوك في مشهد النيل هو ذاك المركب الضخم الراسي على ضفافه كفارس لا يخشى خطر المواجهة.. دنا من المركب قدر المستطاع، تأمل أعجوبة صنعه وكيف يطفو على الماء دون أن يغرق؟!.. رأى جمع من الرجال يرتدون ثيابًا بالية، وعمامتهم معقودة بشكل لم يألفه من قبل يجلسون في حلقة محيطة بمأدبة بسيطة.. فول أخضر وجبن وبصل وخبز مقرمش.. أياديهم غليظة وبنيانهم قوي وشواربهم تغطي ثلث وجوههم.. النفر منهم يهوي على البصلة بقبضة يده فيفتتها إلى قطع صغيرة سهلة المضغ.. ضحكهم مجلجل وحديثهم فكاهي يتندر فيه بعضهم على بعض، والرضا بجود المقسوم هو سرهم المفضوح..

كان كبيرهم جالس على مقربة منهم يسمع حديثهم ويبتسم على مداعباتهم وهو يقلب بعصا صغيرة الفحم المتوهج تحت إبريق يتصاعد منه البخار خاملًا كعروس في نهارها الأول، حتى صار البخار كثيفًا قويًا يكاد يحمل الإبريق من فوق النار ويطوحه بعيدًا.. فرفعه بخرقة مهترئة وصب ما فيه في أكواب صغيرة سائلًا أحمر قانيًا كلون الدم وصاح مناديًا أحدهم:

ـ يا هنيدي.. احمل الشاي للرجال..

ثم استطرد هامسًا في أذن الرجل:

ـ أدعو ذاك الشاب الواقف عند الشجرة إلى الطعام.. يبدو الجوع والبرد ينهشان في جسده الضئيل..

وضع هنيدي صينية الشاي وسط جمع الرجال، واتجه ناحية الصعلوك بابتسامة لطيفة أزالت الرهبة من هول ضخامته وشاربه المفتول كجناحي صقر وأسنانه الصفراء الكبيرة.. وبلهجة مرحبة قال له:

ـ الحاج عبد الرحيم الرهامي يسلم عليك ويدعوك للإفطار معنا وشرب الشاي..

تبعه الصعلوك في غبطة وخجل حتى وصل إلى صحن الجبن والفول، وغاص في الطبق بكلتا يديه.. أذهل الجمع وحشة الجوع التي رأوها في إقباله على الأكل، وضحكوا على وهنه بعدم قدرته على تفتيت البصل بقبضة يديه الصغيرة مثلهم.. شعر الصعلوك بالطعام يرتطم بقعر معدته الخاوية، وكأنه لم يذق طعم الزاد منذ عقود.. لم يكترث بضحكاتهم الساخرة منه.. فكل ما يشغله أن يشبع.. إنه ذاك الاحساس الذي قلما تجود الحياة به عليه.. ظل يأكل حتى كاد أن يطل الطعام من فتحتي أنفه.. عندئذ وجد يدًا ممتدة بكوب صغير رائحة ما فيه زكية وبخاره الساخن كفيل بتدفئة جسده.. كانت يد كبيرهم الذي خاطبه بود قائلًا:

ـ اتفضل احبس..

تعجب من كلمة «احبس» لكن سرعان ما فطن إلى أنها في لغة أرض البشر تعني اشرب.. فرد بخضوع العارف بالجميل:

ـ أشكرك يا سيدي على صنيعك معي.. فأنا تائه عن أهلي، ليس معي مال ولا وسيلة تبلغني مكانهم..

ـ من أين أنت يا ولدي؟

ـ من الجنوب يا سيدي..

ـ من أي بلد في الجنوب فنحن أيضًا من الجنوب..

ـ من نجع صغير فقير.. أجزم أنك لن تعرفه..

ـ حسنًا وأين يقع نجعكم؟.. في أسيوط أو قنا أو المنيا أو سوهاج أو الأقصر؟

كانت كل تلك الأسماء مجهولة له.. فأسعفه عقله باختيار أولها مجيبًا في حسم الصادق:

ـ أسيوط يا سيدي..

ـ نحن أيضًا من أسيوط يا ولدي، لكن لهجتك غريبة عنا.. لم أرَ أحدًا يتحدث بالفصحى هكذا إلا في خطب الجمعة!

ـ هذا لأننا في قريتنا نتربى على حفظ القرآن وتفسيره والتحدث بلغته دومًا..

ـ غريب.. لم أسمع عن أناس مثلكم من قبل!.. لكن ما اسم نجعكم من باب العلم بالشيء؟

ـ الغريب..

ـ ها ها ها.. اسم يليق بحالكم.. عمومًا حلت علينا البركة يا مولانا.. وما اسم فضيلتك؟

ـ اسمي أحمد بن زهير الحداد..

ـ تشرفنا يا سي أحمد.. وأين أضعت أهلك؟!

ـ كنا نسوق الخراف والنعاج والسخول في رحلة طويلة إلى الحسين فتشاجرت مع أخي، وانتصر له أبي.. فرحلت عنهم مغاضبًا.. وعرجت بي الطرق الخادعة إلى هنا!

تهلل وجه الحاج عبد الرحيم بعلامات البشرى قائلًا:

ـ نحن عائدون إلى الصعيد وسنمر على القاهرة، اركب معنا وسنوصلك إلى أهلك، فإن لم تدركهم، عدت معنا إلى أسيوط.. لكني أتعجب.. كيف شردت قدماك من الجنوب إلى الشمال دون التنبه؟!.. عمومًا لا تقلق يا ولدي.. فأنت ابن حلال والله يحبك..

سخر الصعلوك داخله من كلمات الحاج عبد الرحيم الأخيرة.. فهو ابن حرام والله يبغضه، لكنه حجب عنه ما يجيش في صدره ورد شاكرًا للمعروف.. فتمادى الحاج في المودة قائلًا:

ـ أمامنا يومان حتى نصل إلى المحروسة.. ومن هذه الساعة لن يؤمنا

في الصلوات غير فضيلتك يا شيخ أحمد.. فلا يفتى ومالك في المدينة.. أم ماذا يا مولانا؟!

تحرج الصعلوك من تلك الدعوة التي ستفضح كذبه.. فهو لا يحفظ من القرآن غير بضع سور صغار حفظهم إياها عم زهير الحداد عندما كان طفلًا.. أما الصلاة فلم يمارسها إلا قليلًا لعدم ترحيب المصلين في قريته بوجوده بينهم في المسجد.. أما الفقه والتفسير فهما علم، وهو أمي لا يقرأ أو يكتب..

أنجدته الحيلة فرد بلباقة قائلًا:

ـ لا والله يا سيدي أبدًا لن يكون أن أتخطى رجلًا مثلك.. كريمًا طيبًا شهمًا.. أنت أولى بالإمامة مني ومن أهل قريتي جمعاء..

كانت مباغتة حيلة الصعلوك وبلاغة رده كفيلتين باستسلام الحاج عبد الرحيم الذي رد موافقًا:

ـ حسنًا يا شيخ أحمد.. تفضل معي إلى المركب يا صاحب العينين الزرقاوين.. أول مرة أرى صعيديًا أزرق العينين.. ها ها ها.. تفضل يا بركة..

رُفع الشراع، وشدت حباله بعزم وقوة، انتقل معظم الرجال إلى المجاديف يدفعونها بهمة إلى الأمام والخلف ثم راحوا ينشدون بصوتهم الجهوري أناشيد الصبر والرزق.. وقف الصعلوك جانب الحاج إبراهيم في مقدمة المركب يستمتع بشقها لسطح الماء كالسيف ومضيها السلس.. وبتراتيل الحياة التي تعزف جانب أذنه..

الإبحار في النهر كان كالحلم الكامل الذي لا يشوبه الكدر.. شعر أنه في مسار مخفي عن أيدي البشر المدنسة لا يطاله أحد منهم، يمضي بعيدًا عن مُلك الإله القاسي الذي يكرهه، فالنهر كل شيء جميل فيه ويبعث السعادة.. الخضار وارف على الجانبين.. الماء بارد صافٍ، ورذاذه ينعش

الروح ويدغدغها.. الريح هبوبها لطيف كالنسيم تحمل رائحة لا اسم لها غير الرائحة المريحة.. حتى الطير له ألقٌ خاص يميز ظله حينما يختلط بسطح النهر.. لماذا لا يعيش الأشرار كلهم على الأرض ويهب الله النهر للأخيار؟!.. هذا ما تمناه وجنح خياله له، حتى أتاه سؤاله المعتاد الذي استقبله بفتور على غير العادة.. أين المماليك، ولِمَ لم يظهروا بعد؟!

- 13 -

الجليل

أهَلّ موكب الجليل من بعيد والتقطت الآذان صوت نباح الكلاب ودبيب القافلة.. فعلت النداءات في القرية بأن ولي أمرها ورسولها المنقذ قد عاد بسلام.. تدافع الناس كعادتهم في تلك المناسبة للاصطفاف مهنئين مهللين.. الجميع ينتظر تلك العودة كعهدنا مع الجعافرة منذ قرون، منذ فارسها الأول جعفر حتى الآن.. نظرات شعبه يكسوها الفضول، اعتادت عيونهم على تقدير الحمولة إن كانت ستكفيهم وتمنعهم سوء الحال أم لا مضى يشق طريقه بينهم بتؤدة وكبرياء، واندفع الرعاة ليحركوا الجمال والبغال إلى المخزن ليفرغ حمولتها العمال، متسلمين المهمة من الكلاب.. تلاحق رجال القرية ونسوتها على يد الجليل يقبلونها ويحمدون الله على عودته سالمًا.. كان تقبيلهم حارًا فالحمولة بدت مكتظة بالخيرات مما ينبئ بعيش هانئ لشهورهم الست القادمة..

أقدم بكر تجاه الجليل بطريقة استعراضية فاتحًا ذراعيه مهنئًا بصوت عالٍ لعودة سيده.. حتى وصل إلى بطن الفرس فهوى بفمه على قدم الجليل يلثمها ثم مد يده ليسنده في النزول.. فلقي استحسان الجليل الذي ربت على كتفه بود ونال ابتسامته.. ثم خاطبه قائلًا:

ـ بوركت يا بكر.. كيف حالك وحال القرية في غيابي؟

ـ بخير يا مولاي، لم ينغص علينا هناءنا سوى غيبة طلتك المباركة عنا، فما أصعب الحياة دون قائد حكيم شجاع مثلك.. كل الحمد والثناء لله على عودتك سالمًا غانمًا يا مولاي..

ـ نعم، الحمد لله.. أبلغ الناس يا بكر بأن الخير وفير هذه المرة واذبح احتفالًا بعودتي خمسة جمال توزع لحومها على الجميع ولا يحرم من خيرها أحد إلا من عادانا..

ارتجف قلب بكر ومرغ وجهه في وحل الحرج حينما ذكر الجليل (إلا من عادانا)، يعلم أن مقصده البدو الذين يعاملون مثلما تعامل الدواب.. لا يُغذون ولا يشربون إلا من أجل العمل في الأرض أو الرعي.. حز في نفسه ذاك الظلم الذي يتعرض له أهله على يد كل جليل منذ جريمة أجداده الأولى.. إلا أنه لا يستطيع إبداء أي لمحة اعتراض وإلا ناله ما ينالون من قحط العيش والظلم البين والنكران المهين.. فأجابه بلهفة الطائع المغتبط بخدمة سيده دومًا:

ـ أمرك يا مولاي.. أدام الله عزك وكرمك، وأطال في عمرك..

وذبحت الجمال أمام القصر وتحلق الصبية حول دمائها يلهون ويضحكون، وعلقت المشاعل في الطرقات وخرج الناس في زينتهم مصطفين أمام القصر يتلون آيات الولاء وأبيات الثناء بعد خطبة طويلة عريضة من إمامهم الجديد حامد بن عبد الصمد أبدع خلالها في فن مسح الجوخ والرياء مثل سابقه، لكن حماس البداية وهبه الأفضلية، وراح بعدها رجب السمّار يشدو كما لم يشدُ من قبل، هكذا هي عادته التفوق على نفسه في الغناء في كل مناسبة جديدة.. وحل الصخب المبهج على قريتنا برقص الرجال السكارى وضحك النساء المغري ولعب الأطفال المنفلت، ولحم الجمال الموزع.. هكذا هي لحظات الفرح في قريتنا، نتشبث بها ونذهب معها إلى آخر مداها.. فأيام الكآبة في حياتنا ممتدة، والسعادة يندر لقاؤها وتشح رؤياها تحت ظل الجليل وحارسه المجرم صفوان..

* *

هاهي ليلة ليلاء أخرى تمر على رغد.. صفي الدين يتجاهلها كعادته بالرغم من طول سفره.. راحت تستثيره بكل ما أوتيت من أنوثة طاغية وجمال أخاذ حتى قاربت أن تستجديه ليعاشرها لكنه ظل على حاله خامجًا لا مباليًا.. تجاهله لها يثير الحنق لكنها تكتم غيظها لئلا تعطيه حجة الفراق، وهجرها أكثر من ذلك.. اليوم هو بداية شهرها الثالث الذي يمر دون أن يلمسها.. هي لا تفتقد مضاجعته الخاملة الفاترة التي يؤدي دوره فيها كرجل لا كزوج محب، لكنها تخشى الزمن وما يخبئه إذا لم تنجب له الصبي الذي يحمل إرث أجداده ويحفظ الملك..

ـ اللعنة، هل فقد هذا الرجل ذكورته؟!.. أم أنه وجد خليلة يفضي لما بين فخذيه عندها؟!.. لكنه ليس كأبيه زانيًا فاجرًا لا يمل معاشرة النساء.. اللعنة على حبه الخالد لهند الذي سيفقده ويفقدني الصواب..

اتقد جسدها بالرغبة وقلبها بالسخط.. ظلت تتمرغ على السرير كهرة مذبوحة وتعصر وسادتها بلوعة.. هل تلامس فرجها لتفرغ من شهوتها المكبوتة كما تعودت أم أنه سيأتي لفراشها ليذيقها من متع الحب ما لذ وطاب؟!.. لكنها دومًا تنتظر ولا جديد.. كان سكون الليل حولها محملًا بآهات العشاق في قريتها، وهمس النشوة، وحدها تكابد عناء الوحدة، والبهجة المفقودة.. قفزت من فوق سريرها وهرولت تجاه النافذة.. فتحتها بعصبية وودت لو تصرخ صرخة، يهوي على إثرها جبل الغريب، ويهرب القمر وتعوي الذئاب.. أو يسمعها ذاك الحجر فيستجيب لها.. لكن صبرها يمنعها، وأملها المتجدد..

غاصت يدها إلى داخل فرجها تتحسسه وتلبي نداءه.. وانطلقت يدها الأخرى تعصر ثدييها بقوة كما تتمنى من صفي الدين أن يفعل معها في معاشرتهما النادرة.. عضت شفتها السفلى وأغمضت عينيها فتلاشت في حلمها المتكرر الذي تستحضره دومًا في تلك الأوقات.. ها هو صفي الدين يأتيها من الخلف ويتسلم المهمة من يديها.. يلثمها

من عنقها ويضغط بقوة على صدرها ليضمها إليه أكثر فأكثر.. يحملها من فوق الأرض كبساط سحري ويطوف بها في الغرفة ضاحكًا ثم يضعها على السرير ليتهيأ لوصل جسده بجسدها.. عندئذ يتلاصقان ويلتحمان حتى لا تكاد تميز جسد أحدهما عن الآخر.. الشفاه بالشفاه والعين في العين والصدر بالصدر والأقدام معقود بعضها على بعض.. أناتهما مبهجة ومثيرة تطرب لها الآذان وأوضاعهما المتعددة ترجمتها الوحيدة ألا ينفصل الجسد عن قرينه مهما صار.. هذا هو حلمها المستحيل، والذي عادة ما تفيق منه على يدها المبتلة من مائها!

وجدت نفسها على السرير بعدما كانت واقفة عند النافذة.. غيبها الحلم عن إدراك غيره، فبكت وفاض ماء عينها أكثر مما أفاضه فرجها.. مازالت تقاوم الجنون لكن عقلها ذاهب لا محالة إن لم تلد الصبي وتملك قلب زوجها.. كل محاولاتها هوت عاجزة أمام تجاهل الجليل وحبه الراسخ لأختها.. لم يعد ينفع التزين ولا الخضوع في القول أو الملابس الضيقة أو الكاشفة.. كل حيل بنات حواء منذ فجر التاريخ جربتها ولم تنل مرادها.. حتى إنجاب الصبي الذي سيعصمها من غدره وسيجبره على حبها لم تستطع إليه سبيلًا..

ـ وكيف سألد الصبي إن ظل هذا المخنث لا يقربني؟!

هكذا صرخت من أعماقها، وتردد صدى صرختها المكبوتة داخلها!

* * *

جثا الليل بحموله الظلامية على قلب سعدان.. أسبل روحه إلى منازل الاستكانة والرضا إلا أن أفياء حياته الأولى مازالت تجذبه.. سطعت حياته على لوح الذكريات بكل تفاصيلها.. ظلمه للعباد وذلته بين يدي الجليل.. اتجاره في دين الله بثمن بخس وتلبيس الباطل بالحق.. ذاك هو إرثه من عائلته التي حافظ عليه حتى حل عليه عقاب الله عن ذنوبهم أجمعين..

كان حاجباه متهدلان ينهضان فوق محاجر ذابلة.. رأسه مطأطئ بين

جدران بيته الجديد الوضيع ذي الجدران الطينية البالية والسقف الممزق والفرش الحقير العطن.. تصغي آذانه لنهيز الفئران المتطفلة على ساكن البيت الجديد.. قلبه يئن بأوجاع السخط والخوف، وقلقه يستغيث بمصير أرحم مما حكم عليه به..

ـ اللعنة على ذاك اللئغ الأفاق حامد بن عبد الصمد..

هاتفته نفسه بنذير الموقظ:

ـ إنه ليس حامدًا يا شيخ سعدان.. إنه عقاب الإله.. أتذكر أسماء بنت الوليد؟!.. أتذكر تلك الشريفة التي حكمت عليها بالرجم لأنها أبت تسليم نفسها لفراش عمير، فاتهمتموها زورًا بالزنا وهي من شرفاء قريتنا وأتيتم بشهود تعلم يقينًا زيف قولهم فرجمتموها أمام زوجها المكلوم في شرفه وحبه دون رجفة ضمير؟ أتذكر جابر بن عيسى الذي أمرت بجلده خمسمئة جلدة لأنه تجرأ وطالب بحقه المنهوب من بكر الذي كان يختار عشوائيًا ضحاياه من أهل القرية فيسلب حصصهم ليمررها إلى بغاياه؟ أتذكر جرائم صفوان الجلية الصارخة بالإثم والتي كنت تبرئه منها كل مرة فيعود إليك بجريمة أبشع من سابقتها؟ أتذكر خطبك ولسانك الذي وظفته للكذب على أهلك من أجل إرهابهم من الجليل والخضوع لأمره؟ أتذكر كيف ماتت نائلة؟ أواه يا سعدان إن جرمك كبير وأكثر من أن يحصى، ولن يمحوه استغفار ملائكة الأرض والسماء..

فرد على نفسه مبرئًا إياها:

ـ لكن ما حيلتي وأنا ضعيف وحيد في قرية أهلها جبناء ضعفاء، يحكمها جبابرة طغاة؟.. لو كان أي أحد مكاني لفعل مثل ما فعلت حتى لو كان مالك بن أنس.. الله يقول في كتابه: (وَلَا تُلقُوا بِأيدِيكُم إِلَى التَّهلُكَةِ).. لقد حافظت على حياتي وحيواتهم.. لو حرضتهم على الجليل وفضحت زيفه، فلن يتحركوا فهم موات وإن ثاروا عليه عن بكرة أبيهم،

فسيلقون الموت لا محالة في الصحراء القاسية.. إنه يحكم قبضته على رقابنا أكثر من ظلام الليل، وشمس النهار..

أسند رأسه إلى الحائط لتشقه معاول التدبر والحيرة.. فغدًا عليه اللحاق بركب الفلاحين العاملين في زرع الزيتون وصحته وجسده لن يساعداه على ذلك، وبعد يومين عليه حضور صلاة الجمعة والجلوس تحت أقدام حامد بن عبد الصمد للصلاة خلفه والتأمين وراء دعائه.. فنهض من جلسته قافزًا وانطلق ناحية الشرفة ممسكًا بإطارها صارخًا في استغاثة:

ـ يارب، فلتفترسني الذئاب قبل أن أذل هكذا.. يارب، من أجل أي عمل صالح فعلته في حياتي اجعل آخر ليلة لي في الدنيا هي ليلتي هذه.. يارب، عبدك سعدان أتاك تائبًا منيبًا فارحمه من الهوان وقهر الشامتين..

فاضت عيناه بالدمع كما تفيض الشمس حين الظهيرة بالحرور، وعادت ذكرياته تحول بينه وبين الراحة وتمور في خبث كرجفات بين أضلعه، فتركته متكومًا بحسراته وآهاته ينتظر رحمة لن تأتي..

- 14 -

الصعـلوك

تفتح الصباح على سرب من أبي قردان عند حافة النهر تدغدغ مناقيرها سطح الماء الساجي وتبرق أعناقها الوردية تحت ظل شجر الصفصاف الفضي الممتد.. كانت جموع الحمام تطير بشكل مثلث في السماء الصافية الأديم، يغذي رونقها تسبيح الهدهد، وارتطام ماء النهر بضفافه المسيجة بالنخيل والقصب والأزهـار.. هنالك ملأ رئتيه بعبق التربة الخصيبة، ونسيم الفجر العليل وسطع جبينه مع أشعة الشروق الرمادية، ولفحته ريح باردة فأصابته بقشعريرة لذيذة تضاهي متعة الجنس، وسد فوهة المعدة بعد أمد من الجوع..

ـ يا حاج عبد الرحيم.. يا حاج عبد الرحيم..

كان ذاك نداء مفجعًا أطلقه جعيدي من فوق الشراع وكأنما رأى أبواب جهنم قد فتحت، وبانت له نارها المستعرة.. سرعان ما التقم الصياح الصارخ أمان الوسن لطاقم المركب والحاج عبد الرحيم الذي وقف تحت السارية هلعًا يسأله ما الأمر:

ـ هناك جثة على ضفة النهر تحت تلك النخلة..

وأشار بذراعه ناحية الشرق، وبرقت عيناه بالفاجعة.. فأمر الحاج عبد

الرحيم كل الطاقم بالتوجه ناحية المكان الذي أشار إليه جعيدي.. فعدلت المركب مسارها، وزحفت بكل قوتها ناحية الضفة حتى اتصل هيكلها بالشاطئ فمد جسرًا خشبيًا صغيرًا هبط من فوقه الحاج عبد الرحيم وتبعه رجاله أجمعين وتحلقوا حول الجثة التي كانت لفتاة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، مسحوج وجهها، متورمة في معظم أنحاء جسدها، ثيابها لا تكاد تستر شيئًا من جسمها الضئيل الذي يشي بمقاومة قوية ضد قاتليها..

وجدوا جانبها مخلاة بها قراطيس مدون فيها آيات من القرآن.. ومكتوب على ظاهرها اسمها.. فأمر الحاج عبد الرحيم هنداوي بالانطلاق إلى أقرب نقطة شرطة ليبلغ عن الجثة أو إلى أقرب شخص من أهل القرية على علم بأهل الفتاة ومسكنهم.. فانطلق هنداوي يسابق ظله حافيًا يزعق عاليًا طالبًا الغوث والنجدة.. وقام الحاج عبد الرحيم بخلع بردته وغطى بها جسد الفتاة المسجى محوقلًا سائلًا الله الانتقام ممن فعل بها ذلك..

بعد بضع سويعات هلت امرأة وزوجها يهرولان ناحية الجثة، يسبقهما ببضع خطوات هنداوي الذي انزلق على الطين من فرط سرعته.. وحينما وقعت عينا الأم على ابنتها هججت عيناها وضربتها زلزلة عاتية، سقط قلبها من على مرقده وصرخت صرخة دوت لها الأعالي وارتعد من هولها الواقفين.. فحملها الأب ترتجف رأسه كالمخبول، وتطفر الدموع من مقلتيه كحبات المطر.. يردد اسم ابنته (سنية) آملًا أن تجيبه.. ويقلب في جسدها عله يجد زرًا يعيد إحياء النفس التي غادرت أركانها!

انهارت الأم على الطين وراحت ترفعه وتضعه على رأسها وهي تنتحب بلوعة وتخبط على رأسها بكف يدها اليسرى، واليمنى تخبط اليسرى كأن بها مسًا من الشيطان.. وغاب الأب في تقبيل وجه ابنته والنواح كذئب جريح وحيد في معاناته.. والجمع لا يكف عن الحوقلة وذكر اسم الله

كي يخففوا من الفاجعة، حتى إن جعيدي حاول أن يهدأ من روع الأب فدفعه الأخير كالثور الغاضب..

استمر وجودهم حد العشاء بعدما دفنت الفتاة في مقابر أسرتها واجتماعهم بالنبابيت في حوش كبير عائلتهم يتلقون العزاء ويزأرون للانتقام ممن فعل بابنتهم فعلته الشنعاء.. سنية تم اغتصابها حينما كانت ذاهبة للكُتَّاب تحفظ القرآن كما تفعل كل صباح.. وتفنن المجرمون في هتك عرضها والتنكيل بها.. بدا أنهم كانوا أكثر من شخص أو شخصين.. فجسد الفتاة مثقل بجراح تفضح هول المصاب..

ظل الصعلوك ساكتًا كحجر أصم، باكيًا كإسفنجة لا تجف.. يرقب الجمع بحسرة.. ود لو يصرخ بصوت لم تسمع مثله البشرية قط.. صوت يصل به إلى سدرة المنتهى ليهاجم الله بلسانه الحانق قائلًا:

ـ لمَ تركتها تواجه ذاك الوجع وحدها؟!.. ما نفع قوتك التي تتباهى بها مادام لا نفع منها؟!.. هل تلذذت بآلامها أم غضبت واكتفيت بالغضب الساكن؟!.. ألم يثر غوثها بك أي شفقة؟!.. هل شاهدت سحلها واكتفيت بالصمت المزري؟!.. ماذا فعلت كي ينالها وحوش البشر كما تتناول نارك المتلظية لحوم عبادك وقدرك الظالم مصائر المساكين؟!.. ألم يشفع لها السعي في سبيل إرضائك؟!.. ألم تحركك براءتها ووهن تكوينها؟!.. الآن فقط تتجلى حكمتك وسر ملكك.. آلامنا هي التي تغذيك.. لكم أتمنى أن أوتي قوتك حتى أحكم العالم بعدل بعدما ملأته بالجور.. أن أذيقك النكبات وأريك بشاعة قسوتها..

* * *

عبرت المركب حدود المحروسة، واخترقت ضبابها الكثيف برفق حتى أوتها أشعة الشمس من المجهول.. الحياة تدبُّ على الضفاف بنشاط وهمة.. البشر كثر والبيوت زاهية ومعمارها غريب.. العربات الحديدية التي رأى القليل منها في طنطا تكثر هنا بأشكال متعددة ونفس

الهدير المخيف، والناس تختلف ثيابهم كلية بعضهم عن بعض في نفس الرقعة من الأرض!.. شغف قلبه بوطء الشاطئ كأول شخص في ظنه من قريتنا يطأ الأرض المحرمة بعد جدنا جعفر.. هنا قبل مئات السنين حدث ما أضاع حيواتنا إلى الأبد..

علت الجلبة في المركب، وراح كلٌ يتخذ دوره حتى ترسو رحلتهم بأمان إلى محطتها.. وقف الحاج عبد الرحيم يتبادل النظر بين الضفة ووجوه رجاله مراقبًا جريان الأمور كما ينبغي.. ومضى الصعلوك يفكر في يومه القادم وأرضه الجديدة.. عليه مواجهة الصعاب مرة أخرى.. إلى هنا انتهى مدى هنائه المؤقت.. إلى أين ستقوده الأقدار؟.. هل عليه البدء من حي الحسين كما بدأ جده جعفر الذي يحفظ حكايته كحال كل أهل قريتنا أم يقصد مكانًا آخر لا يجلب عليه نحسًا لا ينقصه؟ وأين سيأوي بأعبائه ولا جبل غريب يؤويه؟ وماذا سيأكل في الغد أم تمر عليه الأيام موحشة كعادتها؟

ـ حمدًا لله على السلامة يا رجال..

كان ذاك هتاف الحاج عبد الرحيم وهو يهبط من مركبه إلى الضفاف العامرة بالخضار والباعة والمتسولين والطير السارح بين الأرجل ولهو الأطفال وروائح الذرة والبطاطا المشوية.. هكذا هي صباحات القاهرة معتادة دومًا على الضجة فبدا الأمر طبيعيًا لكل الأعين عدا الصعلوك الذي شعر بالفزع يجتاحه.. تلك هي أرض البشر الحقيقية، ليست كطنطا أو خيام الغجر..

ـ ها قد وصلنا يا شيخ أحمد.. حمدًا لله على السلامة..

ذاك ما قاله الحاج عبد الرحيم وهو يحيط بذراعه الناشفة كتف الصعلوك، تعلو وجهه بشاشة من سلم أمانة لأهلها.. ثم استطرد بلهجة طيبة تفوح شهامة وأصالة:

ـ سأرسل معك بعد الفطور هنداويًا إلى حي الحسين ليبحث معك عن

أهلك.. فمصر غابة ملأى بالوحوش يا ولدي.. وأنت غريب عنها تجهل غواياتها وألاعيب شياطينها ومتاهات دروبها.. اطمئن فهو لن يتركك حتى تجد أباك أو أخاك، وإن لم يقدر لك المولى العثور عليهما تعد معنا إلى أسيوط حيث ترجع إلى أهلك وديارك وبلدك الغريب..

اكتفى الصعلوك بالابتسام المضطرب كرد على الحاج عبد الرحيم.. هو لا يريد أن يفضح سره ويكشف ستره.. وعاجلًا أم آجلًا سيعود إلى التشرد المقيت.. ذاك هاجسه الأبدي.. ماذا يفعل؟!.. هل يجاري هنداوي في تمثيلية البحث عن أهله ثم يعود مدعيًا بحسرة فشله؟.. وهل سيتغير حاله إذا سافر معهم إلى أسيوط أم كل ما سيجنيه هو بضعة أيام أخرى يجد فيها طعامًا ومأوى ورفقة طيبة ثم يعود إلى حالته الأولى التي لا تكاد تفارقه؟.. هو يتذكر وصف قطر الندى لأهل الجنوب بأنهم غلاظ شداد، لكن الحاج عبد الرحيم ورجاله طيبون تفيض أيديهم بالكرم وشفاههم بالمرح ونفوسهم بالرضا والسكينة، وقطر الندى عاهرة كاذبة، لمَ عليه تصديقها الآن؟!.. دقت الحيرة أجراسها بين أجنابه صارخة:

ـ أواه.. متى يهجع جسدي إلى مستقر آمن؟

* *

انقضى النهار سريعًا وحمّ رحيل الصعلوك عن رفقة الحاج عبد الرحيم.. كان الوداع حميميًا على الرغم من قصر مدة المعاشرة بينهم.. ذاق الصعلوك حلاوة حضن الأب لأول مرة في حياته وعرف إلى أي مدى كان محرومًا منكوبًا بعدما أرخى الحاج عبد الرحيم ذراعيه من حوله وأدخل قبضته في جيبه ببعض المال.. فسأله الأخير لمَ وضع تلك الوريقات في جيبه، فأجابه الحاج:

ـ إنه بعض المال يا ولدي تستعين به إن دعتك الحاجة.. فالله وحده يعلم ما تخبئه الأقدار، والمال حصن من حصون الدنيا.. هو رزق ساقه الله إليّ لأهديه لك..

هو يجهل ما معنى المال، سمع عنه من قبل لكنه لم يره مثل أهل قريته جميعًا ولا يدرك قوته..

مضى يشق الطرقات خلف هنداوي الذي بدا خبيرًا عليمًا بشوارع القاهرة ومسالكها.. لم يمنعه سير صاحبه الصعيدي بخطى سريعة من التأمل حوله.. هاله ما رأى.. إنه عالم لم يتوقعه ولا يدري ما خباياه.. كل ما يحيطه غريب ومخيف ويثير التساؤلات.. فكر عدة مرات في الاستفسار من هنداوي عما يجهله لكنه جبن واكتفى بالانبهار والقلق.. إنه ذاهب لتتبع خطوات جده ومواضع أثره في الماضي السحيق.. العمائر العالية تربكه وبوق السيارات يخيفه والنسوة الكاسيات العاريات يثيرونه والمبرقعات يلفتن انتباهه والمحال الضخمة تدهشه وأعمدة الإنارة تبهجه والطرابيش الحمراء على رءوس الرجال تعجبه..

كان قد عزم على عدم الرجوع إلى الحاج عبد الرحيم إلا أن ذاك الحنان الفياض الذي لقيه منه أجبره على إعادة التفكير.. لكنه قد حسم الأمر سلفًا.. عليه أن يخوض في الدنيا مواجهًا قدره، فهو لن يستطيع الكذب على الحاج دائمًا ولن يستطيع البوح له بسره حتى يفهم ما الذي خبأته عنه الدنيا من أرض البشر..

بدت الطرق كأنها تنحسر وتتلاشى حينما اقتربا من حي الحسين.. تألق مسجد سيد الشهداء ولامست أبهته السماء كأنما تأبى الأرض إلا أن تحتفي بخير دم رواها.. كل شيء في حي الحسين ملتف حول مقامه كأنهم ثمار ناضجة لشجرة باسقة.. محال الغلال والأقمشة، المطاعم والمقاهي، الشحاذون والدراويش.. حياة تنضح حيوات بجانب قبر وارى جثمان سيده قبل مئات السنين!

دلف هنداوي لأول مقهى عامر وصاح سائلًا:

ـ يا أهل الله السلام عليكم، هل عندكم علم بمكان تاجر مواشٍ يدعى سليمان؟ فأنا غريب عن هنا وأبحث عنه..

تطلعت الوجوه إلى هنداوي ورفيقه، وزمت الشفاه متمتمة برد التحية وانتظر الحضور أن يبادر أحدهم بإجابة الغريب.. فنطق أحدهم وقد بدا أكبرهم سنًا وأعلمهم بأهل الحسين قائلًا:

ـ أنا أعيش في الحسين منذ ستين عامًا ولم أسمع قط بتاجر مواشٍ يدعى سليمان.. ألا تعلم اسمه سليمان ماذا؟

ـ لا يا سيدي..

ـ إذًا فاذهب لعبد المعطي الجزار على ناصية حارتنا يمكن أن يكون لديه علم عما تبحثان..

استدار هنداوي مصاحبًا الصعلوك إلى محل عبد المعطي الجزار الذي لم يضف كثيرًا عن سابقه في المقهى.. حينها سأل هنداوي الصعلوك أن يتذكر اسم تاجر المواشي مرة أخرى، لكن الأخير أصر على ما ذكره بأن اسمه سليمان.. ازدادت حيرة هنداوي وقلة حيلته فدعا الأخير إلى الدخول لمسجد الحسين لصلاة العشاء والتبرك بالمقام سائلين الله هدايتهما سبل الرشاد.. فانصاع الصعلوك لطلب هنداوي وعزم في داخله على الهرب منه أثناء الصلاة إلى مجهول لا يعلمه.. فقد آن أوان البداية الجديدة، والتي تكون عادة مؤلمة.. فدخل المسجد ورفع رأسه إلى السماء حيث الله، تغشي عينيه الأمنيات، يائسًا قلبه من تلبية الرجاء.. باغضًا لما تخفيه الحجب!

* * *

في الصلاة وجد الخلوة مع عقله لا مع عدوه الواقف بين يديه.. ينصت للاحتمالات ويتدبر الحلول، شغله التأمل قليلًا في تصميم المسجد المؤنق والكتابة المزركشة والقناديل المضيئة كنجوم هابطة والسجاد الناعم والصوت الرخيم للإمام؛ لكنه قد ألف التعجب والانبهار منذ ما وطئت قدماه أرض البشر، فصار عقله مدربًا على تجاوز تلك المرحلة في سرعة إلى مرحلة الفهم والاستيعاب ومن ثم التسليم!.. فكل ما حوله

يفوق ما تحويه قريته بمئات المرات وعدد السنين المطوية في خفاء موطنه..

ـ لمَ لا أعُد مع هنداوي إلى الحاج عبد الرحيم وأقص عليه قصتي بحذافيرها فيجعلني أحد رجاله الذين يجود عليهم ويشملني بعطفه حتى تصيرني الأيام إلى مجرى آخر؟.. لكني لو حكيت له حكايتي سيزدريني الآخرون مثل أهل قريتي وينعتونني بابن الزانية، فالبشر كلهم سواء، خبثاء وقبيحون.. لمَ لا أقص عليه حكاية أخرى أحيك نسجها في عقلي وأنا عائد مع هنداوي إلى المركب، وما أيسر ذلك؟.. لكن الكذب دومًا ناقص وستره قصير، وإن لم يكتشفوا حقيقتي اليوم سيكتشفونها غدًا وحينها أعود مذمومًا.. لكن حالي سيستمر هكذا مع كل شخص أقابله وكل مكان أرتحل إليه.. ماضيَّ الأسود وعار النسب ملتصقان في ظهري كجناحي خفاش.. حتمًا هناك مستقر وبعد ذاك الراحة.. مغادرة الأخيار قدري كالفرار من الأشرار.. تبًا لذاك القدر الظالم وتلك اليد التي حاكته بخسة

تسلل من بين المصلين خلسة بنفس غارقة في الحسرة والخوف، وعين ترقب مواضع الخطى وأرجل تتلمس مواطن الأمان.. عاد بجسده وحيدًا بين ظهراني الدنيا عاريًا من الونس والسند.. الطرقات مكتظة بالبشر لكنه محجوب خفي لا يُدرَ عن مأساته، كالظلال غير ملموس.. هكذا دومًا يعود إلى ما كان، دون هدنة من الزمان.. إلى أين يجب أن تصطحبه قدماه؟ شرقًا أم غرباً؟ لم تضنه الحيرة حينما لمح كلبًا يسير عن يساره فاختار اليمين بكل بساطة لأنه يبغض الكلاب.. وعزم المضي حتى يتلقفه قدره بالجديد أو يهلك!

انحدرت به الأزقة الحافلة بضجيج الحياة إلى سكون الصحراء المحيطة بحي الحسين المتصلة بجبل المقطم.. الضجيج يثير غريزة البقاء عكس السكون رفيق الموت.. خبا صياح الباعة وتندر الرجال وضحكات النسوة المائعة وضياء المصابيح إلى رقعة خالية يصفو فيها

ذهنه؛ لكن من أين يأتي صفو الذهن حينما يدق الجوع أبواب البطن؟!..
سخر من حاله الذي استحال فيه إلى شخص يأكل كل يوم ثلاث وجبات بدلًا من لقيمات كل يوم أو يومين وأحيانًا ثلاثة.. لكنه الجسد، يستسلم بسهولة للترف وينسى في لحظة شظف عيش الماضي!..

فجأة لمع له في طرف الصحراء المكتسى بوشاح الليل بؤرة مضيئة كأنها الطرف الآخر من العالم.. فجعلها مقصدًا يصبو إليه دون دراية.. وكلما اقترب منها رآها تتكشف عن هيكلها الوضاء ذي الأسوار المشروخة والشجر عريض الأوراق، أصخت أذناه لتراتيل عذبة ودفوف موقظة.. فحام حولها متوجسًا حتى أسكنته السكينة التي تعبق بالمكان، وأقعدته كالمشلول دون حراك..

ربـــاه إنـــي أتـيـتـك خـاضـعًـا
تـــهـــفـــو نـــفـــســـي لـــلـــقـــيـــاك
فـــلا تـــحـــرم عـــبـــدًا ضـــائـــعـــا
زاده الـبُـعـــــد هـــلاكـا
فـــنـــائـــي فـــي عـــشـــق نـــورك
مـــنـــيـــة لا يـــلـــبـــيـــهـــا إلاك
تـــلـــقـــفـــنـــي فـــي رحـــابـــك
هـــائـــمًـــا بـــجـــــلال رؤيـــــاك

تدق الدفوف، تدور السيقان، تطوح الرءوس يمنة ويسرى، تغمض الأعين، يتراقص الجمع على وتر واحد، تعلو سحابة الطمأنينة، تغتبط القلوب بطيب الوصول، تحلق الأجساد في فلك الجنة، تزف البشرى بوصول الملائكة، يتجلى النشيد كنداء للكون كله، تخفق الأرض تحت الأقدام.. إنها لذة القرب المنشودة التي تخلصهم من فك الزمن إلى خلود النعيم..

كان جامدًا حتى أُخذ بناصيته للالتحاق بالجمع قوة خفية لم يميزها في نشوة السمع والتأمل.. راح يتراقص وينشد بحماس وجنون وسط الدراويش حتى وقع على الأرض منتحبًا وسقت دموعه التراب حتى تكوم الطين على جبهته، ثم غاب وعيه، وفقد إدراكه، وعطلت حواسه..

* * *

باغت جفناه المطبقان نور الصباح ففتح عيناه بإنهاك، يقلب مقلتيه بتراخ فيما يحيط به.. مازالت مشاهد الأمس تراوده وتغشي عينيه، يتردد صدى الأناشيد والدفوف في أذنيه وتشم أنفه نسيم الليل البارد؛ لكنه استفاق قليلًا فرأى غرفة لها جدرانٌ طينية عاريةٌ وسقفٌ من سعف النخيل وحصيرة مبسوطة تحت جسده ووسادة من قش يسند عليها رأسه وإناء فخاري جانبه يحوي ماء وفي طرف الغرفة باب تغطيه ستارة زيتية معتمة وصمت مطبق يحكم الأنحاء كأنما بعث المكان من العدم!.. فاستجمع ما بقي من قواه ونهض من رقدته كي يتفقد الغرفة ويدرك سر وجوده فيها، مشى ناحية طرفها وأزاح الستار فرأى رجل عريض المنكبين لحيته بيضاء كثة ورأسه تعلوه عمامة خضراء وغرة جبينه تطفو فوقها علامة الصلاة، وجهه بيضاوي فيه حمرة وعيناه مطفي لونهما، يمسك بمسبحة خرز حمراء طويلة ويتمتم بالذكر في خشوع وخفوت..

دلف الصعلوك وجلس أمام الشيخ الهرم، بدا مرتبكًا مترددًا لا يعلم من أين يبدأ الحديث، لم ينل انتباه الشيخ، لكنه نال في حضرته أمانًا لم يشعر به من قبل، أحب ما يعبق في المكان من روائح السكينة والهدوء، كانت الغرفة على تقشفها وزهد حالها عامرة بإحساس مريح.. ففضل الصمت وانتظار الشيخ مفاتحته الكلام ثم تحلل في هواء الغرفة كإحدى ذراته.. ومضت سويعات على ذاك الحال دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة.. وإذ فجأة سكت همس التمتمات، ومضت لحظات الصمت يشتعل فتيلها حتى نطق الشيخ بأولى كلماته بحكمة العارفين وبصيرة

العالمين قائلًا في خشوع وصوت له طلاوة تطيب لها القلوب:

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

فانتبه الصعلوك للكلمات وعلم أن ما بها من سحر البيان هي لغة إله وليست صنع إنسي قط.. شعر أنها تخاطبه وتهز كيانه فأجهش بالبكاء كامرأة ثكلى ثم تحدث بصوت متحشرج يفوح بالألم:

ـ لكني ظلمت أيها الشيخ الجليل بسوء النسب فأذللت به، ولم أذق من الدنيا سوى الشقاء والبؤس ولم أسعَ له بل فرض عليّ دون ذنب، ولم أطلب سوى العدل والرحمة في حياتي كلها ولم أنلهما قط!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾

ـ ها قد هاجرت؛ لكن كيف أمضي في طريق الخير وكلي كراهية له، وجسدي مدنس الأصل، وآلام الماضي تسحق قلبي، وأبواب الدنيا موصدة في وجهي، وأي أمل لي وجهنم تلفحني بالعذاب وكل يوم تتوعدني فيما هو قادم؟!

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ـ وكيف أصبر على ما لا طاقة لي به وأنا الضعيف المنكوب الذي لا حيلة له سوى تلقي الضربات الموجعة وتهكمات الأراذل ولا ملجأ يحتويه فيكفيه شر المحيط؟!

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

ـ وكيف سيقيني الصبر والصلاة من أذى البشر، ويخلصاني من عبء الماضي؟

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

ـ وماذا عن نبتي النجس وعار خلقتي؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

ـ وماذا عن الظلم الذي قدَّره عليّ دون جريمة لي في العدم؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

صمت هنيهة.. ثم أزاح تردده سائلًا في خجل:

ـ لكن هل سيقبلني بعد كل ما كنت أقوله له؟!

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

نهض الشيخ من جلسته مستندًا على عصاه الغليظة، كانت الشمس تنتصف السماء كملك اعتلى العرش ينظر حال رعاياه، وقال بلين الناصح داعيًا الصعلوك:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾

لكن الأخير ظل متكومًا على الأرض تكبله حبائل الحيرة والأسف.. وتموج في عقله وقلبه تيارات الاضطراب.. أيصبح كل ما آمن به طوال حياته خاطئًا؟! أيسامح هكذا دون ثأر يعيد له ما أهدر منه؟!.. خاطب نفسه متدبرًا في حنق:

ـ من الذي ظلم الآخر أولًا كي يتوب ويعتذر؟!.. أنا الذي لم أطلب تلك الحياة برغدها أو مرها أم الذي خلقني من العدم وألقى بي في حمأة وهلاك؟!.. أنا الذي قصرت في حماية نفسي بالرغم من امتلاكي نواصي

الكون والقوة المطلقة أم هو؟!.. ها؟! دعك مني يا عقلي.. أتذكر الفتاة الملقاة على ضفاف النيل؟، أتذكر كيف قتلت وأين كانت ذاهبة؟!.. أرأيت مدى وهن بدنها وبراءة عمرها؟!.. نعم، لن يخدعني ذاك الشيخ.. نعم، ما آمنت به طوال عمري حقيقي عادل صحيح.. الله هو الظالم الأكبر، العابث بآلامنا وأجسادنا وأحلامنا..

فقفز من جلسته وهتف صارخًا في وجه الشيخ يغفقه الغيظ:

ـ وماذا عن الفتاة المغتصبة؟!

فأجاب الشيخ بنفس اللين المطمئن واليقين البالغ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ـ ولمَ لم يحمها وهو يشاهدها تقتل بتلك الوحشية؟!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ـ أتراه استمتع بصراخها المستغيث مثلما استمتع باستغاثاتي تحت تنكيل عشاق أمي الزانية؟!.. أم أراح نظره بمتابعتها يهتك عرضها بقساوة مرات تتلوها المرات حتى غاب لون جلدها تحت احمرار تورمها ودمائها مثلما أراح نظره بهتك جسدي الواهن تحت لكمات الجوع والبرد ووحوش البشر؟!.. هل كشف عما بصدرها من نقاء وبراءة وعرف جوهرها؟ لو عرف ما تخلى عنها مثلما تركني أُنهش ليل نهار..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

استطرد مهاجمًا بحدة وسخرية قائلًا:

ـ ألم تقل لي إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟!.. ألم تكن ذاهبة لحفظ القرآن وتجويده؟!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أنهك الصعلوك من مور نيران الغضب داخله واتقاد جذواتها

المنتشرة في كل أنحائه ودموعه الحارة الملتهبة، فقال بصوت متحشرج:

ـ لمَ خلقنا الله إذا كتب علينا العذاب في الدنيا بالظلم والعذاب في الآخرة بالجحيم.. ما حكمة خلقه وسر صمته وأبد احتجابه؟!

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

ـ ظلم.. ظلم، هذا الكون وهم سخيف وتلك الحياة بما قبلها وما بعدها عبث مؤلم وساخر.. وهذا الإله يتسلى بنا كما يلهو الأطفال المشاكسون الأشقياء بفزع جرو صغير..

اندفع خارج صومعة الشيخ يسرع الخطى هاربًا كعادته إلى مجهول لا يعلمه، مستسلمًا لسخطه الذي يكسبه لذة الانتقام من عدوه، يترنح في داخله من سوء ما يجيش في صدره.. فلحقه صوت الشيخ من مسافة بعيدة تحمله الريح المغادرة السارحة، هاتفًا في نذير

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾

فالتفت خلفه زاعقًا:

ـ أهذا هو العدل؟! يذهبن كيده ما يغيظ!.. سحقًا..

- 15 -

الجليل

الصباح، كعادته في قريتنا كئيب، مكرر.. الرجال يفلحون الأرض من جديد، والنسوة مشغولات في نفس الأحاديث المملة عن متعة هذه في مضاجعة الأمس وشكوى تلك من شقاوة أولادها وضرب زوجها لها، وسير أخلاق الجارات وعلمهن بتفاصيل خياناتهن لأزواجهن.. أما الأطفال فهم على حالهم مشاكسون لا يكفون اللعب ومطاردة الطيور العاجزة عن التحليق والفرار منهم.. الأيام كلها هي يوم واحد لا ينهي مللها سوى الدم أو المتعة الجديدة..

كانت رغد في غرفتها ترقب ساقيها البيضاوين وقدميها البضتين وهما تفركان بالماء الساخن المعطر بالنعناع بواسطة يدي كريمة زوجة أنس الحلاق، اليدان الخبيرتان بجلب الاسترخاء وفرض النضارة على الجلد، لسانها لا ينطق إلا بما تريد كل امرأة سماعه، وابتسامتها تشي بتضامن ضمني مع كل امرأة تفشي لها عن سر مأساتها، وعقلها سريع البديهة وله لكل مشكلة حل..

ترددت رغد في مصارحة كريمة بعذاب قلبها مع زوجها الجليل، فكبرياؤها يمنعها، وقبح وجه كريمة.. فالقبيحات يكُنَّ داخلهن أسوأ مما يسم وجوههن ـ هكذا تؤمن.. ظلت كريمة كثعبان خبيث ينتظر في جحره مجيء فريسته، فهي تشم رائحة السر الرابض تحت جدران الصدور،

وتسمع أنين الألم في أفئدة النسوة.. تلك فراستها ومصدر رزقها.. كلما كانت المشكلة كبيرة وحلها عبقريًا ناجعًا، حصدت ما عنّ لها أن تطلب.. هي فرصتها إذًا لنيل ثوبًا حريريًا أزرق كالذي تلبسه سيدتها الحزينة المغرورة الجشعة..

ساد صوت تساقط قطرات الماء في الطست النحاسي حتى بات مملًا تحت عباءة الأذهان المشحونة بالحديث المقيد.. فزجرت رغد مخاوفها وكسرت حاجز تحفظها وتكبرها، وتكلمت بلهجة جادة قائلة:

ـ عندي مشكلة يا كريمة تؤرقني وتنزع عني الهناء، وإن حللتها لي تمني ما شئت، يأتك..

ادعت كريمة الصدمة والجزع في وجهها المرفوع ناحية رغد.. واعتدلت للخلف بصعوبة فهي امرأة ربعة ممتلئة، قائلة في هلع:

ـ خيرًا يا سيدتي إن شاء الله.. قبح الله الهموم، كيف تأتي لمن هم في جمالك وجودك ومكانتك؟!

أحست رغد بشيء من الحسد في عيني كريمة الضيقتين كثقب إبرة فأزاحت ذاك الحسد قائلة:

ـ ألسنا بشرًا؟!.. كلٌ له همه وتعبه ونقصه، والكمال لله وحده..

ـ ونعمَ بالله يا سيدتي.. خبريني ما بك، ويعين الله أمته الضعيفة كريمة في أن يجعلها سببًا لسعادتك..

ـ الولد..

لم تحاول كريمة الابتذال في التغابي فهي تعلم ما قصد رغد وتفهم مخاوفها، وتعلم أن مسكنات القول مثل الصبر، وقرب الفرج، وكل رزق له أوان.. هي كلمات مستهلكة باهتة لا جدوى منها مع امرأة كرغد لا تؤمن إلا بالجاه.. فأجابتها قائلة:

ـ العيب ليس فيك يا سيدتي فقد أنجبت البنت من قبل..

فاستغربت هند وزجت حاجبيها قائلة:

ـ وما دخل العيوب فيما قلت؟!.. لا يوجد ما يمنعني من الحمل ولا هو.. إنما أسألك الحيلة.. اللعنة على رأسك الغبي..

ـ عفوًا يا سيدتي لم أقصد عيب الإنجاب عندك أو الذكورة عنده.. بل قصدت أن إنجاب الولد هو أمر يحدث تبعًا لنوع الرجل..

ـ نوع الرجل!.. ماذا تقصدين؟!

ـ أقصد أن هناك رجال نبتتهم تغرس في بطوننا الإناث فقط، وأحيانًا الذكور فقط، وأحيانًا من هذا وذاك، وأحيانًا لا يغرسون.. نحن فقط تربة لزرعهم، تطرح ما يغرسون..

نال كلام كريمة اهتمام رغد وبدت لها نظرية مقنعة، بل واضحة جلية بعدما جربت كل الحلول والحيل لإنجاب الولد ولم يتم مرادها.. فأشارت لها بالاستمرار في الحديث..

ـ الرجال أغبياء ومغرورون، وحاشا بمولانا الجليل أن يكون مثلهم، لكنهم دومًا يعتقدون أن كل عيوب الإنجاب تأتي منا نحن النساء، على الرغم من أنهم المسئولون لا نحن!

ـ نعم يا كريمة، ورب الجعافرة..

اغتبطت الأخيرة باستحسان مولاتها فاستطردت لتلقي بحلها الخبيث قائلة في خفوت مصطنع:

ـ لا يخفى على مولاتي أني أم لأربع بنات، وولد يصغرهم جميعًا..

ـ نعم يا كريمة..

ـ أتعلمين كيف جاء الولد؟!

ـ كيف؟

وقفت كريمة وقاربت بفمها أذن رغد هامسة:

ـ إنه سر يا مولاتي فلا يخرج من بيننا ولولا ثقتي في عظم أخلاقك ما بحت لك بهذا السر قط..

ـ ما هو السر؟.. انطقي

ـ حينما أيست من إنجاب الولد ووجدت زوجي أنس يجافيني ويسخط عليّ لعدم حصوله على الابن الذي يرغب، خفت أن يتزوج عليّ وتقاسمني امرأة أخرى حقي وحق بناتي.. فكرت كثيرًا ولم أجد عيبًا يمنعني من الإنجاب، لكنها النطفة التي يلقيها دومًا داخلي لا تحمل غير الإناث فماذا أفعل وأنا تربة لا حول لي ولا قوة تطرح ما يغرس فيها؟!

ـ ها؟!

ـ ضاجعت رجلًا من البدو، وداومت على مضاجعته ثلاث أيام متتالية في غياب زوجي حتى تأكدت من استقرار بذرته داخلي، وبعد تسعة أشهر أنجبت عدي وحلت السعادة في بيتي..

صدمت رغد من فكرة كريمة واعتلاها غضب وغيظ فزعقت في وجهها:

ـ قبحك الله، امرأة وضيعة.. أتريدين مني مضاجعة من هم دون الجليل، وتلوكني نسوة القرية النجسات بألسنتهن القذرة حتى يقتلني زوجي؟!

ـ لا يا سيدتي لا سمح الله حاشاك فأنت الطاهرة ابنة الأطهار.. لكني قصصت عليك قصتي لتعلمي فقط أن الأمر خارج عن إرادتك وليس بيدك حيلة.. أما أمثالي فالحيل هي كل ما يستطعن اتقانه ليحافظن على حيواتهن..

ـ اخرجي من هذا القصر ولا تعودي إلى هنا مرة أخرى.. ساقطة لعينة..

ـ أمرك يا مولاتي..

خرجت كريمة من باب القصر الواسع تجر عجيزتها السمينة وهي

تضحك داخلها من أن حلها كان عبقريًا وعجب رغد، وأنها ستنفذه في القريب العاجل، لأنها لا تملك حلًا آخر غيره.. فراستها في النساء وطريقة تفكيرهن لم تخدعها من قبل، ولن تخيبها، لقد قرأت ذاك في وجهها قبل مفارقتها.. فقالت هازئة:

ـ مبارك يا صفي الدين.. تسعة أشهر ويهل وريثك من الغيب..

* * *

مر يومان ولازالت كلمات كريمة تطن في رأس رغد كالنحلة الحائمة.. تفتك بحصون عقلها وتشل حركته.. لاحت أمام وجهها سماء الضياء والهلاك، وحطت بأقدامها على أعتاب بابي السعادة والشقاء.. أي سم زعاف لقحت به تلك الوضيعة دماءها؟! وأي وسواس فحت به في أذنيها؟!..

ـ الموت ورب الكعبة هو ما ينتظرني إن أقدمت على خيانة الجليل مع رجل آخر.. لا، ليس الموت.. بل هو شيء أشنع من الموت وأفظع عذابًا منه.. قد يجعل صفوان يضاجعني بخبل حتى تزهق روحي تحت منه.. أو يرجمني حتى آخر أنفاسي.. أو يتلذذ في تعذيبي دهرًا بأكمله ويجعل الموت هو الخلاص الذي لن يهبني إياه.. إن كان ينفر مني ويبغضني دون ذنب فكيف إذا أذنبت في حقه؟!.. تبًا لنصيحة تلك الساقطة فلأعش بسلام أيامي هذه حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.. ولكن أي سلام وهناء إذا طردت من القصر وعدت منكسة الرأس إلى بيت أبي؟!.. أي عز أبتغيه في دار الحداد بعدما غادرت قصر الجليل؟!.. وهل الموت أو العذاب أقل بشاعة من الخسران المبين؟!..

تدلت عيناها من رأسها، وانسكب الدم من مؤخرة دماغها إلى أوله.. لو أُمر بربطها إلى جوادين وشقها إلى نصفين لكان أهون من ذاك الخيار المجنون الذي وضعت أمامه مجبرة مكرهة.. أتخون الجليل؟!.. إنها تروم الإقدام على عمل لا يجرؤ على فعله رجال القرية أجمعون وأي

امرأة مكانها.. إنه انتحار لا نجاة منه ونهاية سوداء تخط حروفها بيدها.. لكنه الوريث الذي لا نجاة إلا به وكل ما عداه هلاك وحسرة..

ـ لكن إلى أي رجل يجب عليّ أن أقذف بنفسي إلى فراشه؟!.. يجب أن يكون مخلصًا كتومًا.. حقًا إنك لواهمة؟!.. الرجال عادتهم التبجح بمعاشرة النساء.. تلك غريزتهم المخبولة التي لا يكفون الحديث عنها ليل نهار.. يجب أن يكون ذاك الرجل ذا قلب من حديد لا يهاب أحدًا، ولا يخشى المخاطر.. ويا حبذا لو كان دون أهل أو عائلة لا يعرف عن إحساس الأبوة شيئًا حتى لا يحن إلى ولده ويذهب عقله دونه فيفضح أمري.. أأختاره جشعًا تسكته العطايا أم ولعًا بممارسة الجنس فأسلم له نفسي كل حين مقابل صمته؟!.. اللعنة.. أي شقاء ستلقين بنفسك فيه يا رغد وأي حياة مرعبة؟!.. لكن حياة مرعبة خير من لا حياة.. هي مخاطرة تستحق المجازفة.. والمجازفة المحسوبة لا خطر منها..

تهللت أساريرها فجأة إذ تفتق ذهنها عن لمحة من فكرة كانت غائبة عنها فقالت لنفسها بحبور الفائز:

ـ لن أحتاج إلى العيش تحت رحمة أي رجل مهما كان.. سأستطيع التخلص منه بمجرد الحمل بأيّ ادعاء عليه.. سأتهمه بأنه تحرش بي أثناء سيري في الطرقات أو أشار إليّ بما لا يليق أثناء وقوفي في شرفة القصر أو أقدم على التسلل إلى غرفتي لاغتصابي في الليل تحت تأثير سكره.. هي تهم كفيلة بقطع رأسه والتخلص من عاري معه.. كلمتي ضد كلمته، وبالتأكيد ستصدق كلمتي وتكذب كلمته.. ما أجمل عقلك أيتها العقربة.. أين كنت عني منذ زمن يا كريمة؟!!

أطرقت برأسها هنيهة وانتابتها قشعريرة ما قبل الجريمة يهاتفها ضميرها الخابي قائلًا:

ـ أتتسببين في قتل رجل بالافتراء عليه بهتانًا وتنجبين في الحرام؟!.. ماذا لو أنجبت أنثى، أتعيدين الكرة مع رجل آخر ثم ترمينه بالباطل فيقتل

هو الآخر؟.. وكم رجلًا ستكفيك دماؤه يا رغد حتى تنالي ما تطلبين؟!.. وهل ستسير الأمور كما خططت أم ينقلب السحر على الساحر؟

طعنت ضميرها هائجة مغتاظة وهي ترد حانقة على نفسها قائلة:

ـ اللعنة على كل من في القرية هم لا يستحقون الحياة.. وما اخترت ذلك إلا مكرهة لا راغبة.. فإما حياتي أو حياتهم.. ولم أسمع من قبل عن أحد فضل حياة الآخرين على حياته!.. لن تحمل بطني بذرة أنثى مرة أخرى، أنا أشعر بالولد ترفس فدماه في رحمي منذ الآن..

نهضت من مقعدها في تكبر الآثمين وجاست بعينيها بين وجوه رجال القرية الذين طالهم مدى عينيها وخاطبتهم هامسة:

ـ من منكم أيها الأنعام سيكون سبب سعادتي وسأكون سبب فنائه؟

ثم برق عقلها بخاطرة ناصحة:

ـ يجب أن لا يكون رجلك المختار من خارج القصر حتى يصير اتهامك له فيما بعد منطقيًا مقبولًا وغواية رجال القصر أيسر ممن هم خارجه.. يا ترى من سيكون؟!.. سالم القبيح ذو البطن المنتفخة والصدر المترهل أم هلال الغبي صاحب النظرة البلهاء ليس بالطبع ذاك العجوز موسى فهو بالكاد يقوى على الوقوف، أم بكر؟ هو أوسمهم وأذكاهم وأصحهم بدنًا ومن البدو الذين لا قيمة لهم وستلبسه تهمة التحرش في منتهى اليسر لسمعته القذرة بين أهل القرية..

ابتسمت في راحة مستطردة:

ـ إذًا أنت يا بكر من غضبت عليك السماء وآن للقدر الاقتصاص من جرائمك مع النسوة.. أنت والد الوريث، ونسلك القادم سيئول له ملك قريتنا.. أنت مفتاح سعادتي وكنزي الذي آن له الاستقرار في حجري..

- 16 -

الصعلوك

اختل ميزان النهار، وظل الصعلوك يذرع الصحراء المقفرة والدور العامرة، تكاثرت خيالاته وأفكاره ومخاوفه وآماله كأنها حبات رمل سفاه ريح هائج.. شعر بعقله حاملًا جبل الغريب، السماوات السبع، آثام البشر وأمانيهم ومآسيهم، عظام الموتى وفاتهم المسحوق، التاريخ المجهول والسر المخبوء والمستقبل المخيف، مفهوم الحياة الغامض وسر الخلق المخفي، يوم الحساب وكيف سيواجه الإله بكل أحقاده؟!

انزلقت به الدروب إلى وسط البلد.. شغفته المباني المزركشة وفن معمارها الذي أظهر قصر الجليل جانبها كبيت أمه بالنسبة إلى القصر.. الرجال أنيقون والنساء فاتنات.. الشوارع منبسطة دون خدش أو زيادة.. أعمدة الإنارة مغروسة بتوالٍ جنبًا إلى جنب يتوسط ما بينها الأشجار الزاهية.. المحال عملاقة الأبواب تعلوها اليافطات العريضة كأنها رايات حرب.. المقاهي العامرة بالسمار والأدخنة البيضاء الصاعدة.. السيارات لها عينان وضاءتان كتنين مبعوث من الأساطير القديمة تجوب بصخب في الشوارع.. الحناطير مصطفة على الجانبين يهبط منها الراكبون ويصعد إليها الراحلون وأحصنتها تسير بغنج كأنها تياهة بجمالها مستمتعة بلطف الجو.. الضحكات، صراخ الأطفال، الجدال المحتد، الفصال مع بائع،

النكات، الأحاديث الرومانسية، الهرولة من جانب إلى جانب، شرطي الدرك الذي يجوس بناظريه بين وجوه الجميع ويتحسب لتلبية النداء، طرقعة الكعوب على الأرصفة.. حياة تختلف كل صفحاتها عما رأى من قبل أو سمع.. لا مماليك فيها!

أوقظت نداءات بطنه رائحة طعام زكية انبعثت من محل مر جانبه كإحدى رسائل الغرائز التي تنتشل صاحبها مما يهيم في عقله من أفكار.. تذكر المال الذي أعطاه إياه الحاج عبد الرحيم فتحسس جيبه ليجده بارزًا كنتوء في جسده.. فأحس بالاطمئنان لأنه كما فهم: المال هو رمز القوة في أرض البشر.. دلف إلى داخل المحل فوجد النادل يبش في وجهه ويدعوه مرحبًا للدخول موجهًا إياه لأحد المقاعد الشاغرة.. استقر الصعلوك على مقعده واعتلاه الارتباك لا يدري ما يقول، لكن طرق الجوع على جدران معدته أقوى من تحرجه وحيرته، فسأل النادل أن يأتيه بالطعام..

ـ هناك دجاج وكفتة وكباب مشوى وأرز معمر وأرز بالخلطة وفتة كوارع وطواجن باللحمة الضاني وحمام محشي ولحمة رأس.. والحلو أرز باللبن ومهلبية.. فماذا تختار يا أفندم؟

كان إلقاء النادل سريعًا مباغتًا فلم يمهل الصعلوك فرصة في التدبر والفهم.. لذا رد الأخير متلعثمًا:

ـ اجلب لي أشهى ما عندك..

ـ كل ما عندنا لذيذ يا أفندم..

ـ إذًا اختر لي..

ـ أنصحك بتناول أرز بالخلطة مع طاجن باللحمة الضاني بجانبهم سلطة خضراء مع حساء الخضراوات..

ـ حسنًا حسنًا..

تراصت الصحون على المائدة كما تتراص النجوم في السماء، كلٌ

له لمعته وبريقه.. خبلته الروائح الممزوجة قبل الأكل واستثارت كل الأحاسيس داخله، لم تتأثر شهيته بولوج ذاك الرجل العجوز ذي المبخرة المدلاة في يده يهزها يمنة ويسرها ليضوع رائحة البخور الرخيص في المكان مختلطًا بصلواته ذات اللحن العجيب على النبي، فراح يأكل بنهم موحش حتى إنه لعق الصحاف الخالية وانتفخت معدته حتى لامست طرف المائدة!، ثم استرخى كأنما ثمله الطعام وخدر أطرافه.. هنالك ظهر أمامه النادل فجأة كالعفريت شادًا عضلات وجهه عن ابتسامة واسعة قائلًا:

ـ بالهناء والشفاء، هل هناك طلبات أخرى يا أفندم تحب أن نجلبها لك؟!

أجابه الصعلوك مغيبًا متراخيًا:

ـ لا فقد اكتفيت..

فدنا منه النادل وناوله منديلًا مبللًا ومعطرًا ليمسح يديه، قائلًا في ود:

ـ الحساب ثمانية قروش..

لم يعِ الصعلوك معنى الرقم لكنه فهم أن الرجل يطلب المال.. فأخرج كل ما فيَ جيبه وأعطاه للنادل.. فضحك النادل قائلًا:

ـ الحساب ثمانية قروش فقط وليست جنيهًا.. نحن لسنا لصوصًا يا فندم مثل المطاعم الأخرى.. ها ها ها

استوعب الأخير كلام النادل وعرف أن ما بحوزته أكثر مما طلب، وأن الجنيه هو مبلغ أكبر من القرش، والجنيه الواحد فيه الكثير من القروش، لكن هل هناك ما هو أقل من القرش؟!.. خرج من المطعم مغتبطًا لملء بطنه وأن ما بحوزته من مال يكفيه للمعاودة مرة أخرى والتلذذ بتلك الأكلة الشهية.. أحس بحنينه لكوب من الشاي مثل الذي كان يشربه عقب كل أكلة في مركب الحاج عبد الرحيم.. فتذكر أن المقاهي التي مر بها

تقدم ذاك المشروب، فقد رأى الرجال يشربونه بجانب تلك الأداة العجيبة التي ينفثون منها سحب الدخان الثقيل.. هاتفه خاطره ناصحًا إياه بأنه إذا شرب كوبًا من الشاي ودفع ثمانية قروش أخرى فسرعان ما سينفد ماله دون جدوى، والطعام أهم من كوب الشاي، لكنه فكر قليلًا وقال لنفسه.

ـ قد يكون ثمن كوب الشاي أرخص من الأكل، سأسأل صاحب المقهى عن الثمن قبل أن يأتيني به، ولن يضرني السؤال..

كان على ناصية الرصيف المقابل للمطعم مقهى ضخم مكتظ بالجالسين حتى ازدحم بوجودهم الرصيف الملاصق للمقهى، فتوجه إلى هناك ومر بين الرواد الجالسون كأنه يرسم خطًا متعرجًا بجسده حتى وصل إلى الرجل الواقف على إعداد المشروبات فسأله بود:

ـ بكم كوب الشاي يا عم؟

ـ بمليمين يا بيه..

ارتبك عند سماعه اسم فئة النقود التي نطق بها الرجل لجهله بها، فقد تعلم منذ دقائق أن ما معه قروش متبقية من جنيه لكنه لا يحمل الملاليم.. فدعاه فضوله ليعاود سؤال الرجل:

ـ وهل المليم أكبر من الجنيه أم أقل؟

فحدجه الرجل بنظرة متوجسة.. ثم رد عليه متهكمًا:

ـ ارحمنا يارب من الكيف وأهله..

تسمر الصعلوك في مكانه تغشيه نظرات البلاهة الموجهة للرجل خلف النصبة، فأثار الريبة فيه..

ـ من أين أنت يا فتى؟

ـ من أسيوط..

ـ وهل أهل أسيوط لا يعرفون ما المليم وهم أفقر من الفئران؟!

فطن الصعلوك من جملة الرجل الأخيرة أن المليم هو أدنى من القرش لذا تركه فجأة دون رد باحثًا عن مقعد خال، فوجد واحدًا وسط جمع من الشباب ينتصف المقهى.. جلس عليه وأتاه النادل يمسح الطقطوقة الصغيرة الموجودة أمامه بمنشفة متسخة سائلًا عن طلباته..

ـ كوبًا من الشاي..

تأمل المكان حوله فوجد الجدران السميكة المطلاة بألوان فاقعة، والأراجيل منتظمة في صفين بالقرب من النصبة ساكنة بلا دخان ينفث منها، والفحم المتلظي يُهوي عليه صبيًا ضئيل الحجم مثله بمروحة ريش.. وبعض الرجال المغموسة أصابعهم بغبطة في لعب الطاولة والشطرنج والكارت.. صحبته أذناه للإنصات إلى الشباب الملاصقين له فاندمج في حديثهم هاملًا كوب الشاي حتى برد!

ـ عصابات الصهاينة هزمت جيوش العرب..

ـ إنه الفساد يا سادة الذي أضاع منا فلسطين..

ـ ليس الفساد وحده بل الوهن الذي أصاب حكامنا والاستعمار الذي ينخر كالسوس في أجسادنا.. كيف يصير الإنجليز خصمًا وحكمًا بيننا وبينهم؟!

ـ نعم.. اللعنة على وعد بلفور وحكامنا الجبناء والأمم المتحدة.. الإنجليز يحافظون على وجود ملوكنا مقابل تنازلهم عن أراضينا للصهاينة.. إنها صفقات قذرة وتمثيلية قبيحة..

ـ أتسمي هزيمة أربعة جيوش عربية في آن واحد تمثيلية؟!

ـ نعم.. إنها تمثيلية ليقنعوا العوام بأنه ليس في الإمكان أفضل مما كان.. فالأمم المتحدة اعترفت بدولة الصهاينة، ولا مكان بعد اليوم لشيء اسمه فلسطين حتى يعي أولئك الطغمة الحاكمة بأن هناك شيئًا اسمه جيش يجب أن يعد للقتال والذود عن أراضينا.. ليست مجرد وظيفة الهدف منها حماية كراسيهم ومهادنة الاستعمار وحصد الرواتب آخر كل شهر..

ـ الحل هو العودة إلى الإسلام.. فبعد هجرنا لديننا أصابتنا النكبات والذلة.. يجب أن نفيق ونعود قبل فوات الأوان..

ـ اللعنة على رأسك الرجعية.. أقول لك سلاحًا وجيشًا وفسادًا واستعمارًا وتقول لنا العودة إلى الإسلام؟!.. أنقاتل الصهاينة بالتبرك بالأضرحة ونطرد الاستعمار بخطب المساجد؟!.. ثم هل هدمت المآذن، وعادت الأوثان كي تحن إلى الإسلام؟!

ـ نعم الحل هو العودة إلى الإسلام.. ماذا كسبنا من الليبرالية الزائفة غير الهوان؟!.. ومن قال لك إن الإسلام هو تبرك بالأضرحة وخطب في المساجد؟!.. الإسلام منهج حياة.. ألم تسمع أو تقرأ كلام الإمام حسن البنا حتى تفهم؟..

ـ لن أقرأ لرجل مدعي علم يدعونا إلى العودة مئات السنين إلى الوراء بينما الغرب يتقدم للأمام..

ـ دعكم جميعًا من هذا الجدل العقيم ودعونا نتحسر على هتلر.. لو أكمل قضاءه على اليهود في المحارق، لما صار هذا حالنا.. أو لو انتصر على الحلفاء، لتحررت بلادنا ولم نسمع عن شيء اسمه إسرائيل..

ـ إنك لأحمق.. هكذا نحن دومًا.. نجلس مثل الولايا ننتظر قيام غيرنا بمهامنا.. ثم أيها الهمجي ما ذنب اليهود؟!.. اليهودية ديانة والصهيونية فكر عصابات يعتنقه مجموعة من المجرمين والمختلين تباركه دول الاستعمار التي تعيش من خيرات بلادنا.. كلهم لصوص مرتزقة اجتمعوا على بلادنا لضعفها وضياعها..

ـ هل يتوقع أحدكم محاسبة المسئولين عن الهزيمة؟!

ـ ها ها ها.. يالسخفك!.. ومتى حوكم فاسد في تاريخنا كله؟!.. الحق يحتاج قوة لتقتنصه وعدل يطبقه.. ونحن نفتقد هذا وذاك..

ـ لو أنهم سمعوا نصح الإمام حينما قال لهم دعوني في مواجهة

الصهاينة فحرب العصابات نحن أقدر عليها من جيوشكم المنظمة غير المدربة..

ـ سيقول لي ثانية حسن البنا.. إننا هزمنا يا هذا لضعف سلاحنا وتدريبنا وليس فقط لضعف استراتيجية الحرب.. هب أننا انتصرنا على الصهاينة، فهل كنا سنستطيع مواجهة جيش إنجلترا؟!.. إنهم أعداء متحالفون لن يسقطوا في معركة واحدة.. نحتاج الإعداد لهم سنين طوال ببناء دولة حقيقية مستقلة غير قابعة في الجهل ترسف في ظلام المرض والفقر..

ظل الجدل محتدًا بين الشباب على المقهى حتى انتصف الليل وصعد على كتف الظلام القمر وضاءًا تصحبه النجوم، وبدأ رواد المقهى ينسحبون واحدًا تلو الآخر حتى خف الضجيج من قرقعة الأراجيل والأحاديث الأقرب للصياح وخبط الطاولة، وانشغل العاملون في المقهى بجلب المقاعد المتناثرة خارج المقهى إلى داخله وتنظيف الأرض..

غادر الشباب المقهى وظل الصعلوك في مكانه يسترجع نقاشهم في رأسه ويحاول فهم ما دار بينهم، أفاضت رأسه بالتساؤلات العديدة: ما هي إسرائيل والإنجليز والصهاينة والليبرالية والملوك وهتلر وحسن البنا وفلسطين الضائعة والاستعمار والدولة المستقلة؟!.. لم يفك أسر حيرته سوى قدوم النادل متجهمًا يسأله الحساب.. فأعطاه ورقة أقل من الجنيه الذي كان بحوزته وانتظر ردة فعله، فوجده يرد له باقٍ من القطع المعدنية أخذه وانصرف لا يدر وجهة معينة يصبو إليها..

كان الظلام سادلًا أستاره الغامقة ضاربًا بجدران عتمته تحت سقوف الدنيا الشاسعة.. الشوارع شبه خالية ورياح الشمال قارصة البرودة.. كلٌ أوى إلى بيت يدفئه حتى الفئران إلى الشقوق الضيقة والقطط إلى صناديق المهملات، إلا الصعلوك ظل هائمًا على وجهه يحاول إشغال باله عن البرد الذي يطعنه في كل أنحاء جسده الهزيل ويمرق من عظامه بخفة وسهولة.. كانت العمائر من حوله كلها زاهية، ويحرسها البوابون عند

بواباتها العملاقة.. تمنى لو استطاع فرش جسده على أحد تلك الأرصفة النظيفة دون أن يتعرض له أحد، ويغطي جسده بأي رداء بال كما كان يفعل في جبل الغريب؛ لكن حتى تلك الأمنية تظل حلمًا بعيد المنال عن يديه!

جاب معظم شوارع وسط البلد وجدها متشابهة النضارة والبنيان حتى أنه تاه عن المطعم والمقهى اللذين قضى فيهما معظم ليلته.. رأى مسجدًا شارعًا أبوابه فأبى أن يدخله ليهجع في الدفء وفضل الاستمرار مصارعًا للبرد في الشوارع على أن يدخل بيت عدوه.. هل أصبح شيطانًا؟!.. ذاك هو السؤال الذي ألقاه على نفسه مندهشًا حينما مر على المسجد ولم يدخله..

ـ لكني لست بشيطان أرتكب الآثام وأحرض بني آدم على المعاصي.. أليست قضيتنا واحدة؟ هو طرد من رحمة الله مثلي، لكنه عصى واستكبر أما أنا فقذف بي إلى عالم العذاب دون جريرة.. هو اختار الهلاك والخلود وأنا لم أختر العذاب أو الحياة.. لم يعيره أحد من قبل في نسبه أما أنا فنسبي مدنس في كل ذكر.. حتى الشيطان أفضل مني منزلة، فهو قد حكم على نفسه أما أنا فلم أحكم على نفسي لأني لم أملك حتى على أنفاسي المتجمدة!

أقعده التعب على أحد الأرصفة المظلمة فتمدد على الأرض وكور جسده بحركة أتقنها منذ ما تعود المبيت في الخلاء، يديه بين فخذيه وركبتيه تلامس صدره ورأسه على التراب.. ولاذ بالنوم من وحشة التشرد وتمنى لو أيقظته شمس النهار على حال غير الحال إلا أن حاله استمر هكذا ثلاثة أيام بلياليها.. يتسكع في النهار ويتنقل من مقهى إلى مقهى ومن مطعم إلى آخر حتى يجن الليل فيلقي بنفسه على أحد الأرصفة كورقة خريف ذابلة..

نومه في العراء لم يكن هانئًا.. أحيانًا كان يستيقظ على لسعة برد أصابت جنبه أو الفزع من الضحكات الفجة لبعض المارة من السكارى

المترنحين في هذيانهم.. فأصابه الأرق وشدة التعب وتمنى لو يظلله سقف مثل كهوف جبل الغريب أو تلفظه الدنيا خارجها في المساء وتعيده إليها في الصباح..

في الصباح ناجته عربة فول يعبر شذاها ممرات الأنوف ويستقر لاهثًا في البطون فوثب أمامها وراح يأكل الرغيف تلو الآخر حتى انتهى من أربعة أرغفة في وجبة واحدة!.. كانت لذة الفول بالزيت الحار والبصل الأخضر كامرأة غلمة تأبى الاكتفاء.. أصابته التخمة ونشوة الكسل، واستيقظ في جسده خمول الزمان كله وأرق لياليه الماضية فاستلقى على أحد الكراسي في حديقة عامة ودثرته أصابع الشمس بالدفء الكافي، فأغمض عينيه وانسحب من جلبة الكون بإصرار ناحية العالم الآخر..

وفجأة ظهر له شيخ التكية كعمود رخامي، يلصف وميضًا في عينيه، تتطاير لحيته كحرير مخملي، بوجه آسف شجي.. أمسك بكتف الصعلوك بقبضة من فولاذ وأمره أن يتبعه.. والأخير جامدٌ في مكانه من الهلع..

- إلى أين؟!

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

انشق صدر السماء ولاذت النجوم والكواكب والشمس والقمر بالهرب.. واحتشد على شقي الأفق رجال ذوو عضلات مفتولة وسيقانهم كالصخور المنحوتة، سود البشرة تنفجر أعينهم بالشرر ويمسكون بسياط لها حسك ورءوس كرءوس الشياطين يغفقون بها ظهور ثيران قبيحة تزأر كالأسود فيخر الطير الغافل في السماء إلى الأرض من بشاعة صوتها، مربوط في خصرها حبال تجر بها موكبًا هائلًا من نار لم يُر مثل عظمها من قبل، يسبح كالمصعوقين فيها الناس حيث تتساقط جلودهم وتشوى

لحومهم، يحاولون عبثًا النجاة لكن هيهات من علو أسوارها وعمق قرارها المتلظي..

كانت تجذبه النيران ناحيتها والشيخ واقف جانبه لا يحرك إصبعًا ليساعده وهو يتشبث بالرمال الزاحفة والفراغ المخفي ليمكث على الأرض حتى ظهرت قطر الندى كاشفة عن فخذيها الطريين ونهديها الرجراجين فذاب كل ما كان من أهوال كنملة تحت حافر بقرة!.. فخاطبته بغنج وهي تدير له ظهرها وتنام على بطنها سائلة:

ـ ألم تشتق إلي يا سي أحمد؟!

ـ بلى يا مهجة الروح..

قالها بوله كالمجذوب وهرول ناحيتها حتى اعتلاها وصار الكون ضئيلًا ضيقًا عليهما حتى إن مؤخرته كانت تصطدم بسحب السماء صعودًا وهبوطًا عليها أما قدماها فكانتا مسنودتان على قمتي جبلين متباعدين كبعد المشرق عن المغرب.. وفي ظل غيبوبة اللذات فتح عينيه على وجهها فرأى فتاة النيل المذبوحة تحت منه تئن من الوجع ودمها يخضب الرمال.. هلع من منظرها فانتفض من فوقها ثم حملها يركض بمنة ويسرى سائلًا النجدة حتى لمح بيتًا يشبه بيت أمه في القرية فدخله بقفزة واحدة يسأل أهل الدار الغوث للفتاة، لكنه شاهد أمه تداعب الثعابين وتدعوهم بوله للولوج لفرجها والخروج من عينيها.. تعجب كيف تدخل الثعابين فيها وتخرج منها دون أن تقتلها ثم تذكر الفتاة التي يجب عليه إسعافها فأفاق لكنه وجد ذراعيه اللتين كانتا تحملانها فارغتين.. وفجأة سمع صوت ذئب يعوي عواء نشوة الوصول وطيب المستقر فخرج من الدار ليجده واقفًا أمامه يصهل كفرس الجليل يناشده الركوب.. اعتلى ظهره في خفة وانطلق الذئب في سرعة يعدو بين مضائق الجبال وفوق وهد الأراضي، وازدانت الدنيا بسقفها وقعرها حتى خيل للراكب أن

سحرًا ما أصابها وتمنى لو استطاع التحليق ليراها كلها؛ لكنه انقلب من فوق الذئب وهوت الصخور على رأسه..

أفاق من حلمه فاغرًا فاه وتحسس حوله ليدرك مكانه فوجد نفسه منبسطًا بجوار المقعد ترمقه أعين المارة بالزجر والتأنيب.. نهض ليعدل هندامه فلسعته بقعة ماء باردة متكومة على ذكره.. تذكر قطر الندى وما فعلته فيه ولزوجة البقعة فعرف أنه مَنِي اللحظات الحلوة والأحلام الوردية.. كان جسده نشطًا بعد نوم عميق وعقله مؤهلًا لاستكمال العمل.. خرج من الحديقة مغيبًا في تفسير حلمه، ينازع بجسده وعقله قيود الوهم وسطوة الحلم.. فاصطدم بكتف رجل يرتدي بدلة قطيفة سوداء متأبطًا لزوجته البشوشة ذات القوام المصبوب، ويحمل بالذراع الأخرى طفل لا يتجاوز عمره بضعة شهور..

كان ذاك الاصطدام كفيلًا بانتشال الصعلوك من عالمه والقذف به إلى عالم آخر تحوطه الحسرات وتتبخر فيه الأمنيات.. علق عينيه على ظهورهم محملقًا وخاطب نفسه مشفقًا:

ـ لمَ لم أخلق مكان ذاك الرجل؟!.. أو لمَ لم أخلق لأي أب وأم آخرين في قريتنا؟!.. ألهو مع أطفال الجيران وأعود إلى البيت في العصاري أتناول معهما الطعام ويحنو عليَ أبواي بالقبل والأحضان.. ثم أكبر وأزرع الزيتون مكانهما لأريحهما.. وأتزوج وأرزق بأطفال يشبهونني أو يشبهون أمهم.. وأكتفي بالحياة الهادئة البسيطة.. لم أطلب أن أكون الجليل أو صفوان أو بكرًا أو إمام القرية وقاضيها.. كل أمانيّ الساذجة المستحيلة تنحصر في أن أصير إنسانًا كما هي هيئتي.. لا ذاك الكائن المسخ الذي يتأرجح بين عوالم الحيوان والإنسان والهوام والعدم.. لا أدرك ماهيتي ولا يعاملني الآخرون بما يليق بمعاملتي.. فأنا إنسان عندما يذكر اسمي ونسبي، وحيوان حينما يلقى إلي بالطعام لأقتات، وحشرة

تفعص تحت الأقدام حين رؤيتها، وعدمًا عندما أتألم أو أفرح لا يشعر بي الآخرون.. أنا مسخ لا اسم له!

في تلك اللحظة تداعت عليه أبشع ذكرياته وأعنفها وقعًا على روحه.. ذكرى داود الفاجر.. ذاك السادي القذر الذي كان يربطه في صغره في عامود ينتصف غرفة أمه، ويجعله يشاهدهما وهما يتضاجعان ويسمع تأوهات أمه ورفث قوله.. وقبل أن يفرغ من معاشرتها بلحظات يقف أمامه ويمطر وجهه بمنيه الساخن وينظف قضيبه في شعره وهو يقهقه عاليًا ومن ورائه أمه الزانية على بكائه وهلعه وضعف حيلته..

انخرط في نشيج مكتوم، تلطمه أمواج بحر حزن لجي.. الماضي مازال يسحقه كأنه حي أمامه!.. نفسه خربة وجسده مثقل بأعباء ينوء عن حملها الجبال.. وحده يصارع البلاء القاهر، ووحده يفقد نفسه مرة تلو أخرى في معارك البؤس.. رفع نظره إلى السماء قائلًا:

ـ بعثت إلي في المنام بولي من أوليائك ليقودني إلى نار جهنم!.. ليتك احتضنتني مرة واحدة في حياتي وربت بحنو على رأسي.. ليتك حميتني مرة واحدة من عوادي الشقاء وتكلمت معي.. ليتك لم تكن إلهًا وليتني لم أكن عبدًا في ملكك..

* * *

وطأة القادم دهست فؤاده مباغتة بعد طول تناس وغفلة.. أدخل يده في جيبه فلم تعثر أنامله سوى على نزر يسير من المال المتبقي.. ها قد هل شبح المستقبل القبيح منذرًا كعادته.. ما الحل؟!.. هو بلا مأوى ولا حرفة ولا معين.. الشحاذة هي الوسيلة التي يبغضها فيكفيه ما ناله طوال حياته من ذل وهوان.. والسماء لا تمطر ذهبًا أو فضة لأوليائها فما بالك بأعدائها؟!.. لابد من العمل، والسعي للانخراط في حياة البشر وبدء مرحلة جديدة مستقرة غير ما يعيش..

عطف على أول محل قابله وسأل صاحبه عن وظيفة شاغرة فنظر له الأخير باشمئزاز وخاطبه بقرف قائلًا:

ـ فلتستحم أولًا يا هذا ثم اسأل عن عمل..

كانت رائحته عطنة من حياة التشرد ونوم الشوارع.. لكنه كابر متجاهلًا الازدراء واستمر في عرض نفسه على مكان تلو الآخر حتى أيقن تمام اليقين أن الجميع ينظرون له بتقزز.. حينها أدرك أنه لا بديل عن التحمم وشراء ملابس أخرى غير التي تقرحت وتقطعت.. المال معه قليل ويكاد يكفيه لوجبتين أو ثلاثة على الأكثر، هل ينفقه على شراء الملابس المستعملة من محال البالة؟!.. لكنه لا يملك من أمره شيئًا وعليه اتخاذ كافة السبل للحصول على عمل.. فذهب إلى حمام رجال وخلع رداءه الوسخ عنه، صار عاريًا لا يستر جسده سوى كتل الطين المتجلطة وهباب الطرقات.. لكنه خرج من تحت أيدي العاملين فيه والبخار الضبابي الحار الكثيف ناصعًا فاتنًا بارزًا جمال محياه.. فوثب إلى الخارج بروح متفائلة نضرة وانطلق إلى محال الملابس المستعملة، فاشترى بنطالًا أسودًا وقميصًا أبيضًا وحذاءًا جلديًا ذا لونين أبيض وأسود..

رأى نضارة هيئته الجديدة في مرآة أعين الفتيات اللواتي رمقنه بإعجاب وجرسونات المطاعم الواقفين على أبواب محالهم يدعون ذوي الأبهة مثله للولوج إلى موائدهم.. جيبه يخلو من مليم واحد لكنه منتش وسعيد.. فلأول مرة تختفي قصة حياة الصعلوك وبؤس روحه خلف تلك الهيئة البراقة الجذابة.. أراد أن يغتنم كل اللحظات المتاحة أمامه من الفخر والزهو الكاذب قبل أن تلطخ ملابسه أيادي التراب وعفن الضياع.. وأيضًا قبل نذير المستقبل المزعج..

تملكه التيهان بنفسه لدرجة أنه تملكه عشقٌ عابرٌ للأزياء وتمنى الانغماس في عالمها كي يظل براقًا مشعًا هكذا فدخل أول محل ملابس في طريقه ليسأل صاحبه العمل عنده.. طالعه الرجل باستحسان، وود

لو أن عنده مكانًا شاغرًا كي يعين فيه ذاك الشاب الوسيم الذي سيجلب بحسن طلته الزبائن ويحببهم في المكان.. لكنه رد آسفًا:

ـ للأسف لا يوجد عندي وظيفة خالية حاليًا..

ثم تبدلت ملامحه إلى الود واستطرد قائلًا:

ـ إذا كنت تبحث عن عمل فبار تاهيتا على الناحية المقابلة صاحبه باولو يبحث عن جرسون حسن المظهر مثلك.. اذهب إليه وقل له عم جودة أرسلني إليك.. بالتوفيق..

تردد الصعلوك في قطع الطريق للناحية الأخرى، فقد تمنى العمل في محل ملابس وليس بار.. فداهمه استغاثة جيبه الفارغ وبطنه التي تحبو تجاه منحدر الجوع وحثاه على المضي قدمًا..

ـ لكن ما البار هذا؟!.. وماذا سأعمل فيه؟!.. تبًا لعقلي.. دومًا يشغلني بما لا يجب وقت الجد.. فلأذهب وأرى..

على الناحية الأخرى من الطريق هبط ثلاث درجات من الرخام الأبيض وفتح ببطأ الباب الخشبي ذا الحشو الزجاجي المغبش، فرن برقة جرس معلق في أعلاه مصدرًا صوت عصفور.. دلف إلى الداخل ورأى صالة عريضة ذات شكل مستطيل تنتشر الكراسي الخالية الخشبية المبطنة بالإسفنج فيها حول طاولات زجاجية ذات أرجل معدنية.. أما جدران الغرفة وأرضها وسقفها من الخشب ذي اللون الغامق، معلق في حوائطها مصابيح صغيرة مدلاة من فوهات تماثيل منحوتة عجيبة.. أما على يسار الباب فشماعات تعلق عليها السترات والقبعات وعلى الجانب الأيمن بار ذو ثماني أذرع في الطول وارتفاعه يزيد عن الثلاث أذرع، يتلوه فضاء يقف فيه الساقي وإلى ظهره دولاب يحوي أنواعًا متعددة من زجاجات الخمر، يلاصق البار كراس دون مسند أو ظهر ترتفع عن الأرض بغرابة تجبر من يرد الجلوس عليها بالقفز كي يستقر فوقها!.. رائحة الكحول

تضوع في المكان وصور النسوة المثيرات المعلقة في أُطر مذهبة على الحوائط تسلب العقول..

كان في التواءة بين دولاب البار والصالة ظهر رجل محني على شيء ما مشغولًا بكلتا يديه فيه.. بدا أن صوت الجرس لم يكن كافيًا لتنبيهه بدخول شخص إلى المكان فظل عاكفًا على ما بيده حتى أتاه صوت الصعلوك خجلًا خافتًا:

ـ السلام عليكم سيدي.. أبحث عن رجل يدعى باولو..

التفت إليه الرجل الأشيب ذو البشرة البيضاء والوجه المربع والجسد النحيف، وعدّل نظارته المنزلقة على أنفه البارزة كمنقار نسر.. ثم تفرس في وجهه للحظات قبل أن يجيبه بلغة عربية ركيكة تستبدل فيها حاؤها بخائها وقافها بكافها:

ـ أنا باولو يا حبيبي.. ماذا تريد؟

ـ أرسلني إليك عم جودة من محل الملابس المقابل بعدما أبلغني أنك بحاجة إلى جرسون للعمل عندك..

عكف يدور حول الصعلوك متفحصًا بنيانه وملامحه ثم قال له:

ـ أعملت من قبل كجرسون في بار؟

ـ لا يا سيدي..

ـ وماذا كنت تعمل يا حبيبي؟

ـ راعي غنم..

ـ ومن أين أنت يا حبيبي؟

ـ من أسيوط يا سيدي..

ـ لهجتك غريبة وملامحك لا تقول أنك صعيدي أبدًا..

ـ أمي فلاحة وقد ورثت شكلها..

ـ شكلك لا تبدو فيه أي ملامح مصرية.. أنت أشبه بالأوربيين لا العرب.. عمومًا العمل عندي يبدأ من الثانية ظهرًا حتى الثانية صباحًا.. والمرتب أربعة جنيهات في الشهر.. مسئولياتك تنظيف المحل والكئوس وإحضار الطلبات إلى الزبائن.. مفهوم؟

ـ نعم يا سيدي.. أشكرك..

ـ أي شيء يكسر في المحل بسببك سيخصم من أجرك.. وأي تهاون في العمل فسأفصلك فورًا..

ثم زم شفتيه محذرًا:

ـ وإن سرقت كوبًا واحدًا من المحل فسأعلم، وساعتها سأرسلك إلى الكراكون دون شفقة.. اتفقنا يا حبيبي؟..

ـ نعم يا سيدي.. أشكرك..

ـ حسنًا.. تستطيع البدء من الغد.. فلا تتأخر..

أدار باولو ظهره للصعلوك معاودًا إصلاح الجرامفون الخاص به.. وظل الأخير تنازعه الكلمات ليفصح عما في صدره.. لكن باولو الذي التفت إليه متعجبًا عدم خروجه من البار استخرج ما في أحشاء عقله بسؤال مباغت:

ـ ماذا تريد يا حبيبي؟

فأجاب الصعلوك مرتبكًا خائفًا:

ـ أريد بعد انتهاء العمل النوم في المكان.. وأعدك يا سيدي أن أحافظ عليه نظيفًا سليمًا.. فأنا غريب عن هنا ولا مال لدي لأسكن في بيت ولا أهل لدي ألجأ إليهم..

ـ ها ها ها.. هكذا أثبت لي أنك صعيدي.. فكلكم تأتون إلى القاهرة دون تخطيط أو تفكير.. تلقون بأنفسكم إلى المدينة على أمل أن تتلقفكم

جنتها المزدانة كما تتوهمون أو تسمعون كذبًا عنها طوال عمركم.. على العموم حسنًا.. تستطيع البدء من اليوم، ودعني أصلح ذاك الجرامفون الإنجليزي العقيم..

ثم انتبه فجأة فاغرًا فمه كأنه ينوي تسديد سخرية أخرى، سائلًا:

ـ لكنك لم تقل لي اسمك ياحبيبي!

ـ اسمي أحمد بن زهير الحداد يا سيدي..

- 17 -

الجليل

باحة القصر الخلفية كعادتها عند الظهيرة.. جلبة وصياح توزيع الأرزاق.. هذا يدعو الله مثنيًا وذاك يكبت غيظه ويلجم نقمته ثم ينصرف، حشد من الناس يتحلقون حول بكر ينتظرون أن يتكرم عليهم ذاك البدوي بحصتهم العادلة من الزاد.. كل واحد منهم يبتهل إلى الله في داخله ألّا يكون دوره هو الموعود بالنقصان كما اعتاد بكر كل يوم بتصيد أحدهم لينهب حقه ويعطيه إلى من سيضاجعها في الليل.. وكيف يعترضون وهم يشاهدون حرسه ومعاونيه الثلاثة الأشداء الذين هم على أتم الاستعداد للتنكيل بهم إذا فتح أحدهم فاه بكلمة لا ترضي؟!..

الغلال تصب بحرص ومعيار في المقاطف.. والكساء يوزع على من لم ينله.. اللبن يسكب في القوارير وكذلك العسل، والماء يوزع بحسب عدد أفراد الأسرة الواحدة كل نفس لها ما يملأ نصف زير في اليوم.. أما المجيدون فيحصلون على الفاكهة المجففة.. لم يكن هناك لحم في ذاك اليوم لأن اللحم يوزع في يوم الخميس فقط من كل أسبوع لتطبخه النسوة في الجمعة كعادة أهل قريتنا.. واللحم أيضًا يوزع حسب مزاج بكر.. فالمقربون لهم القطعة الحمراء والمغضوب عليهم لهم الأحشاء والدهن وما يصلح فقط للمرق لا الأكل..

تحت ظل سحابة رمادية غطت نور الشمس الدافئ وقفت رغد متوارية ترقب فريستها وتتحين الفرصة للانقضاض عليه.. عيناها ملاصقتان لجسده المشدود وملامحه الجذابة.. حقًا إنه صيد ثمين لا يأتيه العوار من خلفه أو من أمامه.. حلق وجدانها في ربيع مستقبلها ورأت وليدها يلهو أمامها والخير يغدق عليها من كل حدب وصوب.. أحست بإجلال الرعية لها وتجلى أمامها حصنها الواقي من غدر الزمان.. كل شيء معد في رأسها.. حاكت خطتها بكل حنكة وخبث، لا يعيقها سوى انتظار الوقت الملائم..

وها قد حانت لحظتها المواتية إذ انصرف الجمع من حول بكر.. وانطلق المعاونون لترتيب المخزن وتنظيفه وبقي بكر وحيدًا يراقبهم وهم يؤدون مهامهم.. فخطت بأقدامها تجاهه تبش في وجهه لا تخشى المصير الأسود وجرم ما تنويه.. ثم حطت أمامه ورمقته بنظرة اصطلى بها وجدانه وهام من روعتها فؤاده.. قالت له بغنج:

ـ بعد العصر قابلني عند الكهف الصغير.. أريدك في أمر مهم..

واتسع ثغرها عن بسمة أطاحت بعقله وهي تنصرف من أمامه تاركة إياه بعقل مجذوب لا يصدق ما سمع وقلب يخفق حتى كاد يحطم ضلوعه والتحليق فوق السحابة الرمادية الشاسعة التي حملت له الحلم المستحيل.. صفع وجهه بكفه ليتأكد أنه ليس في أحد أحلامه التي يتوق فيها للمسها فهبط على الأرض وتحسس موضع أقدامها ثم طالع ظهرها فوجدها تنظر له وهي تبتعد بوجه يتلألأ كومضات الرعد في الليل المحاق.. لم يحمله جسده على النهوض وذرفت عيناه دموع الشوق والعشق.. هو لا يأبه في تلك اللحظة بكونها زوجة الجليل أي الخطر المحدق.. إنما هي عشقه المجنون..

ـ أحقًا يحمل ذاك الوجه الحب الذي آمل والرغبة التي أتوق للقاها؟!.. هي ورب الكعبة.. أنا أحفظ وجهها.. وما أتتني به لا يشي إلا بما حلمت

لنيله طوال عمري.. أواه يا رغد أواه.. آه لو تعلمين ما أحمله لك في قلبي لتركتيني ساجدًا تحت أقدامك بقية عمري ووالله لن أرفع رأسي حتى يأخذ الله النفس التي بين جنبي ويترك جسدي في جنته تحت قدميك..

انطلق يعدو ناحية أنس الحلاق حتى ولب إلى حمامه فدفع الرجل الذي كان يتحمم وأمر أنس أن يفرك بدنه ويدعكه بالزيوت الفواحة وأن يبدع في صنعه كأنها ليلة عرسه.. ثم خلع ملابسه في لحظة واندلق على اللوح الرخامي داعيًا أنسًا المتعجب من حاله بالبدء في عمله والذي اجتاز كل تلك العجلة الغريبة وابتسم سائلًا في خبث:

ـ أهي فتاة جديدة يا بكر؟!

ـ إنها ليست أي فتاة يا مغفل.. إنها طاوس النسوة كلهن وتاج رءوسهن.. سحر الفتنة وإبداع الخلقة..

ـ ها ها ها.. يومًا ما يا بكر سيقتلك افتتانك بالنساء..

ـ والله إنها لأجمل قتلة أن تموت دونهن.. ثم لا توجع رأسي بفضولك المقيت وانته بسرعة فليس لدي اليوم بطوله..

وبعدما فرغ أنس من غسل أدران بكر.. وبان جسده نظيفًا عفيًا.. خرج مرتديًا ملابسه بأناقة وأبهة ومضى يختال في الطرقات كحصان فارس.. هكذا هو دومًا تظهر على وجهه علامات الزنا متباهيًا بالذنب حتى لو كانت المرأة هي رغد!.. أسطورة النساء وعشقه المكبوت والعلاقة المحرمة.. ظل ينعطف يمينًا ويسارًا متحاشيًا الأعين المراقبة وتوسلات المارة لزيادة حصصهم من الكساء والغذاء والنسوة الخائنات لأزواجهن اللواتي يرمقنه بنظرات داعرة داعية والصبية اللاهون.. كان يرقب سفح جبل الغريب بوله ممنيًا نفسه بأن يحظى صلابته وقوة نفس ذئابه.. يحملق فيه كأنما شفت صخوره ورأى خلف بنيانه الصلد حورية الجنان مستلقاة على بطنها في انتظاره.. لم يشغل باله ببديهيات وجب على ذهنه

التفتق إليها مثل: لمَ دعته رغد؟!.. أو لمَ ظهر حبها فجأة بعد طول إنكار وصد؟!.. وهل هو إعجاب أم حب أم شهوة عابرة أم دعته لتحدثه في شأن يهمها؟!.. مازال عقله يفكر بطريقة غافلة ومتكبرة.. فالنساء كلهن بالنسبة له عاهرات حتى حب حياته!

صار وحيدًا في الخلاء لا يحيطه سوى ستر السماء والأرض الجدباء وبنيان الجبل الشاهق.. تسلق الصخور في سرعة قاصدًا الكهف الصغير الذي يخشاه الجميع لما تروى عنه من شائعات سكنى الأشباح ومخلوقات الظلام.. هو لا يخاف العفاريت لأنه يوقن بأنه مثلهم، لذا فالرجل لا يهاب قومه.. مضى بتؤدة يعدل في هندامه وينفض عن ثوبه غبار الطريق حتى ولج إلى فم الكهف المعتم، فتوجه ناحية حصيرته التي شهدت معظم آثامه والتي يخبأها وراء صخرة يعلم موضعها.. افترشها ثم أقعى على الأرض منتظرًا، تعلقت عيناه بجدار الكهف الصلب المشوه بعروق صخرية متقاطعة وغير منتظمة، إنه يبغض ذاك المشهد لأنه يعشق النظام في كل شيء بحكم عمله، ولا تألف عيناه سوى الجمال.. لكن سرعان ما اختفى ما أزعجه بين وهج الأحلام وطرق الفؤاد على لوح الصدر..

ظهرت أمامه رغد أخيرًا كجنية تسربت من كتب الأساطير!، وقفت صوبه بقدها الممشوق ولمعت عيناها بنظرة وقر سحرها في قلبه الذي اشتد وجيبه، وفضحت فطنته مغزاها، فهوى على أقدامها مقبلًا وهو يتأوه من فرط اللذة:

ـ آه يا مولاتي.. آه يا ملكة قلبي ومهجة روحي وعذاب نفسي.. آه لكم مزقني الانتظار ونكل بي حلم لمسك والاشتياق لضمك..

وفجأة هوى جلبابها على رأسه الملقاة عند قدميها.. فرفع عينيه تجاهها ليخفق قلبه خفقة كادت تودي بحياته وجحظت عيناه كأنما آنت ساعة احتضاره، وتجمدت أنفاسه حتى تصلبت رئتاه.. مد يده بتوجس

ليلامس حلمه فوجد جسدًا طريًا وقوامًا ميزته الأقدار عن كل النساء.. عندئذ أغمض عينيه وترنح في مكانه كما لم يترنح من السكر ذي قبل.. ارتجفت أوصاله، تموجت في جسده دفقات البرد وتفصد جبينه العرق الحامي حتى هبط كفاها الناعمتين على وجهه تمسحهما برفق وتجوبان ملامحه إلى أن استقرت أناملها على شفاه، حينها فتحت عيناه وشعر أن الزمان والدنيا قد تفسحا عن عالم جديد لم يدركه إنسي من قبل، عالم أبهى من صفحات الأحلام وأروع مما يتصوره الأتقياء عن الفردوس الأعلى.. فاندفع كالمحروم تقبيلًا على يديها، يصدح في أذنيه صوت ضحكاتها وكلمات المرح والدلال..

جلست على الحصيرة بقربه ودعته يجوب أرجاءها كما شاء.. تجلت أمامها ثمار المتعة يانعة فالتقمتها في فمها كما التقم بكر ثدييها.. غيبتها النشوة الحقيقية التي حرمت منها وصار الكهف القبيح للحظات أمام ناظريها كالجنة المزدانة.. أنستها مهارة البدوي ما تسعى إليه واستسلمت لشهوتها المقبورة تسبر أغوارها لتحظى بالسعادة الكاملة في حضن رجل حقيقي يعرف كيف يتلذذ بها ويسقيها النعيم عوضًا عن ذاك الصنم السجين لإرث أجداده الحبيس لحب خرافي.. تقلبا على مهبط الكهف في غبطة والتصق بجلديهما التراب الذهبي ثم أسندها إلى جدار الكهف الشائه وثبتها فيه بقوة، يلهث في وله ويبتسم في رغبة.. تمنيا لو انصهرا داخل الجدار فأكسباه هيئة مليحة وظلا هكذا إلى أبد الآبدين لا ينفصل أحدهما عن الآخر..

ـ آه يا بكر لو كنت أنت الجليل.. لصار ما تمنيته لحياتي دون ما حظيت..

تحت أفياء الكهف لصف وميض متعتهما.. غاصا في دأماء الشهوات باندفاع لا يردعهما وازع ضمير.. طفقت اللذة تدغدغ أوتارهما وتحفر

بأنوارها النشوة في نفسيهما.. شعرت رغد بنطفة بكر تلتصق في جدار رحمها في يومها الرابع واطمأنت لاستقرارها.. لكنها استمرت كالنار المستعرة تلتهم بكر ولا تشبع حتى انتبهت إلى حالها وملت كما امتلأت من البدوي في يومها العاشر الذي صادف استطاعتها إثارة شهوة زوجها الجليل ومعاشرته.. هنالك رفع آذان الفراق ودق ناقوس الافتراق.. تختلج في صدرها أمانيها القاسية مع ما غرسه بكر في قلبها من هوى.. لكنها امرأة قوية ذات عقل ناصح وقلب تستطيع ترويضه.. وما كانت تضمره من شر ناحيته أصبح الآن محتمًا عليه..

في لقائهما الأخير أشفقت رغد على بكر مما تزمع فعله فيه، فمنحته مضاجعة لم ينل مثلها جسده الرحال في عوالم الزنا، وأسمعته من كلام الحب ما يخر من روعته الصخر ويتبخر من حرارته الماء البارد.. في مرتها الأخيرة عادت إليها رغد التي عهدتها.. المرأة الصلبة التي لا تؤمن إلا بنفسها ولا تدخر جهدًا في سبيل إعلاء شأنها.. فقامت بدور العاشقة كما لم تقم به عاشقة من قبل!.. وبعدما فرغ منها أبلغته بوجوب ابتعاد بعضهما عن بعض لحين من الزمان لئلا يثيرا الشبهات وتنال منهما قبضة الجليل.. فانصاع بكر على مضض لقبول طلبها.. وتمنى لو أن الأيام منحته أكثر مما نهل من نبعها، يغمغم داخله هتافًا لازمه طيلة أيام عسله العشر:

ـ آه كم كنت محقًا إذ لم أساوِ قط بين رغد ونساء العالمين.. هي النعيم الحق وما دونها زيف وقرف..

* * *

لم يجلب سكون الليل على الشيخ سعدان سوى الذكريات المبهج منها والمخزي.. تلك أضحت عادته بعدما غادر حياة النعيم وألقيَ به إلى مراتب العوام.. يقف مطلًا من نافذة بيته بعين ساهمة تجاه القمر والسماء وجبل الغريب، لا يشغله ما يراه إنما ما يهيج في مخيلته.. حياته أصبحت

خامجة وأمله معدوم فيها أما أيامه فهي كلحظات السقوط من قمة الجبل منتظرًا الارتطام أو الموت..

لكنه في هذه الليلة يشعر بملل يفوق قدرته على التحمل.. فكر قليلًا كيف يقضي على ذاك الرنق المقيت لكنه بلا حيلة.. فهو لا يستطيع الذهاب إلى رجب السمّار ومخالطة الآثمين من شاربي عرق البلح أو الأنس بالحديث مع أحد الأصدقاء فقد أمضى حياته كلها منبوذًا متعاليًا.. لم يتبق أمامه سوى زوجته الذابلة التي اهتر عقلها من عزلتها الدائمة وحزنها السقيم الذي هو سببه.. الحياة قصيرة، وإن لم يعودا كما كانا من عشق وضحك وفرح ومرح سيلوكهما شبح الاكتئاب ويزيد سواد حالهما ظلمة عن عتمة القبر – هكذا أخبر نفسه..

تخلت يده عن إطار النافذة المستند عليه، وذهب عازمًا على استعادة ما تبقى له من روائع الحياة.. صفيته وخليلته وحبيبته المخلصة.. سخن الماء للاستحمام ثم نظف بدنه المترهل وتعطر بالطيب وارتدى أحد ثيابه الأنيقة القديمة.. كل ذلك فعله على عجل ليفاجئ زوجته المقبورة في سرداب الأسى والهم، ليستعيد تلك اللحظات الخالدة من ذكريات الحب بينهما.. هو لم يحاول ذلك من قبل حينما كان يشغله منصبه وكيفية الحفاظ عليه من دسائس الحاقدين، وابتكار خطب التملق والنفاق المتنوعة في الجليل ليرضى عنه.. أهملها كثيرًا وآن أوان العودة إلى من أفنت عمرها في قربه وأفل شبابها في خدمته وتحملت ما لم تتحمله أي امرأة في القرية من الأذى الذي صبته عليها أمه صبًا..

يشعر الليلة بأنه عاد شابًا من جديد.. الدم الفائر يمور في شرايينه ويفيض قلبه بومضات من الشغف للمتعة.. سيضاجعها الليلة ويسترجعا معًا حلاوة الماضي.. هو لم يقربها منذ زمن، منذ عزلتها عنه وانشغاله في تدبر السبل للبقاء في الإمامة.. إنما الليلة يحس بأن كل الأعباء قد زالت

عن كاهله.. هو حر طليق لا يحفل بما ستلقيه عليه الأيام من أعباء.. أخيرًا قد عرف ذهنه دروب الصفاء وعادت الحياة تدغدغ أوصاله..

مضى بفرحة طفولية إلى باب غرفتها، بوابة سعادته المأمولة.. كان وقع أقدامه على الأرض يكاد لا يسمع.. فقد ابتغى مفاجأتها بروحه الجديدة وحبه المبعوث من الزمن الجميل.. فتح الباب بروية ووقف قربها ليسمعها تناجي في تبتل قائلة:

ـ مولاي إبليس.. قد آمنت بك وصدقت عهدك.. وانتظرت بطول صبر تنفيذ وعدك.. الحال لا يخفى عليك.. فالكرب قد اشتد وسيف المهانة قد احتد.. وقد بلغت من العمر ما لا يسمح لي بأن أنال مثل ما فات.. مازال حديثك المشفق على حالي في تلك الليلة يتردد صداه في أذناي.. ونبوءتك التي حملها رسولك هي نور قلبي الذي يضخ فيه الحياة.. لم أقصر في عبادتك والابتهال إليك ويشهد على ذلك شياطين الصحراء من المخلصين لك مثلي.. ومازلت عند كلمتي بأن أهبك الغلام حالما تمنحه لي.. ترفق بي يا سيدي وعجل بفرجك وحقق لي ما ينتصر لي ولزوجي المسكين..

تحجرت عينا الشيخ سعدان وتوقف قلبه عن النبض.. قرض أسنانه وتفجر في عقله الذهول.. لم يصدق ما سمع وغيبه الظلام المحيط حتى أحس بأن جسده قد تلاشى وذرته الرياح.. ثم استعاد وعيه وصدمته رجفات حنقه.. تجيشت قوى الغضب داخله ومضت تغفقه للانتقام من الكفر الذي سمعه.. يهتف غضبه في صدره:

ـ اللعنة على ما خبأته جدران الدنيا عن مسامعي طوال عمري.. يالشقائي، لقد حلت عليّ لعنة الله وغضبه العارم بسبب تلك المجرمة.. تسجد للشيطان ليأتيها بالنعيم حتى أحل الله عليّ العذاب المقيم.. زوجة الشيخ سعدان تعبد الشيطان.. زوجة الداعي إلى الله تسجد لعدو الله!.. والله لأذيقنك إثم ما اقترفت وأقتلك يا فاجرة يا كافرة يا عدوة الله..

زأر بغيظ ارتجت له جدران الغرفة وتلقفته آذان الذئاب لتعوي بأنشودة الموت والدماء.. ثم انقض على رأسها بحجر وجده في زاوية غرفتها.. يهوي به عليها مرة تلو أخرى حتى تهشمت رأسها وصارت كالعجين اللدن وسال دمها على الأرض.. وفجأة خمد فورانه وانتفض عقله من بين ركام الحنق، رأى جسد زوجته المسجى ويديه الملطختين بدمائها، فألقى الحجر من يده وصرخ صرخة مفجوعة ارتطمت بسقوف السماء وهاجت لسمعها الذئاب طربًا وأيقظت كل من في القرية..

- 18 -

الصعلوك

في هدأة الليل تغشي سماء القاهرة الأنوار الصاعدة من الأسفل للأعلى.. وتنسكب على أذرعها الحيوات الليلية بصخبها المتواري في الأركان.. الحانات والكباريهات تعج بقاصدي المتعة والفارين من العذاب.. في تلك الأركان تسبح الضحكات الرقيعة في سحب الدخان وتقرع في الآذان الكئوس وسمر السهارى.. إنها الأماكن التي خالفت ناموس الكون وجعلت الليل معاشًا والنهار لباسًا!

أعجبت الصعلوك حياته الجديدة؛ بل اجترته للولع بها.. أحياء الليل غير سكان النهار.. فهم مرحون وجذابون.. مقبلون على الحياة برجاء الخائف وإقدام الفارس.. ينهلون من كل معين للمتعة ولا يشبعون.. موسيقى الجرامفون الخلابة ورقص الثنائيات وسط الصالة ونشوة الخمر وغزو الإنارة الخافتة لحصون الليل.. كل ذلك أيقظ داخله الرغبة في الحياة والاقتداء بزبائن الحانة، لذا جرب الخمر وجرع كأسه الأولى بمرارة في الفم وحرقان في الحلق.. فحاول التقاط أنفاسه وإرجاع دمه الفائر إلى مجراه الهادئ.. ثم رفع رأسه التي دارت كطواحين الهواء يتأوه بحشرجة، فلمح باولو يبتسم ناحيته قائلًا في مرح:

ـ تلك الكأس على حساب المحل أما إذا أردت كأسًا آخر فعلى حسابك.. ها ها ها

فابتسم الصعلوك مجاملة لدعابة باولو ورد عليه مختنقًا:

ـ لا أعلم ياسيدي كيف تتجرعون ذاك المشروب الناري بكل يسر!

مع مرور الأيام أحب الصعلوك العجوز الإيطالي باولو.. وجد فيه الأب الحكيم المرح إلا إذا تحدث في أمور المال فإنه يتحول إلى شخص حازم صارم.. يعود أصل باولو إلى مدينة جنوة الإيطالية.. كان يعمل مصرفيًا ويعيش حياة مرموقة يغبطه عليها المقربون.. منزل فخيم فاخر وزوجة ساحرة الجمال لها قوام يدرس في فنون المرأة ووظيفة ذات مقام رفيع، لا ينقصه غير طفل يملأ عليه حياته لكنه لم يستعجل قدومه لأنه في مقتبل العمر ومازال الوقت مبكرًا وسانحًا للإنجاب فيما بعد.. فزوجته روزيتا جميلة وفي ربيع شبابها ولا يجب إفساد جسدها المتقن الكامل بانتفاخات الحمل وترهلات الوضع كما أن وظيفتها كصحفية تحتاج إلى مجهود وتركيز قاسيين كي تعبر إلى سفينة الأمجاد كأعلام الكتاب..

وكعادتها الأقدار تخبئ تحت ابتسامتها خناجر الغدر وتتحين الفرصة لطعننا بها وذاك حينما ماتت روزيتا مقتولة على يد سفاح مخبول كانت تغطي جرائمه على صفحات جريدتها.. فخسر باولو عقله وانقضى ربيع أيامه قبل أوانه.. دام اعتكافه في منزله حتى فصل عن عمله وداوم على معاقرة الخمر كي تظل عيناه محتفظة بخيالات روزيتا وأذناه بصدى ضحكاتها..

جلب المحبون له الأطباء النفسيون كي يساعدوه على العودة إلى الحياة لكنهم أيسوا منه فقد كان ذلك آخر محاولاتهم الفاشلة ولم يجدوا غير نصيحة واحدة أسدوها له.. عليك ترك جنوة والسفر إلى مكان آخر كي تستعيد روحك مرة أخرى.. وبعد طول معاناة وعناد - قرر بيع كل ما يملك وهجر جنوة، لكن إلى أين يذهب؟!.. ظل ذاك السؤال يلح عليه راجيًا الإجابة.. وشاور نفسه قائلًا:

ـ إذا رحلت إلى مدينة أخرى في إيطاليا فسأظل كما أنا وسيشدني الحنين إلى جنوة حيث قبر روزيتا وشذى ذكراها.. وأوربا ممزقة في الحروب لا أمان أو استقرار فيها..

ثم تذكر الإسكندرية، تلك المدينة الساحلية المصرية العامرة بتلاوات التاريخ عن قصصها، ذات السحر الشرقي الخلاب التي لطالما تمنت روزيتا المحبوبة زيارة أرضها.. فارتحل إليها ومكث بأرضها بضعة أشهر لم يتبدل حاله فيها.. فهو طوال النهار والليل واقف في شرفة منزله المطلة على البحر يشرب الخمر ويستمع لنداءات روزيتا من الطرف الآخر للشاطئ حيث بلاده إيطاليا ويرد على نداءاتها بتأوهات قلبه المذبوح.. فأيقن أن استمراره في الإسكندرية ذات الظلال الرومانسية والجيرة البحرية لوطنه سيضاعف من معاناته لذا قرر الارتحال إلى العاصمة لينصهر في المدينة حتى تذوب أحزانه.. وفي القاهرة اشترى تلك الحانة من صاحبها اليهودي حيث عمل عقله المصرفي بإيجابية ناصحًا:

ـ إذا كنت ستظل معاقرًا للخمر مداومًا عليها فعلى الأقل لا تخسر مالك في شربها واجعل منها عملًا لك يجلب إليك الخلوة والسلوى وفي نفس الوقت الربح كي تعتاش..

وهكذا انسابت السنون من بين ضلوعه وهو غارق في أحزانه، منسي في ليالي القاهرة حتى جاوزت سنه الخمسين.. ألف المصريين وأحب نمط حياتهم.. وأعجبه وقع لهجتهم ذات الرنين المشابه للإيطاليين.. لكنه فضل الوحدة على الاختلاط بالآخرين لا يقرب منه غير آلة الجرامفون ليستمع إلى موسيقى الأوبرا التي كانت تحبها روزيتا، وقنينة الخمر التي تبقيه حيًا.. لكنه شعر مع الصعلوك بألفة وود فهدم حاجز العزلة المختبئ خلفه سنينًا طوال.. طاب له الحديث معه وحكى قصته له كاملة إلا أن الصعلوك ظل كاتمًا لسيرته المخبوءة في أعماقه لئلا يتعرض لأكبر مخاوفه وهو التنكيل والمعايرة.. كان لباولو حكمة يرددها دومًا

للصعلوك قائلًا:

ـ العارفون بالخمر الحقيقيون هم زبائن النهار.. فلا يبدأ أحد يومه بالخمر إلا إذا كانت آلامه تتعاظم مع كرور أيامه.. هم الموجوعون حقًا فعليك الاعتناء بهم يا ولدي..

كان العجوز محقًا في قوله.. ففي منتصف النهار يفد إلى الحانة ثلاثة زبائن دائمين.. اثنان منهما يعلوهما الهم والغم أما الثالثة هي امرأة فاتنة ذات شعر أشقر وعينان خضراوان وملامح منمقة وجسم نحيف كانت تجلس في ركن الصالة وتطلب كوبًا من البيرة ثم تنغمر في كتاب تقرؤه لا ترفع عنه عينيها إلا لإطفاء سيجارتها..

اثنان من الثلاثة زبائن كانت عادتهم واحدة عند العصر وهي شراء زجاجات الخمر ولفها في ورق بني غامق ثم الخروج ولا يعودون إلا في صبيحة اليوم التالي ونادرًا ما يأتون في الليل لكنهم لا يمكثون طويلًا لاعتلاء الضجر والاختناق وجوههم.. وتطبيقًا لنصيحة أو حكمة باولو اهتم الصعلوك اهتمامًا فائقًا بثلاثتهم حتى ألفوه واستراحوا له فدغر تخوم أسرارهم، وعرف حكاياتهم..

أكبرهم سنًا وأكثرهم صمتًا وحزنًا هو عتمان بك الشندويلي.. أحد الأعيان الأثرياء.. أصله خليط مهجن بين المصرية من جهة الأب والفرنسية من جهة الأم والتركية من جهة الجدة.. ملامحه الوقورة جمعت بين الأعراق الثلاثة بتوازن وإنصاف فعيناه زرقاوان وبشرته سمراء مثل طين الفلاحة وشعره فاحم ناعم مسدل على جنب كالأتراك.. سنوات عمره تخطت حدها السابع والخمسين.. أجبر على التقاعد من الحياة السياسية مبكرًا لقنوطه البالغ من تحقيق مدينته الفاضلة التي عكف عمره يرسم ملامحها بفرشاة خياله النزيه.. آمن بسعد زغلول وكان عضوًا فاعلًا في ثورة 1919 إلا أن أمله خاب في الوفد والوفديين لما شجر بينهم من خلافات وضيعة.. كان يتمنى اتباع السياسي الذي لا يخطئ.. كالقديس

الناسك أو النبي المعصوم.. حتى إنه حاول صنع من نفسه تلك القدوة إلا أن محاولاته باءت بالفشل لعدم امتلاكه موهبة الخطابة وأحيانًا الكياسة.. فعزفت عنه الجماهير قبل إنشاء حزبه..

أدرك عتمان متأخرًا أن حياته الخاصة قد دمرت تمامًا.. انشغاله بقضايا الوطن الخاسرة جعلته يفقد عائلته دونما يشعر.. فزوجته ذات الحالة الصحية المتردية والتي لم يفلح معها رحلات العلاج وتمريض الخدم توفت فجأة.. وكأن كل إنذاراتها السابقة لزوجها راحت هباءًا في ظل انشغاله عنها.. هكذا سقطت من حياته كحبة ندى من على ورق الشجر.. أما ولده الطبيب هاجر إلى إنجلترا، البلد المستعمر لوطنه وكأنه بذلك يثور على كل مبادئ والده ويسخر من نضاله الوهمي.. بل لم يكتفِ بالهجرة وإنما تزوج بابنة أحد الضباط الإنجليز، وعمل في إحدى مستشفيات لندن الخيرية يعالج المرضى برسوم رمزية وأحيانًا بالمجان تاركًا وطنه الأم يئن تحت وطأة الجوع والفقر والمرض والاستعمار والاستبداد..

ترك عتمان بلدته أنشاص واستأجر شقة في إحدى عمائر وسط البلد.. لم يهتم بأثثها كأحد الأعيان، واصطحب معه خادمه النوبي الأمين فتحي، ومكتبته العامرة بكل أنواع الأدب ومدارس الفلسفة والتاريخ والسياسة.. لا يكف عن إعادة قراءتها مرات ومرات كأنما يرجوها البوح له عن سر فشله وذهاب حياته دون جدوى بالرغم من نبل مقصده، وطول كفاحه، وإخلاصه في المسعى!

وهكذا لم يتبقَ له من حطام الدنيا سوى إرث عريض من الأموال وذكرى زوجته المتوفاة وإهماله لها في أشد أوقات احتياجها له والسخط على نفسه وعذلها لسوء تربيته لابنه حتى كبر وصار ورمًا خبيثًا يضاف إلى جسد وطنه المثقل بالوهن، شغله الحالي هو كتابة النبوءات عن القائد المخلص أو السياسي المنتظر في شكل أبيات شعرية نظمها بقافية وزنة في معلقة طويلة لم ينتهِ منها يصف فيها أدق درجات الكمال ومكارم

الأخلاق التي يجب أن يتصف بها السياسي المصري الذي سترى مصر على يديه النور والفلاح وما هي أماراته وعلاماته كي يعرفها الناس ويلتفوا حوله ليؤازروه ويساندوه لا أن يهجروه مثلما حدث معه.. ومنذ انتقاله إلى القاهرة وبدئه في كتابة شعره، عرفت الخمر جوفه وأبقت كل أوجاعه مستيقظة كما أحب أن تكون لئلا يكف عن جلد ذاته!

كانت جلسته المفضلة تحت لوحة زيتية مرسوم عليها امرأة عارية يشع وجهها نضارة وبراءة وجسدها طهرًا وفتنة، يلتف حولها رجال عرايا لهم أنياب كالذئاب يسيل لعابهم وتتقد أعينهم بالشرور بينما هي ملتفة حول نفسها ذعرًا.. كان يتناول الويسكي وهو يطالع الصورة باهتمام وتأمل دون ملل.. يرى في الفتاة الوطن المنكوب ويرى في الرجال الساسة الفاسدين والاستعمار الناهب.. وأحيانًا أخرى يرى فيها زوجته المسكينة حين مرضها وقد اجتمع على بدنها كواسر الآلام وجوارح العذاب.. عادة ما كان يخاطب الصورة هامسًا، مواسيًا تارة وغاضبًا تارة أخرى إذا بلغ منه السكر أوجهه..

أما الزبون الثاني فهو زهدي حنا.. شاب في الحادية والثلاثين من عمره.. عمله الوحيد هو تبذير ما ورثه من أموال عن والده المتوفى.. ينهل من الخمر كظمآن وقع في نهر بارد.. فأثر السكر على ملامحه بتهدل جفونه، واسوداد ما تحت عينيه، وشحوب وجهه، وهزال جسده.. أما هيئته فمزرية عادة وفي أحيانٍ نادرة في قمة الأبهة.. حسب حالات الأمل الشحيحة التي تنتابه دون جدوى!

قصته غريبة كهيئته.. زهدي ولد في حي الظاهر لأسرة قبطية متدينة تعمل في تجارة الأقمشة منذ زمن بعيد.. كان والده يعده لخلافته في مهنة العائلة بينما أمه كانت تنمي داخله معاني الحياة المجردة من المادة مثل الحب، العطف، المرح، رهبة الموت، ألم الفراق، قيمة الجمال، نشوة الفرح.. وغيرها من معاني حرمت منها بزواجها المبكر وقهر الظروف..

ولتعلقه بأمه لم ينشأ متدينًا مثل عائلته.. فعادة ما عزف عن دخول الكنيسة والامتثال لتعاليم الدين من صوم وصلاة..

لم يفلح معه تعنيف أبيه وتأنيب أسرته وتحذير المقربين له من مغبة البعد عن الله.. بل زاد شططه في الجامعة بعد التحاقه بمدرسة الحقوق العليا إذ ألحد وكفر بدين آبائه واعتنق الشيوعية كدين يكرس كل المعاني التي لقنته إياه أمه في صغره.. بعيدًا عن نعيم الجنة الزائف ووعيد الجحيم غير المنظور.. فقط الحياة هي ما يستحق العبادة وكل متعة هي فرض واجب على كل إنسان.. أما الأديان فهي أساطير حمقاء ابتكرها دجالون ليخدعوا البسطاء.. وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وجد وعمل ثم نعود للعدم كما كنا!

سرعان ما ذاع صيت زهدي في الجامعة بأنه الخطيب المفوه والمثقف الواعي والحالم الأنيق.. التف حوله أصدقاء كثر يشابهون تفكيره ويشاركونه الحلم والرأي.. ظن الكثيرون أن لزهدي مستقبلًا بازغ الأنوار تفيض بشائره.. فمدرسة الحقوق هي ما تخرج النوابغ أمثال: توفيق الحكيم، وحلمي بهجت بدوي، وسامي مازن، وعبد الحكيم الرفاعي، وغيرهم ممن لمعت أسماؤهم.. والقانون بالنسبة لزهدي لعبة حسابية ذهنية بسيطة.. الحجة بالحجة والقانون بالقانون، وكل طريق مسدود له مفتاح قانوني يشرع أبوابه..

في عامه الثالث بالجامعة وفي النصف الثاني منه تحديدًا تعرف على أميرة محمود.. الطالبة بكلية الآداب قسم التاريخ.. بل لؤلؤة الحاضر كما أحب أن يسميها.. رأى في فتنتها كل معاني الحياة التي يجب عليه اكتنازها.. الحب في شفاهها الوردية المكتنزة، والعطف في عينيها النجلاوين ذاتا المقل العسلية، والمرح في خفة ظلها وطرافة نكاتها، والخوف من الموت في إقبالها على الحياة النشط، ونشوة الفرح التي

تصيب فؤاده حينما يلمح ظلها، رجاحة العقل وحسن الاطلاع حينما تتحدث.. هي الكاملة من دون النساء حقًا..

كان يحكي لأمه كل شيء عن جمالها والأخرى تنتشي ويترنح قلبها غبطة إذ ترى شبلها قد أتقن فهم معاني الحياة كما فهمتها.. يخبرها بأدق التفاصيل عن أحاديثهما والشعر الذي كتبه عنها ويسألها السبيل لولوج قلبها والزواج منها.. هنالك توقف عقل أمه وصدمتها الوقائع وهالها ما سيذبح وليدها.. أيقنت الآن بسوء ما لقنته طوال حياتها لابنها.. الحلم الذي عاشا فيه طويلًا سينهار جداره تحت قذائف الدين والعادات والتقاليد والمجتمع.. هي تعلم الحب وتميز وهجه في العيون لشدة حرمانها منه، لذا فقد رأته في وجه ابنها وأشفقت عليه لما سيصير إليه حاله..

وحدثت المصيبة حينما صارح زهدي لؤلؤته بما يعتمل في قلبه من نوازع العشق، ويسري في روحه من جداول الهوى.. فصدمته بردها الرزين بأنها لا تفكر فيه كزوج أو حبيب بل كصديق فقط تستريح له وتأنس بوجوده، فهو مسيحي وعادات بلادنا وأهلهما ودينهما لا يسمحان بذاك التزاوج المدنس أن يتم، وهي على غير استعداد أو رغبة بأن تخوض فيما لا يحمد عقباه من أجل زواج محتم عليه الفشل.. فحاول برجاء المستغيث أن يثنيها عما يأمره به عقلها.. أخبرها أنه على أتم الاستعداد لتغيير دينه من أجلها لكنها رفضت لأنها تعلم أنه كافر بكل الأديان وأنه يروم فعل ذلك فقط لنيلها ثم سيعود كما كان.. والزواج بالنسبة لأميرة تقليدي بحت ليس قائمًا على المشاعر وحدها.. فالزواج عندها تزاوج أسرتين وتكامل لعقلين ليست مشاعر مجردة ستخبو على مر الزمن ولا يبقى منها سوى الأسرة والعشرة..

وحلت على رأس زهدي أفظع الكوارث بخطبة أميرة لزميل لها.. فازداد تعلقًا بها وولعًا بحبها ولم ييأس من محاولة نيلها بشتى السبل

حتى فقد عقله تمامًا حينما صرخ في وسط الجامعة ذات يوم معلنًا حبه لها، فاحتقره الجميع حتى أصدقاؤه الذين يؤمنون بما يؤمن به، وتجنبوه لجنونه، ولوثة عقله، صار وحيدًا مغمومًا، مسلوب العقل، فاقد الإرادة، ساخطًا على كل ما حوله من مجتمع زائف وأديان ألفها مختلون ليميزوا الناس بعضهم عن بعض.. وكانت النتيجة وخيمة برسوبه في الجامعة بعدما كان من النوابغ وصارت حادثة هتافه بحب أميرة في وسط الجامعة ذكرى تستجلب لرؤياه من أي أحد الازدراء..

آثر العزلة في بيته لا يكلم أحدًا ولا يتكلم، وانهال على الشراب المسكر ليعوض ما تفيض به عيناه من الدمع.. لا يدخل الطعام إلى جوفه إلا عندما تحشره أمه بأناملها في فيه وهي تبكي بحرقة لما ألم بابنها، وتلعن نفسها لأنها من فتحت أمام ناظريه كنز الحياة المسحور، ودلته على طريقة كشف ستره.. ثم مات أبوه وترك له تركة جيدة يصرف منها كما شاء على الخمر، فأهمل دراسته كلية وصار قربه من أسوار الجامعة يهيج الحزن في قلبه..

ترك بيت العائلة واستأجر شقة صغيرة في حي الزمالك ليبعد عن نواح أمه عليه ومحاولاتها المستميتة لإعادته إلى صوابه.. فلم تزده الوحدة إلا سقمًا وكآبة.. ولم يملأ الخمر جوفه إلا حبًا لأميرة.. لا يعبأ بمستقبله ولا يحفل بكرور الزمن.. حتى مضى على حاله تلك ثماني سنوات لا يتغير في أمره شيء سوى تنوع صنوف الشراب المسكر وزيارات أمه الموجعة لقلبها.. يعيش على أمل واحد يتجدد كل أمد بأن تترك أميرة زوجها وتسمح له بالعيش في رحاب جنتها.. لم يستطع نسيانها من فرط الصبابة والشوق ولم يقوَ على متابعة حياته لأن كمال أميرة لا يعوضه أي شيء.. فإما هي أو الموت دونها!

في كل ظهيرة يجلس على المقعد الطويل الملاصق للبار وتفتح أمامه زجاجة الكونياك فيطرق برأسه ناحية كأسه حتى يفضه بمرارة في حلقه ثم يملأ آخر.. أحيانًا تدمع عيناه.. وأحيانًا ينتحب حينما يطم الجوى إلى

أقصاه وتعصف أجنحة الذكريات في سوانح خياله.. وأحيانًا يبتسم إذ يتهيأ أمامه طيف أميرة المرح الأخاذ الزاخر بآيات الجمال.. إنما عادته الأصيلة هي الصمت المطبق والعينان الساهمان..

ألفه الصعلوك وأشفق عليه بعدما علم بقصته وأحس برغبة متفجرة ليشاطره رأيه في الإله وحكمة الخلق وقانون السماء الأعوج؛ لكن بحرص لئلا يفصح عن سر ماضيه.. فزهدي هو تجسيد لكل معاني الألم، وإلحاده تابوت فسيح يسمح للصعلوك بدفن ما يجيش في صدره دون خشية.. لم يَهب القرب منه فزهدي شخص وديع لا تبدو عليه علائم الغلظة حتى في أشد لحظات سكره وغياب عقله المسحوق في غياهب الهوى.. لذا عزم على البوح له دون تردد..

ـ أنا أعلم سر عذابك يا أستاذ زهدي..

حملق زهدي في وجه الصعلوك الذي يكسوه الإشفاق ويختبئ تحته جلده الغضب العارم.. ثم أدار وجهه إلى كأسه سائلًا في لا مبالاة:

ـ وما هو يا أحمد؟!

ـ الله..

فاختطفت الإجابة سلطان عقله ليعود بناظريه إليه مهتمًا:

ـ الله!.. كيف؟!

ـ الله خلقنا ليستلذ بعذابنا.. هو لا يعرف الرحمة ولا يدرك معنى العدل.. يستمد خلوده من أناتنا وتتهلل أساريره بحسراتنا.. تنبسط دنياه بماء دموعنا وتدب في جسدها الحياة بنزف دمائنا.. هو يعبث بنا.. خلقنا للهو فقط ونصب نفسه مليكًا علينا دون إدراك لهول فعلته.. لمَ خلقنا بأرواح وأفئدة وجسد فان ضعيف؟!.. لمَ حجب عنا رؤياه وصوته وسرعة غوثه؟!.. لمَ خلق الجنة والنار والكون والملائكة والجان والحيوانات والهوام؟!.. إذا كان في غير حاجة إلينا فلمَ خلقنا؟!.. فقط

للعبث والتسلية.. أنا أعلم أني هالك بما أقول ولا نجاة لي من غضبه.. أحس بوهج جحيمه وهي تلفحني من فوق سبع سماوات كما أوقن بأنه قدَّر عليّ ذلك قبل أن يخلقني.. لكني لا أملك سوى قول الحقيقة ولا أستطيع تجاهلها.. الله فقط هو الظالم وهو سبب كل مصائبنا..

ابتسم زهدي بتعالي المثقف، وشفقة العالم وهو يتفحص وجه الصعلوك المشدود، المؤمن تمام الإيمان بما يقول.. أدهشته كل تلك الضغينة ناحية الله والجرأة على ذاته في مجتمع متدين ينبذ أمثاله ويفتك بهم، لكنه لم يسعَ لفهمها أو تتبع أصلها، لذا رد عليه بهدوء قائلًا:

ـ قد يكون معك حق إذا كان الله موجودًا ولم تخلقه أساطير اصطنعها من سبقونا ليُكسبوا أنفسهم قدسية ويصبغوا حياتهم بهالة التبجيل.. يا عزيزي أحمد الكون ما هو إلا صدفة بحتة.. والإنسان والحيوان من طينة واحدة خلقتهما تفاعلات مجهولة في الطبيعة.. أما الحب فهو عيبنا الدائم ونقصنا الدميم..

ـ الله موجود يا أستاذ زهدي.. كل ما في الكون يصرخ مصرحًا بوجوده.. كيف للطين يصير إنسانًا دون نفخ الإله فيه من روحه؟!.. وما الحب إلا جزء من الروح التي وصفتها بالمعيبة.. الله هو من خلق الأنفس والثمرات والنهر والحيوانات والجبال.. وقدر لكل قوته وميلاده وفنائه ونسبه..

أحس بثقل في لسانه حينما نطق كلمة نسبه وكأنما ينذر نفسه بألا يتمادى في الكلام وبالأخص أنه دون جدوى لأن صاحبه لا يشاركه العداوة تجاه الإله.. لكن وجه زهدي امتقع واحتد في كلامه قائلًا:

ـ أتعلم حقًا من هم أعداؤنا يا أحمد؟!.. إنهم الناس بعاداتهم البالية وتقاليدهم الوقحة وتفكيرهم العقيم ومشاعرهم الجامدة ونفوسهم الخربة وأديانهم الموتورة وتصنيفاتهم غير المنطقية وجهلهم الفج بإنسانيتهم.. إنهم البشر يا أحمد من يعلون الأسوار الفاصلة بينهم ويذكون نار الضغينة

في عالمهم ويستبيحون بعضهم حرمات بعض ويسفهون من أحلامنا وآمالنا ومشاعرنا.. ليس لإلهك إن كان موجودًا دخل فيما نعانيه.. أتفهم؟!

عزم الصعلوك الرد عليه لكن نظرة باولو التي أشار بها له بالابتعاد فورًا من أمام زبونه هي ما جعلته يتقهقر ويرتد إلى العمل تنازعه جملة واحدة في حلقومه ود لو ألقى بها وهي:

ـ لكن الله هو الذي خلق الناس وهو القادر على ردعهم..

* * *

في ممر مفروش بالسجاد الأحمر المزركش في أحد أروقة مبنى إدارة القلم السياسي في الإسكندرية كان يمضي بخطوات مستقيمة متزنة يُسمع طرق نعليها على الأرض بوضوح وهما يسيران بكل ثقة وقوة حتى يكاد يُهيأ لك أنهما تركلا مؤخرة الهواء الهارب من أمامهما.. لم يشح بنظره يمينًا أو يسارًا.. صاغرًا خده.. لا يلتفت لتحيات المارة والواقفين ممن هم أقل رتبة.. تحسس شعره الفاحم الناعم برفق حرصًا منه على ثبات خصلاته المدهونة بالزيت ثم دعك عينيه ليقذف آثار الوسن عنهما، شد ربطة عنقه وهو يغير اتجاهه ناحية باب عملاق واقف عليه اثنان من العساكر، ألقيا له التحية مع دقة بأقدامهم اليمنى على الأرض بينما هو غير عابئ بهما فطرق الباب طرقتين متتاليتين.. ليسمع بعدها إذنًا بالدخول..

فتح الباب العملاق بقبضة يده الغليظة.. الباب الذي يكمن وراءه مكتب ضخم يقف عند نهايته رجلٌ شديد الدهاء به كثير من شيب قد تخطى العقد الخامس من عمره.. ممسكًا بطرف ستارته المعتمة، ومزيحًا إياها قليلًا لاستغراقه النظر إلى ما وراء النافذة..

توقف عند الطرف المقابل من المكتب وتنحنح بصوت خفيض فالتفت إليه الرجل الأشيب ببطء ثم أشار له بالجلوس.. فسارع صاحبنا بالجلوس وهو مخفض رأسه هيبة لمكانة الأشيب وبدأ الآخر في الكلام

بإنهاك وبرم قائلًا:

ـ البلد تعج بالفوضى يا أنور.. الحال أضحى جنونيًا يشل العقل ويثقل الكاهل بالحمول.. الملك يسير عكس اتجاه الحكومة والإنجليز.. والإنجليز يتسلطون على رقاب الحكومة وعلى رأس الملك.. والحكومة لا تكف عن تهييج الشعب ضد الملك والإنجليز من أجل مصلحة الأحزاب التي يمثلونها.. والأحزاب لا تكف عن توزيع المنشورات الناقمة على الإنجليز والملك والحكومة.. والباشوات في وادٍ والشعب في واد.. وطلاب الجامعة والأزهريون لا تكاد تنتهي لهم مظاهرة حتى تشتعل أخرى.. وهناك أيضًا الحرس الحديدي الذي هو ثلة من المخبولين.. والإخوان المسلمون الذين لا يملون من استعراض عضلاتهم أمام الحكومة والأحزاب والملك والإنجليز واليهود أيضًا.. أما اليهود فقد أضحوا جميعًا خونة، ولاؤهم لدولتهم الجديدة، لا يتورعون عن تفجير مصر من أقصاها لأقصاها.. كل ينهش في لحم الكل، والكل يطلب منا تحمل المسئولية والحفاظ على أمنهم وسلامة الوطن، والكل أيضًا كاذب ومنافق.. لقد سئمت كل هذا وأود لو أتبخر من هذا العالم اللعين..

ـ سلامتك يا حيدر بك.. هذا قدرنا.. والقدر لا يوكل المهام الجسام إلا للرجال..

أدار حيدر رأسه للنافذة مرة أخرى بانزعاج واختناق.. كان يعلم برد أنور قبل أن يجيبه، فعذل نفسه لأنه أضاع وقته وانتقص من كرامته في الحديث مع من دونه في كل شيء.. في العقل والإحساس والمنزلة الوظيفية والاجتماعية.. لذا استطرد لينهي اجتماعه المقيت معه قائلًا بنبرة صارمة:

ـ سأنتقل بعد يومين لترأس القسم المخصوص التابع للسراي مباشرة.. سأصبح قائد البوليس الملكي.. وستتولى أنت مهام الإدارة هنا حتى يصدر مرسوم ملكي بتعيين من يخلفني..

فهتف أنور بهياج مفتعل قائلًا:

ـ هنيئًا لك يا حيدر بك.. أنت لها.. فنعمَ الرجل القوي النشيط الذكي المخلص الـ..

أشار له حيدر بك بظاهر يده داعيًا إياه للكف عن تملقه ثم انصرف من أمامه وهو يخاطبه بقرف قائلًا:

ـ سأعود إلى المنزل الآن، فأمامي العديد من الأمور كي أرتبها قبل سفري إلى القاهرة ولن آتي سوى في صبيحة الغد لأودعكم؛ فاحرص على تواجد الرجال جميعًا.. سلام

ـ صحبتك السلامة يا حيدر بك..

ألقى أنور بجسده الفارع الطول على الكرسي الإسفنجي الوثير.. ورفع قدميه على سطح المكتب.. أمسك بخنجر مطلي بالذهب وداعب بسنه الدقيق طرف أنملته.. أغمض عينيه بعدما أثقلت رأسه بالأفكار والطموحات.. ها هو في عامه الثالث والثلاثين يستعد لاستقبال ما ينتظره أقرانه في سن الخمسين!.. المنصب الرفيع، والسلطة المطلقة، والجاه العظيم، والراتب الضخم..

طوقته أحلام اليقظة وذكريات الماضي.. هكذا هي عادته عندما يخطو خطوة للأمام في حياته.. يسترجع كل ما سبق منذ البداية حتى تلك اللحظة.. ها هوذا يتذكر شقاء طفولته كأخ لأحد عشر صبيًا وفتاة كان ترتيبه بينهم السابع في شقتهم ذات الثلاث غرف في حي الدراسة التي تشرف واجهتها العريضة على المقابر وأشباح الموتى.. والده الباشكاتب في وزارة الحقانية ووالدته التي كانت تخبز القرص وتقف بها أمام القرافات لتبيعها لأهالي المتوفين وأقربائهم..

غص حلقه بمرارة الماضي ومضى عاصرًا مخه ليستنزف المزيد من الذكريات المؤلمة.. كيف كان يضطر للمذاكرة تحت أعمدة الإنارة في

الشوارع ويمشي لاصقًا فخذيه لئلا يكشف أحدهم الرقع المنتشرة في بنطاله حتى مطلع عورته.. كيف كان يتدافع مع إخوته على صحن الفول في سباق مجنون لئلا ينفد ما في الطبق قبل أن يشبع أحدهم وكيف أن تلك العادة مازالت ملازمة له في الطعام على الرغم من توافر النعم وحياته العازبة.. كيف كان يضطر لارتداء ملابس إخوته الأكبر منه المزدحمة بتشوهات الخياطة والفاضحة للنسيج المهترئ.. وكيف كان يراقب أبويه وهما يتشاحان ليل نهار على المصاريف ومشاكل العيال وكيف ظل تفترسهما آفات المرض والفاقة دون مقاومة منهما لعدم امتلاكهما المال.. تذكر مشهد والده وهو يدخن السبارس لعدم قدرته على شراء علبة سجائر ومنظر أمه وهي تراقبهم يأكلون مكتفية بغمس اللقيمات الناشفة في الزيت لتقتات بها..

كانت أيام السعادة شحيحة ولا تزور عتبة باب منزلهم إلا بقدوم عريس يزيح عن والديه أحد أثقالهم من أخواته السبع.. فعلى الرغم من فقرهم المدقع إلا أن الله منحهم جمال الخلقة وإشراقة الوجه البازغة من بين شحوب الجسد وهزاله.. لم تكن زيجات إخوته البنات من رجال أوفر حظًا من والده إلا أنهم بكل تأكيد ليسو أسوأ منه حالة..

على الرغم من مرور أكثر من خمسة عشر عامًا على إطلالة ذاك اليوم الذي غير مجرى حياته وانتشله من الضياع إلا أنه يتذكره بكل حذافيره.. منذ صبيحته ذات الحر القائظ وخروجه حاملًا سلال القرص مع أمه تجاه القرافة بعد حصوله على البكالوريا وانتظاره التوظيف في وزارة الحقانية مع والده..

جلس مع أمه على الأرض وأسندا ظهريهما إلى الحائط تحت ظل شجرة جافة أوراقها ذابلة منتظرين مرور أول جنازة من أمامهما.. المشهد معتاد ومألوف له.. نساء متشحات بالسواد ينتظرن قدوم الجنائز للصراخ والعويل مقابل أجر مقنع تحت اسم الصدقة، وقراء القرآن يتلون آيات

الله بصوت رخيم سائلين الإحسان.. وبائعي القرص المتناثرين مثل أمه..

هلت أول جنازة حاملة فوق أكتافها الأحزان والأرزاق!.. تصحبها الدموع الملتاعة، ونشيج البكاء.. فتحلق حولهم المتسولون وقراء القرآن بينما مكث بائعي القرص والنادبات مكانهن لأن الجنازة بدت لشخص ذي هيبة وأقارب أثرياء ينتسبون إلى علية القوم الذين يزدرون أفعال اللطم والصراخ ويتقززون من تناول القرص أو شرائها..

كانت الجنازة لأحد البشوات يسير في ركبها من لا يقلون هيبة عنه، وعلى مقربة من مجلس أنور مع والدته كان مدفن عائلة الباشا.. ظل الفتى الوسيم المهذب يرقب الجنازة في إجلال مطبق الفم مثل والدته التي توقن بعدم جدوى النداء لبيع بضاعتها..

في مؤخرة صفوف الحاضرين كانت النسوة يرتدين الثياب الوقورة السوداء ويمسكن في أيديهن المنعمة المناديل القطنية البيضاء يكفكفن بها دموعهن.. كانت دولت هانم شوكت على عهدها صلبة أبية لا تحفل بموت قريب أم بعيد.. فجذب منظرها عيني أنور ليحملق في وجهها الفاتن برغم تجاعيد الكبر وقوامها المرسوم بعناية، الهاتف بتفاصيل حدوده الشهية تحت فستانها الضيق.. وبينما هي تتأفف من الغبار المثار حولها وتطبق المنديل على أنفها لمحت من يحدق فيها دونما يشيح بوجهه عنها.. بادلته التحديق لكنه ظل على حاله لا ينزل عينيه من عليها.. تعجبت في بادئ الأمر من جرأته وإصراره المتبجح على التفرس في تكوينها ثم أعجبتها وسامته وبنيانه الممشوق وعيناه المحدد جفونهما بسواد كأنما كحل على يد امرأة خبيرة وليس مولود بهما!.. وعلى الرغم من ملابسه الرثة إلا أنها رأته بهي الطلة..

وبعد طول سجال الأعين أشارت له بطرف أصبعها فتحول عنها ينظر يمنة ويسرى قبل أن يدرك أنها تستدعيه هو.. فهرع ناحيتها متزلفًا بكلمات تعلمها من رؤية والده وهو يخاطب مديريه في العمل قائلًا:

ـ تحت أمرك يا هانم..

رمقته بنظرة ماكرة تجمع في طياتها الغرور والغواية وردت عليه باستعلاء قائلة:

ـ ماذا تبيع يا هذا؟!

ـ القرص يا هانم.. رحمة ونور على المتوفين..

ـ آه.. وبكم الواحدة؟

ـ بمليم يا هانم..

ـ أها.. إذًا هاك جنيهًا ووزع تلك الأقراص على الشحاذون..

ـ بارك الله فيك يا هانم وأكثر من أمثالك.. بارك الله فيك..

أعطته جنيهًا بيد عليا كأنما تدعوه لتقبيل يدها ثم أدارت له ظهرها عازمة على الرحيل لكنها توقفت بعد بضع خطوات قائلة في استدراك:

ـ اسمع يا هذا..

ـ محسوبك أنور يا هانم..

ـ غير مهم.. اسمع.. أريدك أن تمر على فيلتي في عصر الغد لأعطيك بعض المال كي تخبز الكثير من القرص وتوزعها على الفقراء.. المرحوم كان غاليًا عليّ ويستحق..

قالتها بمرح وقح لا يتناسب مع هيبة المشهد وهي تلقي له على الأرض كعظمة لكلب بورقة صغيرة دونت عليها في سرعة عنوان فيلتها.. فالتقطها أنور ونفض عن الورقة الغبار وتهلل وجهه بابتسامة وفي نفسه الغبطة بذاك الخير الوفير الذي لم يتحسب له..

في اليوم التالي كان مرق اللحم الذي تناوله من مال المرأة ينضح من جلده المكتسي ببنطال وقميص جديدين وهو متوجه إلى المعادي حاملاً لسلتين بهما القُرص السادة والمحشوة بالعجوة.. شعره مصفف بعناية

وذقنه لامعة وعبق الكولونيا الرخيصة يفوح منه.. تراءى له عالم آخر غير ما اعتاد مشاهدته.. الوجوه المنعمة لا المكفهرة، الطرق المرصوفة لا المهشمة، النضارة والنقاء لا الغبار والعطن، الهدوء الساحر لا الضوضاء المنفرة، الأشجار المورقة والورد الملون لا المقابر والصحراء، البيوت الأنيقة بحدائقها الغناء لا المباني الهالكة المتداعية، رضا السماء وظل جنانها لا جحيم الفقر والمرض..

وصل إلى فيلا دولت هانم شوكت في الموعد المتفق عليه.. لم يحفل بنظرات الخدم المحتقرة له ولما معه، إنما جال ببصره في الأرجاء البراقة.. كل شيء حوله مبهرًا.. التماثيل المنحوتة، المرايا العملاقة، الأواني الفخارية المنقوشة، السجاد الإيراني الفخيم، الكراسي المذهبة، الثريات المتلألئة كنجوم الفضاء، السلم الرخامي الحلزوني بسياجه الفضية اللون، لوحات العري المثيرة، الخدم الأنيقون.. تمتم داخله مشدوهًا:

ـ أسقطت الجنة على الأرض أم أنا الذي صعدت إليها؟!

ومن الأعالي هبطت عليه تختال في فستانها الأحمر.. كان شذاها يسبقها بخطوات كأنما يمهد الأرض تحت أقدامها.. نظراتها غامضة متكبرة، مثيرة هازئة.. أمرت الخدم بالانصراف من أمامهما بنظرة واحدة دون أن تتكلم.. ثم قالت لأنور بلهجة متغطرسة وهي تطالعه من فوق إلى تحت:

ـ اترك تلك السلال هنا واصعد معي إلى فوق كي تأخذ حسابك..

ارتقى وراءها السلالم مشتتة عيناه بين مؤخرتها المكورة تحت تنورتها الضيقة وبين ما خبأه الأعلى من فتنة ثراء لا تقل عن الأسفل.. فتحت باب غرفتها الأنيقة ودلفت إلى داخلها ملقية بقبعتها على السرير حتى استرسل شعرها حرًا طليقًا كنسمات الربيع.. نظرت إليه بشزر قائلة:

ـ أغلق الباب وراءك وتعال إلى هنا..

في سرعة نفذ أنور أوامر دولت هانم وتسمر أمامها متحفزًا لتلقي أوامر أخرى كالجنود أمام ضباطهم.. هنالك تلقى صفعة طوحت برأسه وفجرت مواطن الذهول فيها.. انقضت عليه بكلتا يديها تشد شعره وتدفع رأسه إلى أسفل قدميها قائلة في غضب:

ـ قَبِّل تلك الأقدام أيها القذر والعقهما جيدًا..

كان ما حدث أقوى من قدرة استيعابه.. أحس بالخوف يجتاحه ورغبة في الانتقام والتعجب حتى شلل الدماغ.. قفزت فوقه مثل الفلاح الذي يعتلي بغلته تمزق قميصه بأظافرها وتشد بنطاله من خصره.. كانت ثائرة حتى الجنون تصرخ قائلة:

ـ يبدو أنك لا تفهم يا بهيم.. اخلع ثيابك كلها ونفذ ما أقول وإلا استدعيت الشرطة وألقيت بك في غياهب السجون..

لم يجد أنور مخرجًا سوى إطاعتها، ترتجف أوصاله مما ستحمله لحظاته القادمة مع تلك المرأة المختلة.. هو لا يفهم شيئًا، لمَ تضربه وتعنفه؟!.. هو لم يؤذها من قبل كي ينال ما يحدث له.. لكنه موقن بقدرتها على نفيه إلى سابع أرض وصب العذاب فوق رأسه صبًا لو لم يطعها.. لذا انصاع مرغمًا وخلع ملابسه، ووقف مرتعشًا أمامها كفأر يواجه أسدًا.. حينها مسحت بكفها على خده قائلة في وداعة:

ـ أخائف أنت يا كلبي العزيز؟!.. إن أعطيتني ما أريد، فسأوصلك إلى الجنة.. وإن فشلت، فسأطعمك لإخوتك من كلاب السكك غير مأسوف عليك.. فهمت؟!

ـ نعم سيدتي.. سأفعل ما تأمرينني به لكن أرجوك لا تؤذيني.. أنا مسكين ابن مساكين..

ـ صه..

صفعته مرة أخرى فأرغفت أنفه ودمعت عيناه واحمر وجهه عن

آخره.. ثم راحت تركل مؤخرته العارية وتضربه بحزام جلدي ذي رأس حديدي وهو يتأوه ولا يقوى على الصراخ.. يصبر ولا يستغيث.. يفزع ولا يهرب.. حتى أنهكها الجنون فدفعته إلى السرير وأنهضت ذكورته بهدوء ودربة ثم اعتلته وأوصلت جسديهما تقفز بنشوة كموج البحر الهائج ثم تهبط كانحساره حتى فار زبد أنور وخمدت فحولته.. فارتمت فوق جسده تغطيه بجسدها العاري، تلثمه في حب وهي تقول في وله:

أحسنت يا أنور.. أحسنت يا حبيبي..

نهضت من فوقه، وارتدت ملابسها في سرعة ودعته لارتداء ملابسه، فانطلق ينفذ لئلا يثير غضبها.. ثم جلست على كرسي قريب من سريرها وأشعلت سيجارة ودعته أن يأتيها بحقيبتها.. فتحتها وأخرجت له جنيهًا ثم أعطته إياه قائلة في لهجة جادة:

ـ لقد كنت جيدًا حقًا.. وأنا لا أدع المجيدون أمثالك يفلتون من بين يدي.. معي سترى ما لا عينٌ رأت أو أذن سمعت وستنال كل ما ترغب ما دمت تؤدي ما آمرك به.. وإن عزفت عني، فسأجعلك تندم على اليوم الذي ولدت فيه.. هيا اذهب الآن وأراك بعد غد في الليل..

وهكذا نشأت العلاقة المجنونة الأبدية بينهما.. بين الفتى الوسيم العفي الفقير والمرأة المتصابية الثرية المهووسة بتعذيب الرجال.. قاسى كثيرًا على فراشها ويلات التنكيل، لكنه سرعان ما يتناسى أوجاعه عندما يتلقى ثمن عبوديته.. أضحى جسده مشوهًا بالتورمات، وآثار السياط ولسعات السجائر، والندوب؛ لكن في مقابل الجنيهات التي أسرت به إلى جنات البرزخ هو لا يعبأ بما يُجرى له، حتى احترف الذلة وتمثيل الألم لإرضائها!

دولت هانم هي سيدة من عائلات الإقطاع المعدودين الذين امتلكوا نواصي مصر وخيرها.. هي كالأخطبوط ولها سلطان في كل مكان من السياسة حتى دور الأيتام.. تمقت الضعف وتزدري صنف الرجال عامة

بالأخص بعد طلاقها من أحد أمراء العائلة المالكة المخنثين.. تعيش وحدها في فيلتها في المعادي وتعتاش من أموال عائلتها وإرثها الذي لا تستطيع هضمه النيران وتمارس هوايتها الجنسية المفضلة كلما عنَّ لها ذلك مع الشباب الفقراء الذين تتصيدهم.. لكن أنور استطاع أن يتربع على عرش سريرها دون أن تشعر ناحيته بالملل أو النفور.. فهو متجدد في المعاشرة ويعرف كيف يرضيها بشتى الطرق ودومًا عنده الجديد من الهوان الممتع لها..

ولعلاقتها المتينة باللواء سليم زكي حكمدار القاهرة استطاعت دولت هانم إلحاق أنور بمدرسة البوليس وهكذا فتحت له أبواب الدنيا على مصراعيها وبالأخص بعد تخرجه وانتقاله للعمل عند صديق سيدته سيادة اللواء حليف الإنجليز في إدارة القلم السياسي ثم احترافه مهنة التعذيب كمصدر دخل له.. فأصابته تلك السادية التي يحياها بالجنون التام، وأصبحت الآلام هي غذاؤه وحظه من الدنيا، يسقيها للمعارضين ويتجرعها من دولت هانم!.. هجر أبويه ولم تربطه بهما أو بإخوته أية علاقة سوى الجنيهات التي يرسلها كل شهر إلى أهله لأن شبح الماضي أكثر وحشية من كل الآلام التي يبحر بين ضفتيها..

التقط سيجارة من علبته الفضية وأشعلها ببهجة وهو يصل بخياله إلى شمسه المقدسة وهواه الراسخ وعشقه الضارب بجذوره في أمد الزمان – هند بنت زهير.. المرأة التي تفوق في بهائها آلهة الجمال الوثنية الإغريقية وحضورها يبتهج له الوجود أكثر من موسم الربيع، وابتسامتها تأسر متلقيها كسحر المهرة من المشعوذين، وجسدها المتقن كأنما اجتمع على نحته فنانو أوربا بأسرهم.. هي عشقه المخبوء، وسره المطمور ولذته الخفية، وقمره المحبوس..

كان يوم لقائهما قبل ثلاث سنوات هو اليوم الذي جثا فيه على ركبتيه أمام سلطان الهوى.. رأى في عينيها براءة مشعة وهمًا دفينًا.. شغفته حبًا،

فهجت نار عشقه هجًا من اللحظة الأولى.. شغلته بلهجتها الفصحى، وصمتها الدائم.. روحها الحبيسة في قرار لا يصله، وابتسامتها النادرة.. آه من ابتسامتها، فهي مهد الحياة الذي رمى بجذوره فيه ليرتوي من نبعها ويشب في بهجتها..

في أحد بيوت الهوى الرخيصة القريبة من شارع محمد علي أهداه القدر جوهرة تاجه.. سمع حكايتها من القائمين على الدار فتهشمت جدران عقله من الغرابة.. كانت قصتها أسطورة مثل جمالها، تسللت من بين كتاب ألف ليلة وليلة، قريتها المجهولة وتاريخها العجيب، هروبها الجريء وموت حبيبها علام في الطريق إلى أرض البشر من الجوع والظمأ، سبيها على أيدي الرعاع والأوباش، وحزنها المتقد دومًا، فقرر بعد تملك هواها منه أن ينقذها من أسر البغاء ويجعلها محظيته الخاصة.. بالطبع حاولت الست بتعة وزوجها القواد منع أنور من ذلك إلا أن سلطان الأخير يفل الحديد فلم يستطيعا الوقوف أمامه..

اصطحبها معه إلى كل مكان يرتحل إليه حتى استقرا في الإسكندرية.. يبتاع لها أفخم الملابس وأثمن المجوهرات لكنها عازفة بقلبها عنه.. تمنحه جسدها وقتما يريد وتجيب أسئلته باقتضاب لكنها لا تبادئه الحديث.. تمرغ تحت أقدامها ليحظى بهوى فؤادها لكنها كانت كالصخر لا تشعر بلوعته.. أحيانًا يضربها مهتاجًا ويدهس رأسها حتى تكاد تلفظ أنفاسها أو تهرب من البيت لكنه يلحق بها قبل أن تذوب في تيه الدنيا وتسلبه عقله بمفارقتها.. بالطبع لم يستطع الزواج منها خوفًا على مركزه وسمعته كما أن ماضيه كرجل أتى من حي شعبي يحول بينه وبين استئمان بغي على شرفه بالرغم من حبه لها!

قنع أنور بحياته هكذا عبدًا لامرأتين.. كلتاهما تذيقاه المرار وتجشماه ما لا طاقة له به.. الأولى شغلتها تعذيب جسده والثانية سحق عقله وقلبه.. لا يقوى على مفارقة إحداهما وإن زادا في معاناته، فهما تستطيعان إنهاء

حياته بمنتهى البساطة.. لذا اكتفى بمطالعة نصف كوبه الممتلئ كي يشعر بالهناء.. ينظر إلى مركزه المهيب، ومال دولت هانم المغدق عليه، وجمال هند الذي يستطيع نيله وقتما يشاء.. ويومًا ما ستموت دولت هانم بعدما يشغل منصب حكمدار أو وزير وسترضخ هند لحبه ويصبح النعيم حوله كاملًا.. الأمل وحده هو ما يجعله صابرًا دؤوبًا لا حدود لطموحه..

- 19 -

الجليل

آن الخلاص، وحل المكتوب بحموله على ألواح القدر.. لا مناص مما كادت به رغد للغافل بكر.. الغدر مستتر تحت عباءة مشيها المتأني تجاه ضحيتها المشغول في توزيع الأرزاق على العباد.. وقفت أمامه تطالعه بغنج وود، فتهللت أساريره، وتوردت الصحراء في عينيه، ومالت حمرة السماء على وجنتيه.. حدثته هامسة بوجه جاد فرد عليها ببهجة وابتسام خافتًا صوته لئلا يسمعه من حوله.. ثم فجأة اربد وجهها، واستحال صفوها إلى كدر وحنق.. زفرت بغيظ وجحظت عيناها كأنما مسها طائف من شيطان فزعقت مرعدة:

ـ يا أنجس إنسان وطأ أرض قريتنا.. يا أحط من أنجبت نساؤنا.. يا ناكر الجميل يا حفيد المؤامرات والخديعة.. كيف تتجرأ على مولاتك يا ابن الزواني يا قذر؟!.. والله لأبلغن الجليل بما فعلت ليطيح برأسك عن جذعك القذر ويعلقها على باب القصر لتكون عبرة لمن يعتبر..

تحلق الناس حول رغد وبكر في دائرة مغلقة.. أصابت الدهشة عقول الجميع وبسط الوجوم فراشه على وجوههم.. سدت رئاتهم عن التنفس، واستكت مسامعهم عن كل ما حولهم منتظرين ما سيقذفه لسان رغد من كلام يوجف قلب بكر ويسحقه بمطارق الغدر، بينما الأخير واقف كتمثال

من شمع يصهره الذهول وتتلبد الغيوم المدلهمة أمام عينيه المتحجرة.. ظل صامتًا لبضع ثوانٍ ثم نطق لسانه بتلعثم قائلًا:

ـ هل تحدثينني سيدتي؟!

ـ نعم أحدثك يا خنزير القرية.. يا من لا تعرف حرمة ولا شرف.. أتظنني يا وضيع مثل أولئك النسوة الوضيعات اللواتي تخدعهن بكلامك المعسول فيخن أزواجهن أو يرضين بسذاجة أن تفض بكورتهن.. أنا غير كل النسوة أيها البدوي.. فأنا رغد بنت زهير زوجة مولاك وسيد القرية وفارسها حفيد الفرسان.. هيهات من خسيس مثلك أن يدنو من تراب أقدامي..

فاضت عينا بكر بالعتاب والخوف.. تزلزله الأفكار المشوشة ويرعبه ما تراءى له من كوارث.. كان أول ما استقبله عقله في ذاك الاضطراب الوخيم سؤالًا واحدًا.. لمَ تخنه رغد بعد كل ما جرى بينهما وتودي به إلى حفر التهلكة؟!.. فرد عليها مستغيثًا:

ـ لكني لم أقل ما يزعجك يا مولاتي.. أرجوك؟!

هنالك فتحت ذراعيها عن آخرهما وهوت بكفيها بعضهما على بعض تخاطب المحيطين بلهجة مندهشة قائلة:

ـ أتعتقد يا خنزير أنك عندما تدعوني للمجيء إلى بيتك في العصر سأسعد بدعوتك وأخون زوجي؟!.. بالتأكيد إن أحمق وضيعًا مثلك يعتقد أن النسوة كلهن سواء.. تبًا لك يا كلب، وسحقًا لأمثالك.. فأنا سيدة القرية التي لا تنحني سوى لجليلها أما أنت فمثلك مثل أي كلب أتقزز من رؤيته وأنزعج من سماع نباحه..

ـ لكني يا مولاتي لم أقل لك ذلك..

هنالك رفعت حذاءها من قدميها، وانهالت على رأسه به واشتد صياحها حتى سمعه من في آخر القرية مثل أولها قائلة:

ـ أتكذبني يا ابن الأنجاس؟!.. والله ليقتلك الجليل ويسلخ جلدك عن لحمك النتن..

فدفعها بكر، ووقعت على الأرض ثم انطلق يعدو ناحية جبل الغريب وهو ينظر ناحيتها بلوم وحسرة،بغضب وخوف بينما الآخرون غارقون في الصمت والحيرة والارتباك.. فزعقت فيهم رغد وهي ملقاة على الرمال كالشاة المذبوحة قائلة:

ـ هلموا وراءه.. لا تدعوه يفلت منكم.. ائتوني به حتى يصلبه الجليل على جذوع النخل ويفصل رأسه عن جسده ليكون عبرة لمن لا يعتبر..

نظر الناس بعضهم إلى بعض يقلبون ما دار في رءوسهم، يتلمسون الصدق فيه من الزيف، فهم يعرفون البدوي عن ظهر قلب ويحفظون سيرته في الرذائل، فبدأت خطواتهم تتحرك ناحية بكر قبل أن يركض المعاونون أولًا ثم تبعهم بعض الرجال وتبقى الشيوخ والأطفال الذين استغلوا الفرصة واندست أيديهم وسط الغلال والعسل والبقول يسرقون ما طالته أيديهم واستطاعوا مواراته.. اندفع الجميع في عدوهم يسابقون ظلالهم ونور الشمس والريح العابرة؛ لكن بكرًا كانت سرعته فائقة كأنما تحمله الشياطين حتى غاب أثره من صفحات النظر، وطواه جبل الغريب بين صخوره والصحراء الشاسعة في رمالها.. وظلت رغد في مكانها تطالع البعد، تمني نفسها أن يهرب حبيبها قبل أن يدركوه ويقتل!

* * *

اضطربت قريتنا، ونزع عنها الأمان.. ارتجفت الأفئدة، وانسكب الرعب فوق الرؤوس الخانعة.. طفق ملاك الموت يجوس بناظريه في الوجوه البائسة.. وازينت المقابر لاستقبال الضحايا بعد أن شمت رائحة الدماء تضوع في الأجواء.. احتجبت الشمس بأغطية السحاب فزعة مما تراه وخالط انتحاب القمر نشيج بكائنا المكتوم.. إنها أحد تلك الأيام التي لا ينجو فيها إلا من أراد الله له النجاة وغفل عنه الجليل وثوره الهائج

صفوان.. كلهم دمه مستباح.. ووحده الدم يطفئ نار الغضب، ويخمد شهوة الانتقام.. لكن كم من الدماء يجب أن يسال قربانًا لرضا مولانا الجليل حتى يغمد شره في باطنه؟!..

منع العزاء وسُلخ الموتى ثم علقت أجسادهم المحمرة على أبواب القصر وعلى تخوم القرية.. أما من صلبوا فقد غرست صلبانهم وسط أرض الزيتون.. لم تبق خيمة واحدة من خيام البدو إلا وهدمت على رأس ساكنيها واجتر البالغون منهم إلى مذبحة الجليل انتقامًا لشرفه أما أطفالهم فقد ألقوا بهم إلى الصحراء لتتولاهم الضواري بانيابها أو الصحراء بجفائها..

زهقت نيف الستون روحًا من البدو أما أصدقاء بكر من أهل القرية فقد ألقي بهم إلى محرقة طالت ألسنتها السماء وصبغتها بحمرة الدم القاني واللهب المتوهج.. كل ذلك قام به الجليل وصفوان ورجالهم بوحشية وهمجية كي يعلموا مخبأ بكر الذي كأنما انشقت الأرض وابتلعته ولم تترك له أي أثر غير كتابات تنقش على جدران أحد البيوت كل بضع ليال مكتوب فيها « أنا والد من في رحم رغد « فتذكي الغيظ، وتوغر الصدور، وترفع راية الدم خفاقة على رؤوسنا..

في البدء كان الجليل يذبح كل ساكني البيت الذي تكتب على جدرانه تلك الجملة حتى رآها بأم عينيه منحوتة على أحد أعمدة فناء قصره، فبطش بالخدم أجمعين وجلد كل واحد منهم مئة جلدة لكنهم كانوا يصيحون بجهلهم عن مكان بكر ويصرون على ما قالوا مهما اشتد عليهم العذاب وصعق الآلام حتى صدقهم الجليل وأعتقهم..

الجليل يعلم أن رغد وضيعة وخبيثة وتروم إنجاب الولد لتحفظ نفسها من شقاء الفقر والحاجة، لكن هل تصل بها الجرأة والطمع إلى خيانة الجليل ومضاجعة بكر؟!.. وإن كانت قد ضاجعته فلم طالبت برأسه لأنه تحرش بها؟!.. وإن كان ما يقوله بكر حقًا فما السبيل للتيقن من

ادعائه؟!.. هل يقتل رغد ويرتاح من شرها ومما ينبت في بطنها من غرس محير؟!.. لكنه لو قتلها أو ماتت لأي سبب في فترة حملها سيؤكد الادعاء عليها وحينها سيدفن شرفه في الوحل إلى الأبد ولن يقوى على رفع رأسه أمام رعيته.. وإن لم يقتلها، فسيرث ملكه طفل من غير صلبه لا يمت لآل جعفر بصلة.. وإن صدقها وكذب بكرًا، فهل سيصدقها أهل القرية الذين ستلوك ألسنتهم سيرته إلى الأبد؟!.. هل يقتلهم جميعًا وينتهي من ذاك الإرث الأحمق؟!.. لكن إلى أين سيذهب ومن سيعيله؟!.. اللعنة عليك يا جعفر وعلى أندلسك والمماليك وعلى الساعة التي حطت أقدامك فيها تلك الأرض الملعونة..

مرت أيام عاتية الجنون.. واستبد الظلم يفتك بالجميع.. الكل يترقب في هلع موته القادم ولا يملكون غير الاختباء خلف أبواب بيوتهم الواهنة.. حتى جاء اليوم الذي حملت فيه جثة بكر وقد نهشتها الذئاب في عرض الصحراء.. وجدها بعض فتيان البدو الصغار الذين حُكم عليهم بالرحيل عن قريتنا، فأتوا بها إلى الجليل ليهمد غضبه، وتقر عينه، ويسمح لهم بالبقاء في ديارهم..

هنالك ارتاجت أبواب الجحيم، وغلت أيدي مغتالي الأرواح، وشبعت الأرض بما ملأ باطنها من الجثث.. عادت الحياة إلى قريتنا مكسورة جريحة لكنها على كل حال أفضل من الموات والهرج اللذين عشنا فيه.. وظل عم زهير يردد بحسرة وهو يعمل في محله مقولة واحدة:

ـ اللعنة على جباه أطفئ فيها نور الإباء.. وأنفس محقت عنها روح الكبرياء.. وظلم يعصر رقابنا ويزيد البلاء..

لكن هيهات للأرض الملعونة الشبع من أمواتنا هكذا.. سرعان ما عاد شبح الهلاك ضيفًا ثقيلًا على قريتنا ثانية حينما ظهرت تلك الكتابات مرة أخرى وبنفس الخط على أحد جدران بيوت القرية.. همَّ الجليل بقطع رقاب أصحاب البيت لكنه عدل عن عزمه ليتدبر ما يحدث حوله وترك

الأمر لصفوان.. لقد رأى جثة بكر بأم عينيه وحضر دفنه في الخلاء.. لا أحد يعلم القراءة والكتابة في القرية غيره وبكر والشيخ حامد بن عبد الصمد ومن قبله الشيخ سعدان وأنس الحلاق وحماه زهير الحداد.. واحد منهم بكل تأكيد هو من يكتب تلك العبارة ويحرص على أن يهينه ويكدر صفو حياته.. لو كان سعدان حيًا ولم يحكم عليه بالإعدام لقتله زوجته لقال هو.. والشيخ حامد لا يساوي ذرة دونه وهو شديد الولاء له أما أنس الحلاق فهو رجل تافه لا يبلغ عقله مثقال حرف من حروف اللغة، وزهير الحداد هو والد رغد.. من يكون ذاك الوغد؟!

ـ آه يا إلهي أعني.. هو بالتأكيد واحد غيرهم.. ورب الجعافرة سيفتك الجنون برأسي..

* * *

إنها إحدى الصباحات المشؤومة التي لازال طيف الجحيم يحلق في أعاليها حاجباً الضياء والهناء.. الدم يفيض بغزارة.. موسم الشيطان والفتنة لم يحزم حقائبه للمغادرة بعد.. الحزن ممنوع، والبكاء غير مسموع، ورائحة نتن الجثث تضوع.. الكل يترقب في هلع.. من عليه الدور اليوم لارتقاء سلم الآخرة والعروج إلى السماء؟!..

كان طلحة كعادته يصلي الصبح في جماعة ثم يتناول الإفطار مع زوجته فاطمة وطفليه زياد و سلمى.. الخبز الأبيض المحمص وزيت الزيتون واللبن والعسل.. زياد متعلق بوالده لدرجة عجيبة حتى أنه لا يفارق حجر أبيه ساعة الطعام مما يجعل طلحة يداه مشغولتان في إطعامه وإطعام صغيرته الجميلة سلمى لئلا تغار من أخيها ثم يضع لقيمات الخبز المغموسة في اللبن في ثغر زوجته الحنون الباسمة.. حتى إنه قد يقوم من الإفطار دون أن يأكل لكنه يحس بالشبع بعدما يلمح لمعة الفرحة في عيون أسرته.. فيحمد الله ويثني عليه شاكرًا ثم يعد نفسه للذهاب إلى عمله كمزارع للزيتون.. في العادة يصحب معه ابنه إلى الأرض ليتعلم منه

ويؤنسه لكن منذ بدء حملة الجليل المجنونة على أهل القرية آثر سلامته وإبقائه في المنزل مع أمه وأخته.. إلا أن إصرار زياد في هذا الصباح على الذهاب معه كان قويًا ولحوحًا..

ـ لمَ لا؟!.. فقد هدأت القرية بعد موت بكر واطمئنان الجليل بالخلاص من الخائن..

هذا ما قاله طلحة لفاطمة مطمئنًا إياها وهي تنهر ولدها لتمسكه بثوب زوجها وإصراره على الذهاب معه.. فقبلت الأم على مضض وتخوف لئلا يبقى في المنزل ويهلك رأسها بالبكاء ومشاغبة أخته كما أن الوضع قد أصبح بالفعل أكثر أمنًا على الرغم من ظهور الكتابات اللعينة مرة أخرى..

انطلق طلحة حاملًا فأسه ومخلاته وطفله على كتفه.. يغني له تارة ويطوحه في الهواء مازحًا وهو ممسك بذراعه تارة أخرى.. هكذا هي عادتهما.. المزاح والمرح طوال الطريق لا يقطعهما عن ذلك سوى رد السلام على أحد المارة أو إلقائه عليه..

في الطرف الآخر من القرية كان يعدو بحماس وسرعة تجاه القصر جرير بن هانئ حاملًا لسيده خبرًا لا يجب الانتظار عليه.. هو لا يتمنى جائزة نظير نقله للخبر؛ فقط القرب والرضا.. نعم فالخبر من النوع النفيس الذي ثمنه المعتاد هو نيل الاستحسان كالكلب المخلص.. مضى يشق المسافات كالريح العفية حتى هبط لاهثًا على أعتاب القصر وهو يهتف منذرًا:

ـ لقد عادت الكتابات المنقوشة مرة أخرى يا مولاي صفي الدين..

تحلق حوله الحرس ونزل لرؤيته الجليل ثم لحق به صفوان الذي لم ينل القسط الكافي من النوم ليسأله الجليل بلهفة عن مكان المنزل المنحوت على جدرانه الكتابة.. هنالك نظر الرجل بتوجس وخيفة تجاه صفوان ثم نطق كلماته باضطراب قائلًا:

ـ إنها منقوشة على بيت أخت سيدي صفوان..

اضطرب الرجال جميعًا ودارت النظرات فيما بينهم حتى استقرت على وجه صفوان المرتبك الذي سرعان ما لملم شتات نفسه وتحدث بنبرة راجية لاستجداء الجليل قائلًا:

ـ فاطمة لا تعرف القراءة والكتابة مثلي يا مولاي.. أنت تعلم إخلاصي لك وصدقي معك.. فاطمة لا دخل لها في ذلك يا مولاي.. أرجوك..

ـ إذًا أقتل زوجها يا صفوان.. الآن..

هكذا وبمنتهى البساطة أمر الجليل قاتله المخبول بقتل زوج أخته.. ثم عاد أدراجه إلى القصر بعدما أمر بمكافأة إلى ذاك الواشي التعيس، وانفض الجمع تاركين صفوان يقاسي أوجاع القلب ويعاني مرارة القدر ويصارع وحده قيود المصير المهين..

ـ إذا قتلت طلحة حل عليّ سخط فاطمة وكراهيتها الدائمة إلى الأبد.. سأحرم من مجالستها ولمس أناملها ومطالعة وجهها وسماع صوتها.. ستلعنني وتقضي باقي عمرها في حزن أسود حتى يقضي عليها.. وإذا لم أقتله قتلني الجليل ثم بطش بها وبزوجها وأبنائها شر بطشة.. ما الحل ياربّ؟!.. لقد حل علي شؤم أعمالي ودعوات المظلومين فأصابني انتقام الرب من عليائه.. هل أقتل الجليل نفسه وأهرب مع فاطمة وزوجها وأطفالها؟!.. لكن من يضمن نجاحي في اغتياله وإن نجحت، فسيتسابق لقتلي أهل القرية لأني قد قطعت حبل نجاتهم ومطعم أفواههم، وإن استطعت الفرار، فستهلك فاطمة وأطفالها بسيوف المماليك وأنياب الضواري، وإن فشلت، فسيصلبني الجليل على جذوع النخل أو يطلق عليّ رصاص مسدسه.. الموت والخراب مكتوب في كل صفحة مما تبقى لي من كتاب قدري.. لا فرار.. لا أمل.. لا خلاص..

ضرب بقبضته سور القصر الحجري فتهشمت بضع أجزائه وطار الغبار متكاسلًا حول يده..

ـ لابد أن يموت طلحة لتنجو حبيبتي..

هذا ما تفتق إليه ذهنه بسرعة حاسمة وهو يمضي تجاه زرع الزيتون بخطى ثقيلة ونفس ذليلة مهشمة.. كل شيء محسوم في قريتنا تبعًا لأوامر الجليل، لا يجرؤ أحدنا على تجاهل أوامره الظالمة ولا يتجاوز نواهيه الطاغية.. كلنا دمى يكسرها وقتما يشاء ويلهو بها حينما يريد.. لا قيمة لحيواتنا في نظره ولا صوت لنا يصل إلى أذنه.. بيده الحياة وبيده الممات وما نحن إلا خاضعون منبطحون لسطوته وجبروته..

* *

في ظل انشغالها لما تعده للغداء وهي جالسة أمام الفرن تمده بالحطب اليابس وتقلب ما في القدر فوقه دخل عليها ولدها الصغير فزعًا مروعًا تنتشر على جسده بقع الدم، يصرخ خائفًا ملتاعًا:

ـ أماه.. لقد قتل خالي أبي.. أماه.. لقد قتل خالي أبي..

جمدت فاطمة في مكانها لتعي ما يقوله ولدها ثم قفزت من جلستها ناحيته لتتبين ما صرح به من فاجعة مروعة؛ لكن الزمن لم يمنحها سوى لحظات حتى دخل عليها أخوها حاملًا لجثة طلحة يقطر الدم منها.. فاتجهت صوبه مصدومة ذاهلة، ترقرقت في عينيها الدموع والدهشة.. أخوها يقتل زوجها!.. لمَ؟!.. وكيف هان عليه كل ما بينهما ليرتكب جرمه؟!.. لم تحملها قدماها لتلمس وجه زوجها المطفي كقنديل نفذ منه الزيت.. ارتمت على الأرض لا تصدق ما رأت أو ما سمعت.. غيبتها الأحزان العالية وأحكمت على فمها الخرس.. دارت بناظريها في البيت حتى عادتا واستقرتا على جسد زوجها، عندئذ أطلقت صرخة خرجت من مخ قدميها حتى قمة رأسها.. ظلت تصرخ وتلطم خديها، وتنهال الدموع على وجنتيها المحمرتين.. ثم انتفضت ناهضة، وأمسكت أخيها من ياقته زاعقة:

ـ لمَ قتلته يا مجرم؟!.. لمَ؟.. لمَ ذبحتني معه؟!.. لمَ لم تشفق عليّ

وعلى أطفالي؟!.. لمَ طعنت أختك التي أحبتك ورعتك طوال عمرها؟!.. يا مجنون.. يا لعين.. يا وغد..

أفلتت جثة طلحة من بين يدي صفوان وظل يستقبل صفع فاطمة لوجهه وسبها له وهو محطم مغيب.. لقد نحر عنقه بيده حينما قتل زوج أخته.. الآن رأى الظلمة في أوج اسودادها.. شاهد العالم ينتهي من حوله وبه.. سال الدمع من عينيه المتحجرتين.. كان دمعه ثقيلًا مثله.. مازال صامدًا أمام صفعات أخته وسبابها كأنما يسألها المزيد ليطهره.. كان يغمغم مخاطبًا نفسه بحرقة قائلًا:

ـ ابكِ.. أسلب من الزمن لحظة حزن صادقة.. دع دموعك تمسح وجنتيك وتعبر بك إلى أرض الطهر.. فهي مجدافك وقاربك اللذان لم ترهما من قبل وهي ماؤك المتدفق المنساب إلى ضفاف الخلاص.. فالكذب عهر، والنفاق لعنة، والطغيان ضعف، والحقيقة لسان مبتور.. الأحاسيس كلها وهم لم تعشه أثناء عبوديتك للجليل وأبيه من قبله.. لن يصحبك للخلاص سوى حزنك.. ابكِ وانتحب، وأسمع نفسك عويل الندم.. تطهر من الدم المراق وقيدك النجس وماضيك الملوث..

أغمض عينيه، ثم احتضن أخته بقوة لم تفلح معها محاولاتها للإفلات منه.. لثمها على جبينها قائلًا بوهن:

ـ لم أقتله إلا لحمايتك.. أرجوك سامحيني يا حبيبتي..

ثم أرخى ذراعيه من حولها.. فركضت ناحية الفرن تبحث كالمخبولة عن شيء وسط الأواني والقدور وهي تلعنه وتسبه بأقذع الشتائم والفحش من القول.. ثم توقفت فجأة كأنما وجدت ما تبحث عنه، وانطلقت مهرولة ناحيته وهي تحمل سكينًا يلصف سنها الحامي ومعدنها المتين.. وبكل ما أوتيت من قوة غرزتها في صدر أخيها المصقل الذي لم يحرك إصبعًا ليمنعها.. راحت تضغط بكلتا يديها على السكين وهو يتأوه ويخرج الدم من فمه كالقيء حتى صار جسد السكين كله مغروسًا في صدره.. فسقط

الجبل على الأرض وتحشرجت أنفاسه وهو يلفظ كلماته الأخيرة قائلًا:

ـ آه لو تعلمين كم أحبك يا فاطمة.. حبًا لم يسمع عن مثله أحد من البشر..

ـ مت يا قذر مت..

هذا ما هتفت به وهي تركله في بطنه، وتبصق على وجهه.. يتطاير الشرر من عينيها، والغضب الملتهب من صدرها..

* *

وحدها رغد تعلم يقينًا هوية الفاعل.. استعر وجدانها تبلًا ولفت برأسها حلقات الحنق.. ألعن كوابيسها يتجسد أمام عينيها.. الفضيحة والموت.. فطنت بحتمية وضع حد لمخاوفها.. لكن كيف تتخلص منها؟!.. كريمة امرأة محبوبة لا غنى عنها لأي امرأة في القرية، كما أن سيرتها حسنة وزوجها أنسًا من رعايا الجليل المخلصين المطيعين..

أرسلت رغد دعوة لكريمة لزيارتها عن طريق أحد الخدم.. وانتظرت على جمر حام بدء اللقاء.. ستتحدد ملامح مصيرها عقب انتهاء جلستها مع كريمة.. ستحاول إغراءها بالعطايا؛ لكنها تعلم سلفًا أن جشع البشر لا حدود له.. هل تهددها بالموت؟!؛ لكنها لا تملك تهمة مقنعة تلقيها عليها.. إذًا تضع لها السم في الطعام وتفرغ من تلك الأفعى؛ لكنها بكل تأكيد ستبوح بالسر قبل وفاتها حينها لن تفلح في مقصدها ودفن السر المشؤوم معها..

ـ كريمة زوجة أنس الحلاق هنا يا مولاتي..

ـ حسنًا.. أدخليها يا سندس وانصرفي أنت..

دخلت تجر أطراف جلبابها وراءهـا.. الكبر والخبث يشعان من ناظريها.. رأسها مرفوع وتمسح فمها ابتسامة صفراء.. أوغر صدر رغد واضطرم حتى الغليان من مشهد دخول كريمة الذي اختصر كل ألاعيب

الكلام مفصحًا عن فهم عميق لسر الزيارة.. نزفت جدران الغرفة خيوطًا من اللهب الحار لفح وجهيهما وذاب الهواء من حولهما حتى اختنقت العيون في معارك النظر.. فبادرت رغد قائلة في هدوء مصطنع:

ـ ماذا تريدين يا كريمة؟!

ـ الخير لمولاتي..

ـ لا تتحاذقين عليّ يا رفيقة الشيطان.. أنت تعلمين سبب استدعائك إلى هنا..

اتسعت ابتسامة كريمة المستفزة لترد في غنج قائلة:

ـ أنا رهن إشارة مولاتي.. هل يشغلها أمر آخر تسأل خادمتها كريمة المشورة؟!

انقضت رغد على عنق كريمة بكلتا يديها، تخنقها من عنقها بغيظ يتفجر في عروقها، قائلة في همس:

ـ ماذا تطلبين يا لعينة مقابل توقفك عن كتابة تلك العبارة القذرة على جدران البيوت؟!

أفلتت كريمة عنقها من يدي رغد وأدارت لها ظهرها قائلة:

ـ أريد العدل.. أريد مشاركتك النعيم فنصيحتي هي السبب وصمتي هو الذي يبقيه..

ـ ماذا تطلبين؟!.. انتهي من ذاك التلون الرخيص وأمليني ثمن سكوتك..

ـ الآن لا أريد شيئًا محددًا.. لكن في المستقبل بلى..

ـ أتظنين يا حقيرة أنك تلوين ذراعي؟!.. أنا أستطيع القضاء عليك بإشارة من إصبعي لكني أبغض الدم ويكفي ما أصاب قريتنا من ذبح وصلب..

ـ ها ها ها.. أضحكتيني يا مولاتي أضحك الله سنك.. منذ متى عرفت الشفقة والرحمة طريق قلب بنت زهير؟!.. أرجو عندما تتحدثين معي يا حلوة أن تصدقيني القول فقد أصبحنا شريكتين في نعيم واحد.. لذا لا تقولي لي أنك تستطيعين إخفائي من الوجود لكن قلبك الرحيم هو من يمنعك.. أنت توقنين كما أوقن بأن الخلاص مني ليس بالأمر الهين.. وشراء سكوتي هو سبيلك الوحيد للاهتناء بثمار جرمك.. ومصلحتي ومصلحتك واحدة.. فأنا أيضًا مللت الحرمان وخدمة نسوة القرية العفنات..

ـ يا بنت الكلاب.. كان يوم شؤم حينما طلبت مشورتك..

ـ بل كان يوم سعدك.. وتعودي على مخاطبتي باحترام يا رغد.. فكلتانا قد لجئن لغير أزواجهن ليجنين النعيم.. لذا لا فضل لك عليّ بل أنا هي صاحبة الفضل، على الأقل فأنا لم أخن زوجًا كالجليل وأتسبب في قتل وتعذيب أهل القرية..

ـ يا ساقطـــ...

كتمت كريمة بكف يدها فم رغد قبل أن تكمل سبتها ثم قالت لها:

ـ ألم أنصحك بالأدب؟!.. لم تصعبين الأمور علينا؟!.. على العموم سامحك الله.. سأذهب الآن على أن أعود لك وقتما أشاء لأنال ما أريد..

تلاعبت بحاجبيها للأعلى والأسفل ورفعت كفها عن فمها ثم سحبت طرف جلبابها وغادرت الحجرة تاركة رغد غارقة في وحل العار والغضب تلعن حظها والقرية وكريمة والجليل وكل ما يخطر على بالها!.. صار عليها الآن الرضوخ لأحقر امرأة عرفتها في حياتها وإلا فالهلاك نصيبها..

- 20 -

الصعلوك

مارجريت بلير.. الزبون الثالث والوردة المتفتحة في قبو الكآبة الذي يعمل فيه الصعلوك.. امرأة إنجليزية في عامها الثامن والعشرين.. فتنتها تثمل الأعين، وضحكتها تطرب القلوب، وصمتها تخشع له الأنفس، وعيناها الخضراوان يحملان من الغموض أكثر مما تحجبه السماوات عن قصير النظر..

ترعرعت مارجريت في العاصمة الإنجليزية لندن حيث المال والسطوة.. شبت في بيت خال من العاطفة بعد وفاة والدتها وهي في سن السابعة وسفر والدها المتكرر إلى أقطار العالم لعمله في تجارة الشاي والسكر وفي الخفاء المتاجرة بالآثار المسلوبة من البلاد الواقعة تحت استعمار بريطانيا.. كل ما حولها يكابد جفاف الحب والجمال والسكينة.. حتى حياة الترف التي عاشتها مادية مملة تندر فيها المتعة وتصطنع فيها الضحكة وتتظاهر فيها بالرضا..

منزلها الفخيم وثيابها الباهية وطعامها المعد بعناية وتسريحة شعرها البالغة الدقة، والخدم المنتشرون في المنزل كآلات لا هدير لها تعمل في صمت ممل حتى حديقة الفناء لا تتبدل أوراقها ولا يتغير حالها بتنوع الفصول.. الموسيقى أيضًا كانت ذات وقع باهت لاضطرارها إلى عزف

أو سماع نفس الألحان كل يوم.. أما الأصدقاء فمعظمهم تافهون أو منغمسون في فخ المادة..

كانت الوحدة هي أعز أصدقائها، والخيال هو منقذها، والتأمل هو سبيلها للخلاص مما تعانيه في بواطنها.. وعندما يعطب خيالها عن التوسع ونسج الرؤى والأفكار والأحلام كانت تلجأ لقراءة الروايات للأدباء الإنجليز والفرنسيين لاتقانها الفرنسية بجانب لغتها.. أما أكثر رواية قد أسرتها هي رواية تشارلز ديكينز « أوقات عصيبة » فقد رأت في البطل مستر توماس جراند جرينـد والدها وفي شخصية لويزا نفسها وفي ستون لودج المنزل القبيح الثري صورة لمنزلها.. أما اسم الرواية أوقات عصيبة فهي عنوان حياتها وعزلتها واضطراب عواطفها..

ولكن.. لم تكن حياتها بهذا السوء خاوية العواطف.. فهناك ذاك الخادم الإفريقي وزوجته اللذان دائما ما جذبا اهتمامها ووجدت متعة في مراقبتهما والتأمل في حالهما.. كان الخادم يدعى أكوانا وزوجته ندعى نيبوها.. جسد أكوانا كان أشبه بمصارعي الكولوسيوم ضخمًا، مفتول العضلات، ذا لمعة عجيبة عندما يبلله العرق أو المطر.. رأسه بيضاوية الشكل وشعره مجعد قصير أدعج العينين، ذو شارب خفيف مبعثر، وأذنه صغيرة.. أما زوجته فقد كانت نحيفة شاحبة لكن نهديها بارزين ممتلئين كثمرة يانعة تتدلى من أغصان الشجر، وشعرها كان جافًا كوجهها..

جلب مستر بلير خادمه أكوانا من سيراليون.. إحدى مستعمرات بريطانيا في إفريقيا.. رأى في بدنه قوة جبارة ولياقة عالية لذا فضل الاحتفاظ به كأحد المقتنيات التي لا روح فيها..

وطأ الفتى أراضي الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في عامه السابع عشر.. أحس أكوانا بأن لندن مدينة لا حياة فيها بل سجن كبير يتزاحم الناس فيه على المال والأكل والملابس، فأطفأ الحزن وهج عينيه مثل أسد حبيس في قفص متين، علمَ أنه قد سلبت حريته والمتع من حياته

وأضحى آلة تعمل في صمت مثل كل الآلات المحيطة به، يعيش كي يأكل ويلبس فقط حتى ظهرت نيبوها التي نفخت الروح في جسده المعتم مرة أخرى..

كانت وظيفة أكوانا هي حراسة المنزل والاهتمام بنظافة الفناء وروي النباتات المغروسة فيه.. أما نيبوها فهي أحد خدم المنزل المختصين بالطهي وغسل الملابس.. ومن حسن حظ أكوانا أن سيد المنزل مستر بلير قد بنى غرفة للحارس بجانب بوابة البيت ليعيش فيها.. لذا فقد وجد مأوى له ولزوجته يستمتعان بعضهما ببعض فيه أثناء الليل، ويفضي كل منهما للآخر بما في صدره..

كانت هواية مارجريت المفضلة هي مراقبة غرفة أكوانا من شرفة غرفتها العالية في المساء.. ترى هالة وضاءة من المشاعر البريئة العذبة تحوط جدرانه، تكاد تسمع همس الحب بين الزوجين وتضحك عندما يهيأ لهما أنهما يضحكان، تتقلب مثلهما على السرير وتبث شكواها إلى الفراغ من إرهاق العمل منتظرة مواساة حبيبها.. ثم تخبر نفسها بحزم متقمصة نبرة نيبوها برغبتها في غرفة أكبر لوليدهما المنتظر وتتوهم رد أكوانا بعدم قدرته على تحقيق رغبتها في الوقت الحالي.. وفي آخر الليل تستلقي مثلهما لتطالع بمنظار خيالها أحراش إفريقيا وحيواناتها وحياتهما البدائية البسيطة المبهجة..

أشد ما بهر مارجريت في خادمها الإفريقي هي مناجاته الغريبة للسماء.. وخصوصًا حينما يسقي الزرع يدندن بأغنية لا يفهمها أحد سواه ولا يكاد ينتهي من مقطع منها حتى يطالع الأفق بعين راجية مبتهلة، وبعد أن ينتهي تمامًا يفرد ذراعيه كنسر يعانق الفضاء ويغمض عينيه لدقيقة أو دقيقتين كأنما يغذي بدنه بأشعة لا مرئية تضيء نواحيه فتسمو روحه بالنقاء والسعادة!

وفي ذات مرة تنازلت الفتاة الأرستوقراطية عن مكانتها الرفيعة ووقفت

كتلميذ يبغي العلم وسبل الفهم أمام أكوانا لتسأله عما يقوم به كل صباح ومعنى أنشودته العذبة..

ـ إنها صلاة يا سيدتي للإله المطلع في السماء..

ـ لكنها ليست من المسيحية في شيء.. وأنت قد تم تعميدك منذ مجيئك لبلادنا..

ـ إلهي لا يحفل بتعميدي لأنه يميزني من دون البشر.. فأنا من قبيلة كونو.. من القلائل الذين يعلمون حكاية الإله « سا « وأبانا « آلاتانجانا «.. أنشد له كل صباح مثل الديك والطائر « تو – تو « كي ينعم عليّ بضياء يوم آخر وأمن لا يزول..

أحست مارجريت في صفاء خادمها الإفريقي حكمة بالغة.. وفي صوته الصادح سكينة الإحساس.. وفي إتقانه لعمله الإخلاص النبيل.. وفي علاقته بزوجته نيبوها بالحب الكامل الذي لا تشوبه شائبة.. وفي نصائحه الموجزة سداد الرأي.. فتأثرت به وصارت تأتيه خلسة بين الحين والآخر لتستمع إلى حكاياته الطريفة وابتسامته البريئة وتسأله عن أشياء هي أعلم بها منه؛ لكنها تسعد حينما ترى العالم من خلال عينيه وتفقه حقيقته من وحي كلماته البليغة..

وذات ليلة خبيثة وارت غدرها تحت أستار الظلمة والظلم وبينما هي تراقب غرفة معلمها ومنقذها أكوانا تفتق وحش الظلام عن ثعبانين قفزا إلى داخل أسوار البيت يرومان السرقة فانقض عليهما أكوانا النابه في غفوته ليدفعهما عن محيط حراسته.. قاتلهما ببسالة المحاربين وقوة الأسود لكن رصاصة الخسة انطلقت من مسدس أحدهما واخترقت قلبه فأردته قتيلًا في الحال ثم لاذا بالهرب مستظلين بأجنحة العتمة الممدودة في الأفق..

عاشت مارجريت أيامًا موغرة الحزن وأحست باليتم الحقيقي بعد مقتل أكوانا.. غيبت الدنيا وجه البراءة الذي كان يصبرها على حالها ويفشي في قلبها أسرار الرضا والسكينة.. وعادت الحياة تسجنها في

الوحدة والملل مضافًا إليهما أعباء الحزن الشاقة والذكرى المريرة.. إحساسها بالحنين إلى كلام أكوانا وافتقادها إلى سماحته الطيبة كان قويًا، يدفعها في داخلها أن لا تستسلم لعالم المادة أو تظل أسيرة فيه..

في إحدى الصباحات اللندنية الضبابية، وقد اجتازت عامها الثاني والعشرين قررت مارجريت فجأة السفر إلى موطن أكوانا والتجرد من مادية الحياة بكل مللها وصخبها وزيفها للتمتع بسكينة الروح والذهن المتألق بنقاء الحكمة والقلب المفعم بلذة العيش.. تركت منزلها وعاصمة القوة المطلقة في لحظة دون أن تترك رسالة لأي أحد.. شعرت بغبطة الحرية وهي تنطلق دون عنان وتلفظ كل واقعها دون شفقة لتجد ما تسعى إليه في مكان آخر..

وبعد سفر شاق استمر لشهرين عبر البحار وصلت مارجريت إلى سيراليون موطن الأسود والرعد.. عاشت وسط القبائل الإفريقية وتشبعت روحها بلطفهم وفرحهم الطفولي وبدائيتهم البريئة وسذاجتهم المرحة وألفت السكنى وسطهم.. عانقت الأشجار الحقيقية ورأتها تذبل في الخريف وتورق في الربيع، سمعت زئير الأسود الغاضب وليست تلك الأسيرة في السيرك.. ذاقت الحب والعطف والشغف وسحر الليل وخشوع العبادة ولمست روحها جمال الطبيعة الناصع.. خبلت لبها أساطير القبائل الإفريقية عن الخلق والإله وجذبتها حبكة روايتها وبساطة مضمونها.. فعزمت التعمق فيها للولوج إلى فهم واع لروح أكوانا وعمق تأملاته.. لم تكتف مارجريت بسيراليون بل سحبتها الرحلة إلى الطواف في إفريقيا وبالأخص بعدما نجحت في نشر مقالاتها عن البلدان التي تزورها وطبائع أهلها وطريقة عيشهم.. هي في مصر منذ عامين لأنها تعي أن مصر كانت أول حضارة في إفريقيا وأقدمها في عالم الأديان وأعمقها على الإطلاق.. لذا هي تدرس العربية والهيروغليفية للتواصل مع تاريخ البلد وواقع أهلها وكيفية حياتهم.. أعجبتها قصة أخناتون وأسرها إخلاصه لإلهه بالرغم من كل عداوات الكهنة والمقربون له.. كما أحبت الطرق

الصوفية في التقرب إلى الله بسمو أرواحهم عن طريق الزهد والغناء!

استأجرت مارجريت شقة في شارع عبد العزيز بالعتبة لتعينها على قضاء مهمتها الصعبة في فهم أعقد الحضارات وأطولها عبر التاريخ وكتابة المقالات للصحف الإنجليزية.. كونت العديد من الصداقات مع أساتذة الجامعات وعلماء الآثار وحاولت التقرب من بعض مشايخ الصوفية إلا أنها فشلت..

مارجريت هي الوحيدة التي ظفرت بسر الصعلوك بعدما بثت في نفسه الطمأنينة ناحيتها.. أصابها هول العجب من قصته الغرائبية فدونتها في دفتر ملاحظاتها وودت لو تزور تلك القرية المسجونة، لكن الصعلوك لا يعلم الطريق إليها، ثم فاتحته برغبتها بأن تنشر قصته في الصحف أو الكتب لكنه أبى مرتعبًا من تلك الفكرة.. أما هو فقد كانت صدمته مزلزلة وجلجلت أصداؤها في عقله حينما أخبرته بأن الأندلس قد انتهت وصارت دولة تدعى إسبانيا يدين أهلها بالمسيحية فقط بعدما أجبرت من تبقى فيها من مسلمين ويهود على التنصر أو ألقت بهم إلى المحارق، وأيضًا المماليك قد ولى عهدهم على يد السلطان العثماني سليم الأول عام 1517 م.. ثم حدثته عما فاته من تاريخ مصر والأندلس، عن خمسمئة عام عزل فيها وطننا عن البشر..

رأى الصعلوك في إطلالة مارجريت قدسية وسكينة، وفي حكاياتها السلوى والحكمة، وفي علمها الهداية المنشودة.. باح لها بكل ما جال في درب حياته المناصب له العداء والشقاء.. حتى أدق أسراره وأغورها في خرائب أفكاره ـ كرهه للإله.. ففي ذات صباح قدم لها الجعة قائلًا:

ـ لم ترك الله أكوانا يقتل؟!.. لقد خذله وخذلك مثلما يخذل كل الطيبين وينصف الأشرار..

بطريقة أو بأخرى كانت مارجريت تتوقع من الصعلوك أن يفاتحها ذات يوم بهذا السؤال.. فكراهيته لله ستجعله يحاول استمالتها إلى التعاطف

معه أو مساندته.. لقد فهمته منذ ما حكى لها كل شيء عن حياته.. همت أن تجيبه لكن صوت زهدي الساخر اللائم صاح في لاوعي قائلًا:

ـ ألا تكف التصريح عن كرهك لذاك الإله غير الموجود وحثنا على محاربته معك؟!.. أنا عمومًا لا أقوى على قتال دجاجة بعد انتهائي من تلك القنينة فلا تضعني في حسبانك..

فرد عليه بضحكة مجلجلة عتمان بك قائلًا:

ـ أحمد يفكر في إنشاء تنظيم سري لتفجير مقرات الإله وحزب سياسي لمعارضته على الحكم وتداول السلطة.. ها ها ها

كان باولو لاهيًا في تنظيف الكئوس، وانغمس الصعلوك في حرج وغيظ من تهكمهم عليه؛ لكن مارجريت ارتسمت على شفاهها ابتسامة حكيم هادئ فدعت الصعلوك للجلوس أمامها وقالت له بمرح:

ـ أنت تذكرني بأسطورة الخلق لدى قبيلة الفانج..

ـ وما هي قبيلة الفانج؟!

ـ إنها إحدى القبائل الإفريقية الشهيرة.. شعبها موزع بين الجابون وغينيا الاستوائية.. أسطورة الخلق عندهم تسمى « الثورة على الإله «.. سأحكيها لك..

في البدء كان الثلاثة آلهة يكونون « نظامي «.. والثلاثة هم « نظامي « و « ميبيري « و « نكوا «.. خلق نظامي السماء والأرض ثم نفخ في الأرض فتشكلت التربة والماء كل قسم منهما على جانب من الكوكب.. وبعدها خلق النجوم والقمر والحيوانات والنباتات.. وحين انتهائه دُعي ميبيري ونكوا لرؤية صنيعه.. فاستحسنا إبداعه وأبديا رأيهما عن نقيصة ألا وهي أنهما يشاهدان حيوانات ونباتات كثيرة لكن ليس لها سيد.. فعينا الفيل لحكمته والفهد لقوته وخفة حركته والقرد لخبث طويته أسيادًا على كافة الكائنات.. لكن نظامي ارتأى ما هو أفضل من أولئك، فخلقوا فيما بينهم

كائنًا يشبههم.. أعطوه القوة والهيمنة والحسن ثم قالوا له:

ـ خذ الأرض.. من الآن إلى الأبد أنت سيدها.. فأنت مثلنا تمتلك الحياة وكل ما خلقناه يخصك وأنت سيده..

ثم ارتد ثلاثتهم إلى الذُّرا حيث مقر سكناهم واكتفوا بمراقبة صنعهم.. تاركين « فام » الإنسان الأول وحده على الأرض تتهافت الكائنات حوله لتقديم فروض الطاعة والولاء.. اغتر فام بكل المنح التي امتلكها فشب شريرًا وأضحى متغطرسًا لا يأبه لأحد وكف عن عبادة نظامي بل واحتقره ظانًا أن باستطاعته قهره.. وفي يوم عزف أنشودة قائلًا:

ـ ييبي.. آه يا لا ييبي.. الرب في الأعالي والإنسان على الأرض.. ييبي.. آه يا لا ييبي.. الإله إله والإنسان إنسان وكل في داره وكل لذاته..

فسمع نظامي الأنشودة وتسائل عن منشدها.. فصاح فام هازئًا:

ـ فلتبحث عنه.. ييبي.. آه يا لا ييبي..

ـ من الذي يشدو؟!

ـ إنه أنا الذي أشدو يا هذا..

توهجت نار غضب الرب فنادى عبده الرعد « نزالان «.. هرع إليه الأخير خاشعًا تصحبه ضجته المعتادة فأمره الرب بالانتقام..

ـ بوم.. بوم.. بوم.. أمرك يا رب..

هوت نيران السماء تدك الأرض وتحرق الأخضر واليابس واشتعل كل العالم وهلكت النباتات والحيوانات والطيور والأسماك جميعًا.. ولما قال الرب لفام حين خلقه: (إنك لن تموت أبدًا، وما يمنحه الإله لا يسترده) لكان الإنسان الأول ميتًا.. لكنه اسود حتى التفحم.. فنظر الرب إلى نتاج غضبه، وشعر بالخزي.. كل شيء أسودًا عقيمًا لا روح فيه ولا حياة.. تشاور الثلاثة عما يصنعون.. فغطوا الأرض المتفحمة بطبقة من التربة ثم ألقوا فيها بذرة صارت شجرة ضخمة، لتنقصف من الشجرة ورقة تتحول إلى كائنًا

ينمو ليسير ويصبح فيلًا وفهدًا وظبية وسلحفاة.. وسقطت ورقة أخرى على الماء وعامت لتكون سمكة وسردينة وسرطانًا بحريًا ومحارة.. وطارت ورقة أخرى إلى السماء فخفقت نسرًا وحمامًا وعصفورًا..

تشاور الثلاثة مرة أخرى نظامي وميبيري ونكوا بعد عودة الأرض إلى بهائها وجمالها لحاجتهم إلى زعيم يسيطر على تلك الكائنات.. فصرح نظامي قائلًا: (نصنع إنسانًا مثل فام له نفس الشكل لكننا سنلوي عنقه ولسوف يذوق الموت).. أسموه « سيكومي » وكان هذا هو الإنسان الثاني ووالد الجميع، أشفق نظامي على سيكومي من الوحدة ودعاه لاتخاذ لنفسه زوجه من شجرة.. فاختار سيكومي لنفسه امرأة أسماها « مبو نجوى «..

فصل نظامي سيكومي ومبو نجوى بعد انتهائه من صنعهما إلى جزأين.. جزء خارجي أسماه « جنول « وهو الجسد.. وجزء يحيا داخل الجسد غير مرئي أسماه « نسيسيم «.. نسيسيم هذا هو الجزء الذي يشكل الظل؛ بل هو الظل نفسه، وهو أيضًا النقطة الصغيرة المضيئة في مقلة العين.. وحين يموت الإنسان ينطلق نسيسيم مبتعدًا عن رفيقه جنول عائدًا إلى الرب..

ظل فام حبيسًا تحت طبقات الأرض بعدما أغلق عليه نظامي المدخل بحجر هائل يسد فتحته، حيًا لا يموت، قبيحًا مغتاظًا.. وبعد قرون عديدة ولت كان الحقد فيه وقوده استطاع فام حفر نفق طويل ليخرج أخيرًا من سجنه صائحًا في هياج:

ـ ها قد عدت ثانية يا نظامي..

نظر حوله فوجد الإنسان الجديد يحتل مكانه فازداد شطط عقله وحنقه وغيرته.. وفضل الاختباء في الغابة ليغتال الإنسان وتحت الماء ليقلب قواربهم ويغرقهم.. لكنه يحب عادة الاستلقاء تحت شجرة الكاسافا منتظرًا أن ياتيه أولاد غريمه سيكومي الناقمين على نظامي مثله ليساندوه ضده وينصبوه مكانه.. وهو مازال منتظرًا لا يفقد الأمل ولا تنطفئ جذوة حقده.. يطرب عند الخراب وتثمله السعادة في حزن الثكالى والمنكوبين..

عادت مارجريت للابتسام بعد قصها للأسطورة سائلة بمرح:

ـ بالطبع أنت تريد مبايعة فام والالتحاق بجيشه؟

ـ وكيف علمت؟!

ـ ها ها ها.. إنها أسطورة يا أحمد.. نقصها للطرافة أو العبرة..

ـ لكم أتمنى أن آخذ حقي من نظامي لأنه أذاقني الظلم والقهر والذل دون ذنب.. وكذلك يفعل مع معظم البشر.. يجب أن يوقف أحدهم نظامي عند حده أو يحكمنا بدلًا منه.. يبيي.. آه يا لا يبيي..

هنالك اعتلى الجمود وجه مارجريت وتبدلت ملامحها البشوشة إلى الجد قائلة بنبرة هادئة تتأرجح بين فضائي الشفقة والصلابة:

ـ قد أكون الآن غير منتمية لدين محدد يا أحمد.. لكني أعلم بأن هناك إلهًا يدركه عقلي ويحس بوجوده قلبي.. هو عكس ما تظن من القبح والشر.. لقد خلق الله الكون ومنح البشر حق زعامة الأرض.. لكننا انشغلنا بالاقتتال بدلا من نثر بذور الحياة.. وتملكتنا شهوة السيطرة لا المشاركة.. وعطنت أنفسنا بالحقد والحسد لا القناعة والرضا.. ومدت أيدينا لسرقة أقوات غيرنا جشعًا لا حرمانًا.. نحن يا أحمد من أفسدنا الدنيا وليس الله.. فقد وهبنا كونًا جميلًا يفيض بالسحر والبهاء لكننا نحرقه ونغتال السعادة والصفاء..

ـ ولمَ لا يحمينا من ظلم بعضنا بعضًا وينقذ أرواحنا من الضياع وعالمنا من الانهيار؟!

ـ إنه يتدخل دومًا لإنقاذنا يا أحمد..

ـ هراء.. هل دافع عني وأنا أضرب وأتألم وأنتهك؟!.. من الذي قدر عليّ الشقاء.. أليس هو؟!.. من الذي ترك فتاة النيل تسحل وتغتصب واكتفى بمشاهدتها.. أليس هو؟!.. من الذي ترك أكوانا يقتل ليحميكم بينما هو جالس في السماء ينظر.. أليس هو؟!

ـ نعم هو لم يدافع عنك حينما نكلت بك أمك وأهل قريتك لكنه ساعدك على الهرب، ومنحك القوة لتجتاز الصعاب حتى وصلت إلى هنا بعيدًا عن كل البطش والشقاء الذي عانيته لتبدأ حياة جديدة نظيفة تغير فيها قدرك بنفسك.. أما ما حدث لك هو نتاج رجل مهووس بالحكم أخفى مصائركم عن الأعين لتظلوا جميعًا عبيدًا له تخدمونه لينعم عليكم بالفتات.. كل من كان في قريتكم يا أحمد هو بائس بسبب ذاك الرجل ومن خَلَفَه في تملك رقابكم.. أما فتاة النيل فما أدراك أنها تألمت قبل أن تموت؟!.. قوة الإله لا حدود لها.. بالتأكيد أنه خفف عنها وخبأ روحها بعيدًا عن الألم وسينتقم من الجناة يومًا ما.. أما أكوانا فقد أرداه تقاعس رجال الشرطة عندنا عن أداء دورهم في ملاحقة المجرمين والتصدي لطيشهم، والحروب العديدة الناتجة عن جشع حكام العالم هي التي أنهكت اقتصاد الدولة ليزداد الناس فقرًا فيلجئون للسرقة..

ـ كلامك كله هراء.. أنت لم تمر بما مررت به.. لم تتألمي مثلي.. لم يكن الله حاضرًا يومًا واحدًا ليخفف عني العذاب.. الكون كله عبث وهراء.. لا حكمة من خلقه أو عذابانا إلا التسلية فقط.. أنا أكرهه وسأظل أكرهه إلى آخر يوم في عمري..

ـ مسكين أنت يا أحمد.. تخشى رؤية النور من كثرة ما تعودت على الظلمة.. فليهنأ جعفر وبنوه بما فعلوه فيك..

* * *

أحست مارجريت تجاه الصعلوك بمسئولية إنقاذه من ماضيه الأغبر والارتقاء به إلى عالم النور كما فعل معها أكوانا.. لمست في قلبه الطيبة وأبصرت عذابه بين جنبيه.. عزمت على إضافة مهمة جديدة لحياتها ألا وهي الأخذ بيديه للنهل من فضيلتي التصالح والتسامح لكي يمضي في حياته دون أحمال الماضي الشائكة المرهقة.. لذا دعته للعمل لديها

كمساعد على أن تلقنه دروس القراءة والكتابة ليؤدي مهام وظيفته الجديدة على أكمل وجه..

بالطبع وافق الصعلوك على العرض الذي قدمته مارجريت على الرغم من المحبة والود اللذين شبا بينه وبين باولو.. لكن من يقوى على رفض طلب لذاك الوجه الصابح كالحليب، وتلك العينان الخضراوان كأوراق الزيتون الناضج؟!.. كانت مهمته الأولى هي مرافقة السيدة الإنجليزية إلى الإسكندرية لحضور مولد المرسي أبو العباس لرغبة مارجريت في التعرف على طبائع المناسك الصوفية عند ذاك المقام..

والتقى الرفيقان عند محل باولو في النهار فسلما على العجوز الإيطالي ثم مضيا إلى محطة سكة حديد مصر ليركبا القطار المتجه إلى الإسكندرية.. كان بدء تحرك القطار للصعلوك مرعبًا ثم بعد انطلاقه إلى أقصى سرعته أضحى ملهمًا لمشاعر المرح والحبور، إنه يعدو عكس الريح والزمان والمكان.. منذ ضجعة مهده لم يصادف ذاك السرور قط.. غمره إحساس مطابق لإحساس ذئاب القرية.. الحرية المطلقة وسيادة لحظته.. لم يفق من ابتهاجه الطفولي إلا عندما جذبته أنامل مارجريت المغتبطة لتدعوه إلى الجلوس..

ـ أنا أعلم إحساس المرء حينما يركب القطار لأول مرة.. لكنك سعيد بشكل لا يصدقه عقل.. ها ها ها

ـ نعم يا سيدتي.. إنها أول مرة أذوق فيها حلاوة ما تذوقه الذئاب كل يوم..

ـ لا تدعني بسيدتك يا أحمد.. إنما قل لي يا ماجي.. فأنا لا أحب أن يكون هناك حاجز بيني وبينك.. إننا سنعمل مع بعض كثيرًا لذا لا تدعني أشعر بالملل منك..

ـ أمرك يا ماجي..

سكت لبرهة يحمل فمه بنيان الابتسام ثم أردف قائلًا بود:

ـ أشكرك يا ماجي وأتمنى لو أهب حياتي لك عرفانًا لجميلك.. أنا أشعر أن مجرى حياتي سينعطف أخيرًا نحو الخير على يديك.. هناك خاطرة في بالي أود مصارحتك بها..

ـ ما هي؟!

ـ كم أود أن تكوني أنت مكان الإله الذي آلمني كثيرًا، ليصير العالم جنة بحق..

ـ ممم.. الشرط الثاني ألا تتحدث عن الإله أبدًا قبل أن أسألك.. فلذاك حكمة ستعلمها في وقتها..

تجلت على وجهه بوادر الحرج لصدها لكلامه وهو ما لم يتعود عليه من أذنها المصغية بعناية واهتمامها به، فلمحت مارجريت ذلك وأرادت التخفيف عنه قائلة:

ـ أتعلم أن المرسي أبو العباس هو إمام أندلسي توفي في الإسكندرية وشيد حول قبره ذاك الجامع الذي سنزوره؟!

ـ حقًا؟!

ـ نعم.. اسمه الحقيقي شهاب الدين أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري.. ولقب بالمرسي لأنه جاء من مدينة مرسية بالأندلس.. درس وأخذ العهد من شيخه أبي الحسن الشاذلي ولزم الإسكندرية ثلاثًا وأربعين سنة حتى وافته المنية، وقد كان مثالاً يحتذى بالعلم القويم والنفس المهذبة والتقوى الهائلة.. هناك كثير من أعلام الأندلس ولوا قبلتهم تجاه الإسكندرية بعدما سقطت بلادهم في أيدي القشتاليين.. منهم من استقر بها حتى مماته ومنها من سكن فيها لزمن ثم رحل؟!

ـ خبريني عن أسمائهم..

ـ حسنًا.. هناك الشاطبي وأبو عبد الله المعافري وجمال الدين الوائلي وأبو بكر الطرطوشي وغيرهم ممن لا تسعفني الذاكرة ولا العلم بأسمائهم..

ـ حدثيني عن الصوفية يا ماجي..

ـ الصوفية هي عبادة الله كأنك تراه.. تطهير القلب وترويض النفس.. الزهد في الشهوات، والإقبال على الطاعات.. الاستسلام لله، والصفاء له.. التخلي عن العالم لتسمو روحك إلى قرب المحبوب، فتنعم بلذة نوره وبهاء حضرته.. وأظنك قد قابلت أحد أتباعها.. إنه ذاك الشيخ الذي حدثتني عنه..

ـ إذًا الصوفية ثلة من البلهاء..

لم يرق لمارجريت رد الصعلوك فاجتنبته برأسها ناحية النافذة.. إنها توقن بصعوبة المهمة وتدرك مرارة ما لاقاه.. وحدها الأيام المبهجة والتجارب السارة ستشكل عقله من جديد لذا لا داعي للابتئاس، فهي في أول الطريق ولم تمض فيه بعد..

وصلا إلى الإسكندرية وركبا الحنطور ليذهبا إلى فندق سيسيل المطل على كورنيش الإسكندرية بجوار محطة الرمل.. بهر الصعلوك عرض البحر ومساحته الشاسعة.. حاول القفز مرارًا بعينيه إلى ضفته الأخرى لكن دون جدوى.. هو ليس كالنهر محدود عرضه وضيق إنما امتداده يتخطى مد النظر..

ـ أتعلم يا أحمد أن هذا البحر أوله عند إسبانيا أي موطن أهل قريتكم الأصلي؟!

ـ هل مر ماؤه على مالقا؟!

ـ بالتأكيد..

تأمل الصعلوك وجه البحر اللامع وأمواجه الصاخبة وأحس بالألفة تجاهه.. مهما كان نسبه مجهولًا إلا أن أصله معلوم لتلك الأرض التي مسح هذا البحر المسافر دومًا رمالها وذاب في مائه نسائم هوائها.. اجتاحته بهجة لقاء الأحبة والأقارب.. أخيرًا بعد طول صبر وجهل وحيرة التقى برسول يخبره بأن له أصلًا وليس مبتور الهوية كما عاش طوال عمره.. البحر هو البشرى والبداية ـ هكذا هتف وجدانه..

- 21 -

النهاية

وجهه مكفهر، وأنفاسه حارة.. حركاته مختلة وعيناه زائغتان.. تلك هي حال أنور حينما تدلهم الأمور، وتتعقد الأوضاع.. الساحة السياسية متفجرة.. اغتيال حسن البنا أخرج الأمور عن السيطرة.. جماعته تروم الرد وبقسوة على الجميع.. الكل متهم.. الداخلية، الملك، اليهود، الحكومة السعدية، المخالفين في الرأي من قلب التنظيم.. الحقيقة دومًا مفقودة في عالم السياسة، ووظيفته البحث عن المفقود الذي سيظل مخبوءًا للأبد.. مستقبله على المحك.. الاعتقالات تطال كل فرد من الجماعة كي يستتب الأمن للقاتلين والسجون محشوة بالمظلومين..

بالأمس لفظ أحد المعذبين أنفاسه على يديه.. بشره بخراب الدنيا وجحيم الآخرة قبل أن يموت.. فانتفض ضميره من رقدته محذرًا لائمًا.. لم تفلح زجاجات الخمر التي تجرعها جميعًا في اجتثاث رعبه من نفسه.. تمنى لو تطلبه دولت هانم لتتفنن في تعذيبه؛ لكنها لم تتصل به.. هو لا يجرؤ على التحدث إليها دون إذن منها!

مضى ليلته في الحانة حتى بزغت الشمس كجنين مسخ من رحم الليل الموحش.. يعلم بأن ذهابه إلى هند وهو في تلك الحالة حتمًا سيؤذيها وقد تهرب منه ولا يقوَ على منعها.. لكن أين يجب عليه الذهاب في ترنحه

المزري وغمه الفائض؟!.. الخلاء حوله مسيطرًا على الأنحاء العامرة.. خياله مشحون بتأنيب والده التقي الطيب.. شقاء الطفولة، الفقر، الكذب، سوط دولت هانم.. إنه يحتاج إلى الراحة يقينًا.. لابد من الذهاب إلى القفص الذي يحبس فيه عصفورته البائسة.. لا ملجأ آخر.. سيتلاشاها للنوم وهذا ما تتمناه وتفضله.. جسده الخدر وذهنه الملبد بغيام الكدر ونفسه المحطمة لن يسمحوا له سوى بالاستلقاء على السرير وإغلاق عينيه.. إطفاء محرك عقله واللوذ بالصمت الآمن هما ما سيحولان بينهما ويمنعا الشجار..

فتح باب الشقة بصعوبة بالغة فقد أنهكه المسير والسُكر.. دلف بهدوء إلى الصالة فرأى هند متكومة في ركن تبكي بحرقة كأنما مات كل أحبائها وفقدت كل مالها!

ـ ما بك يا غراب النكد؟!

لم تجبه وزاد هياج دمعها.. فاغتاظ أنور وركبت رأسه الحانقة الشياطين، ركض نحوها ثم ركلها في بطنها زاعقًا:

ـ ما بك يا بنت الكلب؟!.. تريدين العودة إلى بيوت الهوى مرة أخرى بعدما نظفتك أم العودة إلى قريتكم التائهة في الصحارى المهلكة؟!.. واحدة مثلك وجب عليها السجود تحت قدمي لما قدمته لك.. بيت راق وطعام شهي وملبس بهي وعز لا تحلم به أي مومس أو حتى شريفة..

تأوهت هند على الأرض، وتلوت من الألم.. زحفت نحو الأريكة تستند إليها كي تنهض.. لكن أنور امتطى ظهرها، وجذبها من شعرها هائجًا كالثور وهي تموء تحته كالقطة التي لا حيلة لها..

ـ اتركني أرجوك..

ـ لا لن أتركك يا عاهرة..

خلع معطفه وهمَ بتمزيق ثيابها.. لكنها استجمعت بعض قوتها

ودفعته عنها.. استطاعت الإفلات من تحته لوهنه وسكره.. نظرت حولها فوجدت ميدالية المفاتيح يتدلى رأسها من جيب معطفه.. ركلته في وجهه بقدمها فهوى إلى الوراء، وارتطم رأسه بالحائط.. أضحت الفرصة الآن سانحة للهروب.. التقطت المفاتيح، وركضت نحو الباب.. فتحته باضطراب وهلع وهي تسمع أنور يتوعدها ويهددها بصوته المتحشرج الغليظ بأن لا تخرج من البيت.. ها هو باب زنزاتها يفتح على مصراعيه أمامها، حينها فقط تنفست أول نسمات الحرية وقفزت على السلم بعزيمة وإقدام وقودهما الخوف والرغبة في الحياة الطاهرة الحرة.. إنها حافية القدمين، ثوبها فضفاض لا يصلح ارتداءه في الطرقات لكنها لا تأبه.. نعم قد آن للعصفور الأسير بأن يحلق ثانية في السماء الصافية ويمرح في نقاء الأثير.. ظلت تعدو وتعدو دون توقف.. لا تروم مكانًا بعينه.. فقط الخلاص والحرية..

فجأة لعب القدر إحدى أعاجيبه النادرة وصدفه المدهشة إذ وجدت هند نفسها واقفة أمام الصعلوك في أحد الشوارع الجانبية لمحطة الرمل.. كانت الصدمة عاتية، مذهلة، مبهجة، محزنة.. الذكريات وحدها اعتلت رأسيهما، اختفى العالم من حولهما بكل ملامحه وحملهما الزمان إلى المكان اللذين نبتا فيه.. القرية، جبل الغريب، الزيتون، عم زهير الحداد، الجليل، علام، الذئاب.. المشاهد متزاحمة والأنفاس متجمدة والرياح تأبى المرور بينهما والكون صامت يرقب..

رملت نحوه بفرحة القلب ووجيعة النفس.. احتضنته واحتضنها.. ذابا كحبات الملح في الماء.. لفهما الحنين غير المفهوم والألفة لشيء نفروا منه؛ لكنه الوطن الذي يحملان صبغته على جباههما.. لثمها بين عينيها ولثمته على خده.. دثرتهما الأعين المستغربة بتعاطف يستحقانه، وذرفت مارجريت الدمع دون أن تفهم لكنها حرارة الموقف.. ودوت تأوهات فرحة اللقاء تصدح في آذانهما كأهازيج عم رجب السمار حتى اجتاح سكينتهم صوت أنور المرعد:

ـ يا بنت الكلب.. أهذا هو عشيقك الذي تنوين الهرب معه؟!

ثم أشهر مسدسه الميري وأطلق رصاصاته الغادرة نحوهما..

* * *

عادت الحياة المضجرة إلى قريتنا.. وتناسى الناس كعادتهم ما جرى لتشبثهم بالعيش.. أيما كانت الطريقة يجب عليهم أن يحيوا.. المزارعون في أرض الزيتون يفلحون.. وأنس الحلاق يجهز عريسًا لليلة زفافه، والنسوة تلوك سِير بعضهن بعضًا، والأطفال إلى المشاكسة واللهو.. والجليل صفي الدين يراقبهم من نافذته العالية بتعال دون أن يتحرك سواد عينيه في بياضهما..

ـ ما ينمو في أحشاء رغد ليس بابني، أنا موقن بذلك، لكني لن أقتلها أو أقتله.. سأتركهما.. يجب أن ينتهي إرث جعفر بن عبد الله عندي.. سيفنى السر المخبوء بموتي يومًا ما.. لكني لن أكون جالب العار لأجدادي.. سأدع الناس يلاقون مصيرهم وحدهم.. لن يكتشفوا الحقيقة قبل موتي.. سأحول دون ذلك بكل ما أوتيت من قوة.. سامحني يا جدي على التفريط.. لكن أيادي البشر ستطالنا عاجلًا أم آجلًا ولن يبقى سلطانك مثلما ابتغيت.. لكني سأرحل عن العالم محافظًا على الملك الذي منحتني إياه وسينتهي الأمر نقيًا عند مماتي مثلما ابتدأ بموتك.. عند آخر أحفاد جعفر بن عبد الله، الفارس الأندلسي – المجنون !

تمت بحمد الله

تتناول "الجليل والصعلوك" قصة قرية أنشأها وأخفاها عن الأعين "جعفر" الفارس الذي هرب من الأندلس وقت سقوطها إلى القاهرة ثم إلى الصحراء حيث ابتدع عالمه الجديد.

يستمر مُلْك هذه القرية في نسل جعفر، حتى يصل إلى الجليل "صفي الدين" وهو الذي تتناول قصته الرواية مع العديد من شخصيات القرية أمثال الشيخ سعدان وزوجته صفية، الراعي بكر والحارس الشرس صفوان، فرح وابنها الصعلوك الذي يقدم على المحظور بهروبه من القرية إلى أرض البشر..

الصعلوك (هكذا اسمه) هو إنسان تعرض لصنوف من الظلم والتنكيل في حياته لذا صب جام غضبه وكرهه على الله تحديداً لأنه لم ينقذه من قبل..

وعبر الانتقال بين حياة الجليل القلق وحياة الصعلوك الشارد تصف هذه الرواية أبشع أنواع الاستبداد ونتائجها على أي مجتمع تمارس فيه..

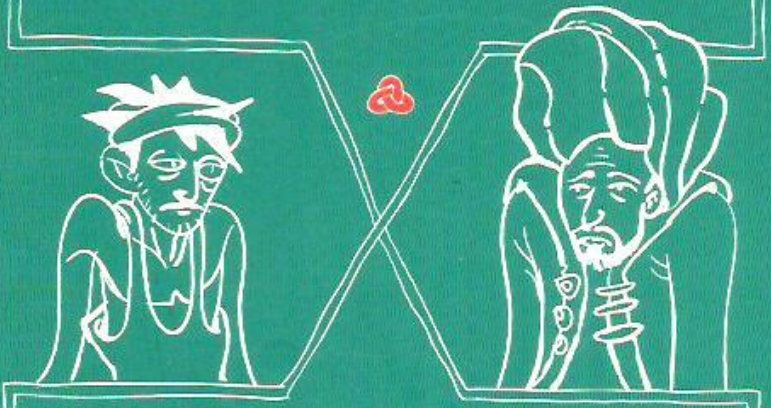

محمد سالم .. كاتب مصري من مواليد نوفمبر عام ١٩٨٢. صدرت له رواية واحدة هي "راقص التانجو"، والتي حصلت على المركز الثاني لجائزة ساويرس للرواية فرع الشباب عام ٢٠١٢.

تصميم الغلاف:
جذير

ISBN 978-9953-582-80-2

النورس للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس
بريد الكتروني: dar.alnawres@gmail.com
موقع الكتروني: www.dar-alnawres.com

دار محمد علي للنشر

تونس
بريد الكتروني: edition.medali@tunet.tn
موقع الكتروني: www.edition-medali.com